القسم الثاني

قوى الغرب
وتوسّع الأوروبيين العالمي

obeikandl.com

في السنة ١٨٥٠ ، بدا النظام الاوربي ، الناتج عن معاهدات سنة ١٨١٥ ، وكأنه قد عاد الى نصابه ، وفي السنة عينها ، زال خطر الحرب الاهلية الى حين في الولايات المتحدة بفضل التسوية الكاليفورنية ، وانمـــا ، منذ السنة ١٨٥٤ ، بينما بلغت أزمـــة الارق ذروة حدتها في العـالم الجديد ، اندلعت الحرب – للمرة الاولى خلال القرن التاسع عشر – بين الدول الكبرى في العالم القديم ؛ فابتدأت بذلك اعمال حربية لن تنتهي الا في السنة ١٨٧١ . انهار النظام الاقليمـــي المقرر في مؤتمر فيينا والهيمنة العسكرية الفرنسية ؛ وحققت كل من ألمانيا وايطاليا وحدتهـا ، وسيطر الربح البسماركي بدوره على اوروبا البرية الجديدة التي عرفت ، منذئذ ، السلام المسلح . اما الحرب الانفصالية فقد حررت مستقبل اميركا الانكلوساكسونية مما يعترض سبيله .

توطدت اركان الولايات المتحدة ، وعرفت اوروبا انقساماً لم تعرفه من قبل : وقد بـدا ، منذئذ وكأن مصير هذه الاخيرة يتردد حائراً .

ولكن الحقيقة على غير ما يبدو ، اذ ان قوى القارة الصغيرة ما زالت سائرة قدماً في نموها الحثيث . فاستمرت حركة توسع بريطانيا العظمى التي لم تدخل طرفا في حروب القوميـات ؛ وما لبثت فرنسا أن دخلت دور النقاهة بسرعة ، فساورتها رغبة متزايدة في اثبات وجودها خارج اوروبا ؛ وما زالت الكتلة الروسية تنوء بثقلها على آسيا ؛ ولن تلبث ان تبرز « السياسة العالمية » التي اختطتهـــا الامبراطورية الالمانية المتميزة بقوة هائلة . ولعل الحضارة الاوروبية أشعّت حينذاك اشعاعاً فائق القوة .

الفصل الأول

المنعطف الحربي خلال القرن
الحروب القومية في أوروبا
والحرب الانفصالية في الولايات المتحدة
(١٨٥٤ - ١٨٧١)

من حرب القرم الى الحرب الفرنسية الالمانية ، حرب الانفصال وانقلاب الوضع في البر الاوروبي لمصلحة المانيا

تميزت السنوات ١٨٥٣ – ١٨٧١ بمزيد من الاضطرابات . فهبت على الغرب ريح حربية . وكان ميدان المعركة الاول شواطىء البحر الاسود . فقد حالف نابوليون الجديد انكلترا ، وهاجم بجيوشه روسيا . ولكن نتيجة حرب القرم هذه لم تكن هزيمة للامبراطورية القيصرية وقيام ازمة داخلية فيها فحسب ، بل عجلت التوسع الاوروبي شطر الشرق واندلاع الحروب القومية في اوروبا نفسها في آن واحد : فمن جهة شعر مهزومو سيبستوبول ، الذين ابعدوا مرة اخرى عن المتوسط ، بحاجة الى الاندفاع نحو آسيا الوسطى والشرقية زاد من حدتها نشاط عمل فرنسا وانكلترا على الطرق البحرية المؤدية الى آسيا الجنوبية . ومن جهة ثانية ، برزت حركات الشعوب بسرعة في المانيا وايطاليا والدول الدانوبية بسبب انعزال النمسا وعداء الامبراطورية الفرنسية الثانية لمقررات مؤتمر فيينا الاقليمية . فأدى ذلك ، بدون انقطاع تقريباً ، الى الحرب الايطالية في السنة ١٨٥٩ ، وحرب دوقيتي شلسفيغ وهولشتاين في السنة ١٨٦٤ ، والحربين النمساوية – البروسية والنمساوية – الايطالية في السنة ١٨٦٦ : فبدلت خريطة اوروبا تبدلاً كلياً ، ولم تنج ملكية آل هبسبورغ الا بثنوية نمساوية – هنغارية .

عقب هذا الهيجان في العالم القديم هيجان في العالم الجديد . فحين تخلخل التوازن غير الثابت بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها بارتفاع عدد سكان الشمال ونمو اقتصاده ارتفاعاً ونمواً لا

يقاومان ، انتهى الجنوب الى تقرير الانفصال ، فكانت الحرب الاهلية التي نشبت في السنة ١٨٦١ نزاعاً مسلحاً بين فئتين اجتماعيتين تكاملتا وتضامنتا زمناً طويلاً ، وانتهى الامر بينهما الى عداء ازرق . لا شك في ان لمذهب إلغاء الرق ، الذي زاد انتشاراً منذ السنة ١٨٥٠ ، واحرز الغلبة في الانتخابات الرئاسية في السنة ١٨٦٠ بنجاح لنكولن ، أثره الكبير في تصدع الاتحاد ؛ ولكن الأزمة المالية الاقتصادية – أزمة ١٨٥٧ – قد شددت اصحاب المزارع في موقفهم الحذر من رأسماليي الشمال ، بخلقها تيار حماية الصناعة الوطنية في الاوساط الصناعية . اجل انها حرب اجتماعية ، ولكنها حرب ضارية ، استطال عهدها ، لا نظير لها آنذاك في ما اسفرت عنه من تقتيل وتخريب .

أما اذا خرج منها الاتحاد اكثر قوة ، فان ضعفه العابر قد شجع مع ذلك بعض مطامع الدول الاستعمارية القديمة . وان الغزوة الفرنسية للمكسيك ، التي يعتقد البعض بأنها « الفكرة الكبرى » التي راودت حكم نابوليون الثالث ، قد جرت على مقربة من اميركا العاجزة عن فرض مبادىء « مونرو » . فهل هي فكرة لاتينية يا ترى ؟ أم هل هي نظرة الى المنطقة البرزخية بين الاطلسي والهادي في الوقت الذي تعد فيه العدة لفتح ترعة السويس ؟ ولكن القصد قد تصدع بناؤه منذ ان رفضت اسبانيا ، شأن انكلترا ، التورط حتى النهاية ، وحاولت عبثاً انتزاع الجزر « الآندية » الغنية بـ « الغوانو » . فان حكومة لندن ، التي عملت بوحي الاختباء ، آثرت منح كندا نظام الممتلكات . فكانت نتيجة المغامرة الفرنسية تقهقراً للنفوذ الاوروبي في نصف الكرة هذا .

بعد أن صُدّ في المكسيك ، فكّر نابوليون الثالث بالاعاضة مما ناله في المناطق الرينانية . ولكن عداءه المتأخر للوحدة الالمانية ، بُعيد « سادوفا » ، قد جعله وجهاً لوجه امام بروسيا فكانت له « سيدان » بمثابة « واترلو » لنابوليون الاول .

في السنتين ١٨٧٠ – ١٨٧١ ، استكملت الدولتان الايطالية والالمانية عناصر وحدتهما ، الاولى بالاستيلاء على روما ، والثانية بسحق فرنسا التي خسرت الالزاس وجزءاً من اللورين بعد ان كانت استردت السافوا ونيس . اجل لن تتجدد الحروب الكبرى طيلة نصف قرن لأن المانيا الجديدة بحاجة للاستراحة . ولكن اهواء الشعوب لم تهدأ ، وهو السلم الذي عبر عنه بالسلم المسلح ما سيميز العلائق الدولية في اوروبا حتى السنة ١٩١٤ .

بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية للعهد الحربي

حاول بعضهم تقدير كلفة هذه الحروب : مليار ونصف المليار للحرب الايطالية ، ومثلها لحرب السنة ١٨٦٦ ؛ وبين ١٣ و ١٥ ملياراً للحرب الفرنسية الالمانية ، وقرابة ٣١ ملياراً لحرب الانفصال. وما ان سدد تعويض المليارات الخمسة حتى استعادت الموازنة الفرنسية توازنها مرة اخرى . الا ان الاقتصادين النمساوي والروسي قد تأثرا اكثر من الاقتصاد

الفرنسي، وامضت حكومة الولايات المتحدة زهاء ١٥ سنة في محو آثار عجز مالي ثقيل الوطأة . وعلى اي حال ليس رأس المال ما تحمل هذا العبء في هذه الجهة من المحيط الاطلسي او تلك : فهي رسوم الاستهلاك والرسوم الجمركية ما وفر النصيب الاكبر من الواردات الاضافية الـــتي يتوجب على جمهور السكان أن يؤمنوها ؛ اما تضخم الاوراق النقدية « ذات الظهر الأخضر » فقد سهلت المضاربة وانتقال الثروات الى اميركا .

رافقت الحروب ارتفاع في الأسعار ، كما حدث بين السنة ١٧٨٩ و ١٨١٥ . ارتفعت نسبة الكسب الرأسمالي : ارباح الصيارفة عن طريق القروض (اصدر منها « ارلنغر » واجداً في اوروبا لحكومة جنوبي الولايات المتحدة ، ولكن ثلث القيمة خصص لتجهيز السفن التي لم تسلّم) ، ارباح الميارة (مورغان، كرنجي، روكفلر، وانامايكر ، فاركورهار، هاركنس في الولايات المتحدة) هاركنس ببيعه الروم والوسكي ، وفاركوهار ببيعه المحامل لنقل الجرحـى) ؛ أرباح مصانع الآلات الحربية والذخائر : كروب في اسّن ، وشنيدر في الكروزو، وارمسترونغ وفيكرز في انكلترا ، والاسوجي نوبل في روسيا ، و « دي بون دي نومور » في اميركا (زوّد هذا الاخير الطرفين المتحاربين في حرب القرم) رمنفتون وهوتشكيس اللذان لجأ « غمبتا » الى خدماتهـا . وحققت الكيمياء وصناعة استخراج المعادن نجاحات سريعة .

مميزات الحروب وعدد الجرب في منتصف القرن

تميزت النزاعات المسلحة التي ادمت اوروبا بقصر مدتها وسرعة تقرر مصيرها لأن القوى بمعظمهـــا تتجابه منذ الاصطدامات الاولى. اجل حافظ معظم الدول على الجيش التقليدي المحترف، وبقيت القوى المتقابلة في جبهة القتال محدودة العدد نسبياً . الا أن الجيش الوطني البروسي قـد ارتفع عدد أفراده منذ الاصلاح الذي فرضه بسمارك في السنة ١٨٦٢ – ١٨٦٣ ؛ وقد هزم هذا الجيش على التوالي جنود الامبراطورية الثانية والفرق التي ارتجلتها حكومة الدفاع الوطني عائدة في تنظيمها الى أساليب السنة ١٧٩٣ .

أما في الولايات المتحدة ، فقد جرت حرب ناهكة، حرب شاملة يلعب الارتجال فيها الدور الاول في النهاية ؛ ولكنها تستلزم وقتاً طويلا واستهلاكاً عظيماً في الرجال والعتاد ؛ وما زال اختصاصيو « وست بوينت » المحترفون يأنفون من ارسال الجيوش بأعـــداد كبرى الى جبهة القتال ، فكانت النتيجة ان الشمال أحرز السيطرة بقوة النار وبالعدد على السواء .

ان فترة السلم الطويلة التي عقبت السنة ١٨١٥ لم تكن موافقة للطلوع بتعاليم عسكرية جديدة. وتأمل المعنيون بالأمر في مآثر كبار القادة من أمثال فردريك الثاني ونابوليون: فاكتفى « جوميني » الذي أخضع كل شيء للعقل المفكر ، بعدد صغير من القواعد الثابتة ونادى بتوفير القوى ؛ ونادى « كلوسفتز » ، الذي خص المبادرة بنصيب اكبر ، بأهميـــة القوى المعنوية ، وترابط السياسة والحرب ، وتراءى دور القطار الحديدي . أما عملياً فان الجيش النمساوي كان

يذهب الى المعركة كما الى لعبة شطرنج ، والجيش الفرنسي ، الذي فاتته عادة العمليات الواسعة ، لم يستخلص من حملاته على الجزائر سوى دروس شجاعته و « حسن تصرف » . وعاش العسكريون البروسيون ، بعد ليبزيغ وواترلو ، في مناخ الثقة الجافة نفسه الذي عاشوا فيه بعد انتصارات فردريك ، فتلمسوا طريقهم قبل ان يسيروا على خطى « مولتكه » الذي انضجه عوزه في بدء حياته وبعض خيبة الآمال في تركيا ، وخدمه مبدأ جمع كافة الجندين في فرقة واحدة — مما يسهل احداث رحلات كبرى على بعض الاستقلال — فاختار استراتيجية على طريقة كلوسفتز ، وعين من ثم على رأس الجيش أركان حرب يعرفون كيف يتحملون مسؤولياتهم ، وفضل على « المركز الحسن » الذي يسعى وراءه المشاة ، المناورة التي وسع من أجلها دور المدفعية .

استمرت المنافسة بين الرماية والدرع ، ففي سيبستوبول وحول ريشموند شلت حركة المهاجم زمناً طويلاً أمام الخطوط المحصنة ؛ ولم يحاول الالمان الاستيلاء على متز بالقوة ، كما أن باريس قاومت طيلة خمسة أشهر . ولكن الاسلحة الهجومية حققت بعض التقدم : فان ابتكار كبسولة التفجير ، والطلقة النحاسية ، والرصاصة المستديرة — المخروطية الشكل ، كان بمثابة انتقال من البندقية الزنادية الى السلاح المغرض الذي يحشى من المؤخرة ، من نوع « درايز » المعتمد في الجيش البروسي ، أو من نوع « شاسبو » الذي اختاره الجيش الفرنسي . واذا كان المدفع المسدس ومدفع الرصاص — رشاش الكولونيل « دي رفّي » — اللذان ابتكرا في أميركا ، أثار في فرنسا ، في السنة ١٨٧٠ ، آمالاً ليس لها ما يبررها ، فان المدفع المغرض ، الذي انكب على دراسته الكولونيل « تروي دي بوليو » والذي يطلق قذيفة مقوسة المقدمة تعرف بالقنبلة ؛ قد احتل مركز المدفع الصقيل الذي يطلق القذائف الملأى والمستديرة ؛ ولكن الحشو من المؤخرة واستبدال الشبه بالفولاذ لن يعتمدا الا شيئاً فشيئاً .

وتنافس الدرع والقذيفة على البحر أيضاً . فقد كان حدثاً هاماً ابتكار مدفع « بكسان » لاطلاق القنابل ، الذي جعل السفينة الخشبية عرضة للتدمير ، وهو هذا المدفع ما أتاح للروس تدمير الاسطول التركي في « سينوب » . زد على ذلك أن « فولتن » قد ابتكر القذيفة الناسفة التي استخدمها المدافعون عن « كرونستات » وسيبستوبول ، وبنى الجنوبيون لقذفها اول سفينة تسير تحت الماء . ولكن الاختراع المضاد له قيمته الكبرى ايضاً . فقد سبق لفولتن واركسون ان فكرا بتصفيح هياكل السفن . ثم ظهرت السفن المعدنية والآلات البخارية في السنة ١٨٥٠ : توفق « غوياس » الى تعويم خمس مدفعيات استخدمت في القرم ، ثم حققت « دوريان » في السنة ١٨٥٩ ، السفينة الحربية المدرعة مستعينا بتصاميم « ديبوي دي لوم » اطلق عليها اسم (*Gloire*) المجد ؛ ولكن الانكليز ما لبثوا ان حققوا سفينة حربية تنافسها هي « المحارب » . ولم يمض وقت قصير حتى حققت في الولايات المتحدة السفينة (*Monitor*) التي صممها اركسون للشماليين ، فكانت لا ترى بسهولة ولا تقاوم الامواج بقوة ، ولكنها كانت

مدرعة بصفائح حديدية سميكة جعلتها تقف بالمرصاد لـ (*Merrimac*) سفينة الجنوبيين الخشبية المزودة بمهاز معدني في طرف مقدمتها ، وتكيل لها الضربات الواحدة تلو الاخرى . فخشيت بريطانيا العظمى فترة من الزمن على زوال هيمنتها ، فبنت بسرعة سلسلة من « المدرعات » التي زودها « ارمسترونغ » بالابراج .

بيد ان النجاحات التقنية لم تكن من التقدم بحيث تتجاوز الخسائر في الارواح خسائر حروب الثورة والامبراطورية تجاوزاً يذكر . فان معركتي « ريزونفيل » وسان – بريفا اللتين تعتبران اهم المعارك الدامية في السنة ١٨٧٠ قد اسفر كل منهما عن ٣٣ ٠٠٠ ضحية ؛ والحال ، اسفرت واغرام عن ٤٠ ٠٠٠ قتيل وواترلو عن ٥٠ ٠٠٠ . وبالامكان اضافة الوفيات المعزوة للامراض . فتقدر ضحايا حرب القرم بمجموعها بـ ٨٠٠ ٠٠٠ شخص تقريباً ، وحرب السنة ١٨٧٠ بـ ٦٠٠ ٠٠٠ وحرب الانفصال بـ ١ ٣٢٠ ٠٠٠ .

ولكن الشاعر لا يريد ان يفقد الامل :

« لا ! لا ! ليس مصير الانسانية
أن تجلس بلا حراك عند عتبة المدافن الباردة ... »

(فكتور هوغو ، « السنة الرهيبة »)

الفصل الثاني

عصر الايمان المطلق بإمكانات العلم

« نتمسك بعقيدة التقدم تمسك المؤمن بعقيدته ...»
(فاشرو)

رسالة الغرب

كانت حرب الانفصال حدثاً عابراً في مرحلة ارتقاء تميز بسرعته ، فلم تضعف عند الاميركي شعوره بأنه معدّ لدور عظيم ؛ ولكن المنازعات القومية قد عجزت هي ايضاً عن صرف الاوروبي عن اعتقاده بأنه يحمل مشعل « الحضارة » . ولا يشك « فورييه » في ان مفهوم الحضارة نفسه لا ينطبق على « الفترة الخاصة من الحياة الاجتماعية التي بلغتها الامم الاوروبية ». ويسخر « ماكولي » من أولئك الذين يرغبون في تثقيف الهندي وفاقاً لمفاهيمه الخاصة : « حين نعلم فلسفة سليمة وندافع عن الحقيقة في التاريخ ، نكون كمن يكتتب بالاموال العامة لعلم فلك من شأنه اثارة الضحك في مدرسة للفتيات الانكليزيات ، او لقصة ملوك يبلغون ثلاثين قدماً ارتفاعاً ويتولون الحكم آلاف السنين ، أو لجغرافية لا ذكر فيها الا لبحور من الزبدة أو من السائل الحلو الكثيف الذي يبقى بعد تبلور السكر ». والسبب في ذلك ان تفوق الثقافة الغربية لا يمكن ان يكون موضوع جدل . وقد قال « برودون » في هذا المعنى: « ان قدسية الانسان مصونة ، وما علينا ، نحن العرق المتفوق بالنسبة للاعراق المتخلفة ، سوى رفعها الينا ، ومحاولة تحسينها ، وتقويتها ، وتثقيفها ، وتشريفها . ورأى « بول لروا–بوليو » ، وهو صهر « ميشال شيفالييه » القائل قول « سان – سيمون » ، ان ما يتوجب على « الشعوب العصرية » هو « عدم التخلي عن نصف الكرة الارضية لأناس جهلة وعجزة » . واستند «تيودور روزفلت » ، على غرار معاصره غليوم الثاني ، الى الرسالة التقليدية المتوجبة على هذا الشطر من البشرية الذي يطلق عليه الربان « ا . ت . ماهان » اسم « واحة الحضارة في صحراء البربرية »، وتمنى من صميم فؤاده « استملاك الاعراق العادمة الاهلية » لمصلحته . ورأى ماركس من جهة ثانية ان مهمة ارشاد المجتمعات وقيادتها تعود الى البروليتاريا المتنورة، أي بروليتاريا البلدان المتطورة.

مسألة الثقافة

فالأمر الهام من ثم هو المعرفة ، هو التربية التي قال عنها فولتير انها « المنبع الخصب لكل نظام وهدوء وسعادة » .

ان نقطة الانطلاق هي محاربة الامية ، ذاك العيب المخزي . لقد اسهمت المطبعة والمدرسة في ذلك . وما كانت الثانية لتعطي ثمارها لولا التقدم الذي احرزته الاولى . ولكن اذا رغب الانسان في القراءة والكتابة – اذ أن الكتاب والصحيفة والاعلان آخذة كلها بالانتشار والرسالة تنقل بسعر منخفض – فليس معقولاً ان يطلب من التعليم الابتدائي فوق ما يستطيع اعطاءه ، ومهما يكن من فضل هذه الثقافة الأساسية ، فهي لا تعدّ للمهنة . من هنا نشأ الميل الى تعليم مهني لا يفصل فصلاً كبيراً بين النظرية والتطبيق العملي ، ويوسع في الوقت عينه افق الكتاب المدرسي . ولكن نادراً ما قهرت الصعوبة ، فقد استمر التفريق بين من يتوجب عليه تأمين قوته وبين من يستطيع متابعة تحصيله العالي ، وقد ساعدت على هذا التفريق التميزات الاجتماعية السائدة .

ولكن ما هي قيمة تعلم آداب قديمة يتذوقها أبناء الارستوقراطية والبورجوازية في الكليات والجامعات ؟ هل في الثقافة الكلاسيكية القديمة ، التي أرضت اهواء النخبة ، استجابة دائمة للحاجات ؟ لذلك كان للقرن التاسع عشر ايضاً مجادلته بين الاقدمين والمعاصرين . فقد قال أراغو من اعلى منبره : « لا يصنع سكر الشمندر بالكلام الحلو ؛ ولا يستخرج الاشنان من ملح البحر بالأبيات الشعرية » ، بينما دافع لامرتين عن قضية « الحقائق الاخلاقية التي تأتينا عن طريق الدروس الادبية » . فهل ان الآداب هي والعلوم على طرفي نقيض ؟ ان مستلزمات القرن واقع ثابت ، والاختيار المتفاوت الحرية – بحسب الأمزجة القومية – أتاح التسويات بين الانظمة الفكرية المختلفة . ومهما يكن من أمر فالحقل العلمي اتسع بسرعة . ولم يبق سوى تدبير التوفيقات الضرورية بين المختبر والمصنع : تحققت المحالفة بعض الشيء بين الفني والعالم ؛ وهي المانيا التي ارشدت الى الطريق في اوروبا . واذا ما زال ممكناً ان يكون المخترع في الغالب ممتهناً وضيعاً ، فقد اصبح الاختراع ، اكثر فأكثر ، ثمرة الدرس . ولكن العائلات صاحبة الامتيازات لم تفقد مكانتها . فعائلة « هرشل » وعائلة « داروف » تمثلان وحدهما مائة سنة من علم الفلك . وقد سيطر اسم عائلة « كاندول » زمناً طويلاً على تاريخ علم النبات . وفرضت عائلة « بكريل » نفسها في حقل علم الطبيعة منذ منتصف القرن . واكبت عائلة « لينورمان » بكل نجاح على علم الآثار . ويمثل الاخوة « سيمنس » العشرة جيلاً من الفنيين يثير الاعجاب والدهشة : فقد اعطوا مثلاً نادراً في نجاح وتوسيع تطبيقات العلم على الصناعة .

نمو الروح العلمية : الاثر الوضعي

ازدادت ثقة العلم بنفسه اكثر فأكثر ، فأوضح اسلوبه وتنظيمه . لقد خلف مذهب العقليين الكرتزياني الذي استند الى بصيرة العقل مذهب عقلي يرتكز ارتكازاً أساسياً الى الاختبار . يضاف الى ذلك من جهة ثانية أن القرن قد نبذ نبذاً نهائياً المنطق الصوري الذي علمته الفلسفة الكلامية والذي ليس ابتداعياً ،

وأرسخت البرهنة على الاستدلال الحسابي الذي يفتح الطريق باستمرار امام الاكتشاف . وقد جمع « جون ستيورات ميل » قواعد الاستثبات بواسطة المعطيات المقنعة . وبينما أخضع «غالوا» الحساب نفسه للاختراع ، لم يبق « كلود برنار » على الاختراع الا ليجعله في خدمة الاختبار ، مقاومة منه للمنطق الكرتزياني الذي أخضع الاختبار للتصور الذهني : ليس للفكر ان يخضع الاختبار امام متطلبات فكرة تتكون ببصيرة العقل ؛ اذا كان هنالك بصيرة عقلية عرافية ، فان الاختبار يستدعي بصيرة عقلية رقابية . وليس من الصعب استشفاف ما ينطوي عليه هذا الموقف من خصب وامكانات . فهو ما سيوفر لعلوم الطبيعة عدّة فكرية طيّعة وبعيدة الغور . ولكن مذهب ماركس المادي الجدلي قد اقترح كذلك، انطلاقاً من الواقع، نظرة «ديناميكية» على العالم تنطبق على تصرف البشر . زد على ذلك ان علماء الرياضيات قد قدموا النتيجة بعد اليوم على اقامة البرهان .

لا ريب في ان المذهب الوضعي قد ابتغى من العلم أن يعين بوضوح صفاته المميزة ومداه وحدوده . ومن حيث هو يدّعي تحديد « الحالة النهائية الحقيقية للعقل البشري » ، فقد عين للعلم موقعه بالنسبة لعلم المعقولات والنظريات المنطبقة على مفهوم الغائية ، وأسند اليه مهمة اكتشاف السنن النهائية للظواهر باستخدام البرهنة والملاحظة معاً ، واقترح عليه ، كمثل أعلى ، جمع كافة آرائنا حول الكون في مجموعة واحدة من الحقائق المترابطة ترابطاً عادم الانفصال ، وطلب اليه اخيراً خدمة التقدم البشري قبل أي شيء آخر ، فربط بذلك الدروس العلمية بعلم الطبيعة الاجتماعي أو علم الاجتماع .

معرفة الكون

لاحظ « كورنو » ان الرياضيات اتجهت « اتجاهاً تغلب عليه الصفة النظرية حين كان القرن يبدي مزيداً من الاهتمام بالناحية العملية » . فما زالت موضوعَ الساعة التوابعُ والاعداد والجاميع الحسابية ، تلك المسائل الكبرى التي أكبّ على ايضاحها « ويرستراس » و « هرميت » و « كرونيكر » والعديد غيرهم ممن حجب اسماءهم لمعان اسم « هنري بوانكاريه » . فلم يكتف هذا الاخير، في المجلدات الثلاثين والبيانات الكثيرة التي نشرها ، بانجاز مجهود سابقيه ، كأن يعود الى توابع « فوكس » مثلاً ويطبقها على الهندسة الاوقليدية ، بل تناول في ابحاثه المعادلات التفاضلية ، والكميات الصغرى ، وحساب التكامل، ومسألة الاجسام الثلاثة (سبق للآلية النيوتونية ، ان حلت مسألة الجسمين) ، واهتم بالعلائق بين الظواهر الكهربائية والظواهر الضوئية . وان « ريمان » الذي ابتدع هندسة غير اوقليدية قد وجد نفسه منساقاً ، منذ السنة ١٨٥٤ الى اقتراح فضاء ذي أربعة ابعاد ، والشعور شعور بعيداً بالنسبية . وقد وضع المعالم على هذه الطريق الاخيرة كل من « هاملتون » بنظرية الجمل الجبرية الخيالية ، و« كايلي » وسيلفستر بنظرية الثوابت .

وهكذا فتح علم الرياضيات امام علم الطبيعة آفاقاً غير منتظرة . ولكن ذلك لم يمنع الانسان من ان يروّض الوقت ،وقته ، لاجل راحته وتسهيل اعماله: حدد ساعة وسطاً واختار

من ثم خط طول أصلياً (هو خط طول « غرينوتش ») ، ورسم اقساماً وهمية مغزلية الشكل لتحديد الوقت وتوحيده في مختلف الدول ، وسينشىء مكتباً دولياً للساعة . وتحت قباب المراصد ، التي ارتفع عددها ارتفاعاً مطرداً ، وزودت بالمراقب الجبارة ، وأجهزة التصوير ، ثم بالمناظر الطيفية ، رسم خريطة السماء بصبر وطول أناة ، وثابر على اكمالها بالكواكب التي حقق هويتها واوضح طبيعتها وابعادها وحركاتها . ثم عين « فيزو » سرعة الضوء بواسطة عجلة مفرضة ، وبرهن « فوكو » ، الذي أكب على البحث نفسه ، ان الارض تدور حول محورها بواسطة رقاص جعله يتذبذب بعد ان علقه بخيط تحت قبة الـ « بانتيون » . ثم سار فن التحليل الطيفي قدماً بفضل « كيرشوف » و « بونسن » و « هوغنز » و « ميلر » (مولد علم الطبيعة الفلكي) . واصاب « ماكسويل » بتفسيره ان الضوء نتيجة تموجات مغنطيسية وكهربائية مشتركة . ودنت الساعة التي سيحقق فيها « هرتز » الموجات الكهربائية . فبدت الموجات منذئذ وكأنها تؤلف مجموعاً ضخماً ، ابتداء من الموجات وراء البنفسجية التي لا تتجاوز بعض اجزاء مئوية من المليمترات حتى موجات « هرتز » التي تبلغ ألوف الكيلومترات . أفليس في هذه الظواهر الضوئية والتموجية والكهربائية والكيميائية دليل وحدة هي وحدة الكون نفسها ؟ .

زمانان« مرسلين برتلو» واللورد« كلفن »: المدرسة الآلية

في بيان نشره في برلين في السنة ١٨٤٧ ، طرح « هلمهولتز » مسألة ذاك الشيء المبهم الذي يظهر في الآلة البخارية والكهرباء والنور نفسه : مسألة الطاقة . والحال ، فان « ماير » و « جول » و« كلوزيوس » ، و « كارنو » من قبلهم ، قد عينوا سنن علم القوة الحرارية ، التي طبقت على درس الغازات فقادت « ماكسويل » و « بولتزمن » الى النظرية الحركية ؛ وفي الحقل العملي ولّد الضغط والتذويب صناعة التبريد .

بعد صياغة سنن دوام وتلف الطاقة ، بقي هنالك اخضاع المادة العضوية نفسها لقواعد الطاقة الآلية . وقد توصل اليها الكيميائيون فعلاً ، ولو بعد مجادلات عنيفة : ألم ينبىء « دوما » بأن الكيمياء ستصبح قادرة على مجاراة الطبيعة الحية ؟ فبعد مرور عشرين سنة ، جاء تحليل كلورور الالومين على يد « سانت كلير – دفيل » ، وتركيب الكحول الخشبي انطلاقاً من عناصره على يد مرسلين برتلو ، يحكمان لما قاله . وهكذا فان بعض الاجسام ، التي كانت تبدو ثابتة ، قد تحللت ، في بعض الظروف الحرارية ، الى عناصرها ، فلحق مدلول التوازن غير الثابت بسنن علم القوة الحرارية . وفي السنة ١٨٦٣ تحقق تركيب الاسيتيلين انطلاقاً من عناصره بمجرد تدخل الشرر الكهربائي . ثم جاء على التوالي دور البنزين والنفتالين والشحوم . وأيد « برتلو » تأكيد الدانمركي « تومسن » بأن الحرارة المتكونة بالتفاعل الكيميائي قابلة القياس ، فقام علم حراري كيميائي الى جانب علم القوة الحرارية .

كلف بالاختبار وامتنع بقدرة العلم القاهرة ، فتخيل بفضل العلم مستقبلاً عظيماً جداً

للانسانية . وجد على غرار « نوبل » في اتقان المتفجرات ، ولكنه انتج الـ « اوزون » صناعيا ووفر لمعاصريه وسيلة تعقيم الماء وتخيل للسنة ٢٠٠٠ غذاء قوامه صفائح آزوتية : آمن بالتقدم اللامحدود واسهم في وضع الكيمياء في خدمة التدمير . انه لوجه عادم المثيل والنظير . وقد وصف « ميشليه » كتابه « الكيمياء العضوية المبنية على التركيب » وكأنه «السلج الذهبي » في هذا الفرع الذي بلغ اشده .

ان « ملك الكيمياء » هذا – كما اسماه « جول لو ميتر » ، الذي استقبله في الاكاديمية الفرنسية – قد مات في السنة ١٩٠٧ ، سنة وفاة اللورد كلفن ، الممثل العظيم الاخير للايمان المطلق بامكانات العلم . كان « وليم تومسن » عبقرياً عملياً اكثر منه نظريا ، فاكتشف المبدأ الذي سبقه « كارنو » الى اكتشافه ، وحسن خصوصا اجهزة كهربائية كثيرة ، وادار عملية انزال السلك البحري الاول عبر الاطلسي ، وكتب العديد من المقالات والبيانات وترأس جمعيات علمية كثيرة في بريطانيا العظمى وسواها . احيط بالتكريم وأغدقت عليه الدرجات الرفيعة ولكنه لم يتوار عن مسرح هذه الحياة قبل ان يشهد هبوط المذهب الآلي الذي دافع عنه اكثر من اي عالم آخر .

معرفة الحياة والانواع الداروينية

بعد مبازّة « كوفييه » وجوفروا سانت – ايلير » ، بدا النصر وكأنه حليف مذهب ديمومة الانواع ونظرية التبدلات الفجائية . الا ان بعض معطيات الجيولوجية وزمن ما قبل التاريخ وعلم الاحاثة قد امالت العديد من الطبيعيين الى مذهب التحول الذي قال به « لامارك » .

والحال ، اصدر شارل داروين ، في السنة ١٨٣٩ – ١٨٤٠ ، « يوميات ابحاثه » الذي دوّن فيه ملاحظاته خلال سفرته البحرية في المياه الجنوبية : فقد لفتت انتباهه الاختلافات في النوع الواحد بين جزيرة واخرى . لقد سبق له ان عرف الجيولوجي « ليال » ، المناوىء للمذهب الذي ينسب التبدلات التي حصلت على الارض الى الفيضانات والزلازل ، كما قرأ مؤلفات « مالتوس ». ارتأى ان الصراع من اجل الحياة ظاهرة عامة تتم بواسطتها عملية انتقاء طبيعية. واصل استقصاءه ، وفي السنة ١٨٥٩ اصدر كتاب « منشأ الانواع » الذي بيع منه ١٢٥٠ نسخة في فترة قصيرة ونقل الى ست لغات .

كان الانتباه متجهاً آنذاك الى الانواع الضخمة من الحيوانات المنقرضة : الزحّاف الاريش ، والطير الانيّب . وقد وضع « اوسبورن » بياناً بانسال الهر منذ الدور الجيولوجي الثالث . ولكن ماذا عن اصول الانسان ؟ فهل ستكتشف يوماً بقايا « بشر سابقين للطوفان » كما انبأ بذلك « بوشيه دي برت » ؟ في الواقع عثر فجأة على جد انسان نيندرتال في السنة ١٨٥٢ ؛ ثم جاءت الاكتشافات الحاسمة في منطقة « بيريغور » ، في « اورينياك » و« غريمالدي ». ولم يخش بعضهم من اقامة نسب بين القرد والانسان .

قام في الوقت نفسه ، منذ ان حقق « بوهل » جبلة خلايا الاجسام الحية ، نقاش حاد حول

تركيب الخلية ودورها ، وهما موضوعان هامان عني بهما التقليديون ، المناوئون لمبـــدأ التطور والتناسل الذاتي . فبينما كان الداروينيون يرفضون التناسل الذاتي ، تمنّع بعض العلماء من امثال « باستور » و « كلود برنار » عن السير وراءهم حتى النهاية . ولكن « هكسلي » شدد على اوجه التجانس بين الانسان والقردة في السنة نفسها (١٨٦٤) التي ندد فيها البابابيوس التاسع عشر برقيم مشهور ، وما لبث « فريتز مولر » ، بعده بوقت قصير ، ان ربط بين علم تخلق الجنين والانتقاء الطبيعي . افترض هكسلي ان المادة العضوية الاصلية موجودة في قعر البحار ، بينـــما طبق « هيكل » ، الذي ربط نظرية الخلايا بمذهب داروين ، سنة « بار » المعروفة بسنة نشأة الحياة ، على الجنس البشري . وقال الفيلسوف « هربرت سبنسر » نفسه بمذهب تحولي ينطبق على حقل المعرفة بكليته ابتداء من تمثل السديم حتى القول بصيرورة اجتماعية متناسقة .

كان سبنسر من اولئك الذين لا يعتقدون بصراع الانواع اعتقادهم بأثر البيئة . وقد نقـــل آنذاك « هيات » و « كوب » من اميركا لاماركية حديثة حملت « لوب » على الطلوع بنظرية التفاعلات بين المادة الحية والظواهر المحيطة بها . اما « موريتز فاغنر » فقد قال بتجمع الانواع المتشابهة بدلا من الانتقاء الطبيعي ، بينما اسلند « هوغو دي فريز » الى السنن التي وضعها الراهب النمساوي « غريغور مندل » ، وعاد ، تحت اسم التحولية ، وعن طريق التناسل ، الى نظرية التحولات الفجائية . فجلي من ثم ان مواقع الداروينية قد ضعفت منذ ان قامت بهجومها القوي .

الصراع من اجل الصحة
كلود برنار والثورة الباستورية

مهما كان من امر النظريات حول اصل الانواع وتطورها ، فقد ولد شيئاً فشيئاً ، بفضل علم الوظائف وعـــلم الحياة ، طب جديد قدمت له الجراحة مؤازرة قيمة . أتاحت الملاحظـــة العلمية للانسان معرفة جسمه والعوامل المرضية التي تهاجمه معرفة فضلى : فساعدتـــه بقوة على تخفيف الالم وبعث الآمال المتزايدة في الحياة .

ومهما كان من اختبارية الطب حتى في منتصف القرن — فهو ما زال ينعت الحمـــى التيفية والزحار بالأمراض « العفنية » — فانه قـــد استفاد من اعمال « لايناك » و « بروسيه » و « اندرال » و « برايت » الذين قطع علم الامراض العضوية بفضلهم المرحلة الهامة اعـــداداً لعلم الاعراض المرضية الصحيح . ولكن الجراحة ما زالت تقاسي من جهل طرائـق استئصال الجراثيم وتأمين المناعة .

على الصعيد العلمي ، يجب انتظار « كلود برنار » لاحراز تقدمات حاسمـــة . اثبت تلميذ « ماجندي » هذا وجوده للمرة الاولى في السنة ١٨٤٩ ببيان حول كيفية هضم الشحوم ، ولا سيما باكتشاف وظيفة الكبد السكرية التي تسيطر على عملية التغذية كلها . وبعد ان افضى بـــه الامر الى ان يرى في السكر الوقود الذي يحترق في الانسجة ويأتي به الدم مع الاوكسجين ، وان ينسب الى الاعصاب الاشتراكية دور منظم حركة الدم ، ويدرس فعـــل السموم في الاعضاء ،

نشر كتابه « دروس في علم الوظائف الاختباري وتطبيقه على الطب » ، ثم « مدخل الى درس الطب الاختباري » الذي كان بمثابة الجيل لعالم الطبيعيات والعالم بصورة عامة ، والذي اولى فيه الافتراض والاستقلال أهمية كبرى ، وأوصى بمناقضة الآراء السابقة ، وأراد اسناد الطب الى سنن ، شأنه في ذلك شأن علم الطبيعة . وحين أدركته المنية في السنة ١٨٧٨ ، كان قد توصل بالفعل الى اثبات وحدة النطاقين الحيواني والنباتي، واعتناق علم الوظائف من الاختبار وعلم المعقولات ، وتحقيق احد آمال « اوغست كونت » . ان هذا الانسان الذي تميز بهيئة مهيبة وطيبة قلب وطلاقة وجه ، قد استمال اليه الناس وأشع من حوله اشعاعاً قوياً . خلفه في « كلية فرنسا » « برون – سيكار » الذي نجح في مواصلة دروس الافرازات الداخلية ، فدفع من ثم بدرس الغدد دفعة الى الامام . وتخصص احد تلامذته « بول برت » في فحص الوظائف الحاسية وظواهر التنفس ، قبل ان يتفرغ للديموقراطية الجمهورية ويلقى حتفه في الـ « تونكين ».

الا ان امنية كلود برنار الاولى كانت تحرير الطب من ضلاله المعتاد . وقد اكب احد الكيميائيين من جهته على تحقيقها . كان « لويس باستور » قد تقدم في السنة ١٨٥٧ ببيان حول الاختمار الكحولي ؛ وقد خلص فيه الى وجود الخمائر والمواد القابلة للاختمار معاً ، والعلاقة بين تعفن الضمة – وهي جرثومة قوسية – وحياتها بدون هواء . اجل لقد سبق لـ « ليبيغ » وأعلن وجود مثل هذا الدور ، ولكن باستور قد اظهر علمياً كيفية حدوثه . ثم انتقل الناس الى التساؤل عما اذا كانت الاجهزة العضوية الجهرية لا تهاجم الكائنات الحية . وقد صادف أن أصيب دود القز بمرض مجهول ، فاكتشف باستور جسيمات بالغة الصغر تنتقل بواسطة البيوض ، هي البكتريات . وقد اثبت الجراح السكتلندي « ليستر » آنذاك ان الفساد الذي يحول دون شفاء الجروح مرده هذه الجراثيم التي اتقاها بالتطهير او تأمين المناعة ضد العفونة . عند ذاك توفق الدكتور « كوخ » من « برسلو » الى زرع جرثومة الفحم التي اكتشفها « دافين » و « ابرت » والتي كانت تفتك فتكاً بالمواشي . درس باستور بيانه ولاحظ اتفاقاً ان جرثومة هيضة الدجاج ، تمنّع الدجاجة ضد المرض اذا ما لقحت بها ، ثم لقح بالفحم ،في السنة ١٨٨١ ، خمسين خروفاً بعد ان طعم ٢٥ من بينها بنسبة خفيفة من الجرثومة (وفاقاً للطريقة التي اتبعها « جنر » في اعداد لقاحه ضد الجدري) ؛ فلاحظ الجمهور ان الخرفان غير الملقحة وحدها قد ماتت . انه لاكتشاف على جانب كبير من الاهمية : فلن تلسب الامراض بعد اليوم الى الاعتلال بلا تمييز ؛ لقد امسك بالجراثيم ؛ وروقبت اعمالها ، وحوصرت بحيث امكنت محاربتها في معركة مباشرة وناجعة . وقد بلغ مجد باستور ذروته حين شفى ، في السنة ١٨٨٥ ، ولداً عضه كلب كلِب .

قضى باستور عشرين سنة في المجادلات الحادة قبل ان يتغلب على المقاومات والآراء المقبولة قبل التحقيق . ولكنه انتصر في النهاية ، وقد استعد جيش من التلامذة للحلول محله في مقاتلة الجراثيم والطفيليات . فان احدهم « توبليه » قد توفي في الاسكندرية حيث كان مكباً على

دراسة هيضة وبائية ؛ وتوفق آخر، هو «شامبرلان»، الى إحكام مطهرة بالبخار المضغوط ومصفاة مائية صحية ؛ وتخصص بعضهم في الكيمياء الزراعية : «رولين»، «فان تيغم»، «اميل ديكلو» الذين استكشفوا بتدقيق الحقول المختلفة التي تعيش فيها النباتات ولحقوا به «شلوسنغ» و «مونتز» و «ميتو غزادسكي» في بحثهم عن بكتاريات العالم النباتي : فحققوا اكتشافاً عظيماً حين اثبتوا ان الاختمار سبب تكون الآزوت في التربة .

في هذه الاثناء واصل سواهم تحقيق هوية اصاغر الجراثيم – كـ «كوخ» مثلا الذي اكتشف جرثومة مرض السل، بعد ان درس الفحم، ثم اكب على دراسة جراثيم الهيضة والملاريا ومرض النوم والبرص، الى ان ادركته النهكة فتوفي هو نفسه بعد اصابته بمرض السل – فعمت معالجة الامراض السارية معالجة وقائية . وقد احرز تقدم جديد بالمعالجة المصلية التي توفق اليها «شارل ريشيه» فدشن بذلك الطريقة الدوائية ؛ ثم طبق «اميل رو» و «فون بهرنغ» الطريقة على مرض الذباح (دفتريا) الذي حقق «كلبس» هوية جرثومته في السنة ١٨٨٣، وركب مصله في السنة ١٨٩٤ ؛ ومن جهة ثانية امتدت حماية المعالجة الكيميائية ضد الفساد التعفني الى حالة الامراض المتسببة عن الاوليات .

اتسع حقل الابحاث امام الغربي، الآخذ في السيطرة على العالم، كلما وُجد وجهاً لوجه امام الادواء والاوبئة في المناطق الحارة . نشط منذ زمن بعيد في معالجة الملاريا والقضاء عليها في الحوض المتوسطي : في السنة ١٨٨٠ لاحظ «لافران» الحيوانات الدموية في قسطنطينة ؛ وجاء بعده «رونالد روس»، الطبيب في جيش الهند، يعين بعوضة الاجمة كناقلة للملاريا فحاربها بنجاح في كوبا وباناما ومصر ؛ ثم اهتم الاطباء الايطاليون المتخصصون في معالجة الملاريا، الذين شق «غراسي» الطريق امامهم، بتطهير مناطق المستنقعات في بلادهم وجعلها صحية . وشن الهجوم على الهواء الاصفر حين حقق «فنلاي» الطبيب الكوبي، هوية جرثومته . واكتشفت جرثومة الطاعون الدبيلي في «كانتون» في السنة ١٨٩٤ بفضل «يرسين»، تلميذ معهد باستور، والياباني «كيتاساتو». واوضح «سيموند» ان الجرذ الاسود ينقله الى الانسان. وحقق الدكتور «فورد» من غامبيا وبعثة «بروس» هوية الحشرة التي تسبب مرض النوم . وسوف يبرهن «نيقول» و «كونت» و «كونساي» في السنة ١٩٠٩، ان القمل هو ما ينقل الحمى النمشية . وقد وضعت ابحاث في الجغرافيا الطبية والطفيليات ترشد الى مراكز الاعداء بين سكان المناطق الحارة .

الا ان العرق الابيض لم يستطع التغلب على عدة امراض خطيرة، بالاضافة الى انه نقل بعضها احياناً . فقد تفشت الامراض الجنسية بفعل الخوف من الاقرار بها . ووصف الاطباء ظواهرها واشاروا الى معالجتها بالزئبق . واكتشف «نيسر» جرثومة السيلان الابيض في السنة ١٨٧٩ ؛ وانما يجب انتظار السنة ١٩٠٥ حتى يتوفق «شودين» و «هوفمن» الى عزل جرثومة الداء الزهري، والسنة ١٩٠٦ حتى يكتشف له «واسرمن» الدواء الشافي – بانتظار معالجته

بالبزموت . وبدا السرطان اكثر غموضاً ايضاً . واذا كان علم الأمراض الرئوية قد اكتشف جراثيم الالتهابات الرئوية ، فان تشخيص التصوير بالاشعة ليس كل شيء ، وليس للمطهرات والمصل مفعول اكيد . أما السل ، وهو المرض الاجتماعي الناجم عن البؤس والتعب ، فقد استلزم حماية ترتبط بظروف فضلى للعمل طال انتظارها؛ يضاف الى ذلك ان المعالجة الجراحية لا ترقى الى ابعد من السنة ١٩٠٨، تاريخ تجميع الهواء في الصدر الذي اعتمده «فور لانيني» . وقد اخذ الاطباء يستشفون استشفافاً بعيداً دور نقص بعض المواد في الجسم ودور الاضطرابات الغددية؛ ولم تدرس الامراض الوراثية فعلاً الا منذ اكتشاف السنن المندلية (نسبة الى «مندل») حوالي السنة ١٩٠٠ .

بيد ان طرائق المعالجة قد تحسنت تحسناً مستمراً . فمقابل طريقة معالجة الداء بضده التي بقيت رائجة ، كان لطريقة معالجة الداء بمثل خواصه من الدواء انصارها من الاتباع المتحمسين الذين آثروا تخفيف الادوية بالمزج تخفيفاً مفرطاً . وقد اثبت كلود برنار ولا سيما برون – سيكار اهمية المعالجة بواسطة السوائل الحيوانية . ثم برزت المعالجة الكيميائية في اعقاب الدروس التي قام بها « اهريش » . ثم نادى « ارسونفال » بالمعالجة بالعوامل الطبيعية ، ثم أدى تطبيق الموجات الهرتزية على المعالجة الى تعزيز فعالية المعالجة بالماء وبمياه الينابيع في الينابيع نفسها التي سهلتها وسائل النقل الجديدة . الا ان التردد على ينابيع المياه المعدنية قد استلزم ، بالاضافة الى مستوى حياتي مرتفع ، معرفة علم خصائص المياه وتواميسها معرفة يقظى . لا بل برزت معالجة مناخية حقيقية في اعقاب ابحاث « بول برت » و « جوردانيه » حول نتائج انخفاض الضغط الجوي في الجبال ، كما اتضحت اهمية الاشعاعات الشمسية والجفاف والبرد .

تميزت انطلاقة الجراحة بمزيد من الجرأة ايضاً وهي في ذلك مدينة بالكثير للمطهرات . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان باستور قد فضل استعمال المواد المطهرة ، وقد اتضح فيما بعد ان تفضيله كان في محله . وتوجب كذلك ادخال ألم المريض في حساب المعالج : وهم بعض الاميركيين من اشار باستعمال روح الحوامض الممزوج بالكحول او اول اوكسيد الآزوت ؛ وقد نشر احدهم ، سمبسون ، في السنة ١٨٤٧ ، بياناً حول اهمية الكلوروفورم (البنج)التخديرية. فأصبح باستطاعة الجراح ، منذئذ ، اجراء عمليته بأمان. وهكذا بات استئصال الزائدة الدودية عملية سهلة في السنوات ١٨٨٠ – ١٨٩٠ ، في حال ان اصابة هذا العضو بالتهاب حاد قد اعتبر حتى ذاك التاريخ احد اعظم الامراض فتكاً بالانسان . وخطت جراحة الاعصاب خطواتها الاولى بفضل نظرية طلع بها « بروكا » في السنة ١٨٦١ حول تعيين وظائف مختلف اقسام الدماغ . واستفاد علم جراحة العين من الاكتشافات التي توفق اليها هلمهولتز ، ولا سيما «غراف» الذي فكر بازالة السادّة بعملية دائرية . وبفضل النجاحات التي احرزتها تقنية علم الامراض النسائية ، سار في طريق الزوال سبب غير نادر من اسباب الوفاة : استخدم الطريق المهبلي حتى السنة ١٨٩١ ، تاريخ اعطاء الافضليه للطريق الجوفي بفضل طاولة عمليات « ترندلنبورغ »

وأجرى « بور » و « سانجر » العملية القيصرية بنجاح ، ولم يستفد فن التوليـد من تقدم استعمال المواد المطهرة فحسب ، بل من التحسينات المدخلة على ملقط الجنين ايضاً .

وهنالك حقل من ادق الحقول لم يعد وقفاً على الاختبار والرأي المقبول قبل التحقيق : اعني به حقل الامراض العقلية . فبعد ان احرز علم فراسة الدماغ نجاحاً فضولياً نراه يدخل في طور اختباري ، بحيث لم يعد المجانين موضوع تدابير امن وسلامة فحسب : فان « فالنتين مانيان » و « اميل كريبلين » ومدرسة « ادنبرا » قد توصلوا ، من اجلهم ، الى الغاء الاقتسار . وقـد رأت النور بعض الطرائق الدوائية ولمع في طب الامراض العقلية اطباء مشهورون . وأخـذ أحدهم ، « لومبروزو » ، على نفسه اثبات قيام العلائق المحتومة بين النظام الوظيفي الطبيعـي والإجرام . ولا ريب في أن نظريته حول المجرمين منذ ولادتهم ، التي شرحها في مؤلفه الهام « الانسان المجرم » (١٨٧٥) ، قد أثارت مجادلات عنيفـة : ولكنه نشر في السنة ١٨٨٨ « الانسان العبقري » الذي جمع فيه بين علم الوظائف وعلم النفس . ورأى بعضهم ان الكائن البشري يأتمر بكليته بالمراكز العصبية التي يرتبط بها الفكر نفسه .

المعرفة التاريخية والاجتماعية

ما عساها تكون قيمة العلم اذا لم يتح هذا الاخير معرفـة كيفية التطور البشري وسببيته ؟ لقد جعل « كونت » من درس الظواهر الاجتماعية قمة بناء الفلسفة الوضعية . وارتكز الجدل الماركسي الى حركة الحقل التاريخي . وبالاضافة الى أن توسع آفاق هذا الاخير قد أثار فضولاً متزايداً والى انه قد امسى سلاحاً سياسياً ، فليس من شك في ان مذهب العقليين المؤمنين بامكانات العلم الشاملة قد حرك الحاجة الى تفسير الاحداث تفسيراً افضل . فحدث من ثم في الوقت نفسه تعمق في البحث وتوسع في الحقل التاريخي . وقد بدت المهمة مزدوجة : يجب اثبات الواقع بواسطة العلم الواسع في التاريخ ، ولكن العقل البشري يرغب في استخلاص العام من الخاص . وقد كتب « فوستيل دي كولانج » ما يلي : « ان يوما واحداً نقضيه في التأليف يجب أن تقابله سنوات نقضيها في التحليل » . واكد فوستيل هـذا نفسه ان التاريخ « ليس فناً بل علماً بحتاً » ، بينما رأى « رينان » ان « التاريخ فن وعـلم سواء بسواء » . وأنجز عمل توضيحي عظيم في حقل الوثائق سهلته نجاحات العلوم المساعدة ، لا سيا علم الكتابات وعلم الآثار ؛ ولكن أسرى الآراء العقائدية والآراء المقبولة قبل التحقيق قـد استسلموا أبداً للميل الى رسم لوحات عريضة . وهكذا فان « تين » الذي ادرك مهمته خيـر ادراك لم يتخل يوماً عن العمل المنسق النظامي ، وليس كتابه « أصول فرنسا المعاصرة » سوى دفاع عن نظريته . كما ان فوستيل دي كولانج ، المشهور بتدقيقه ، قد استخلص من الديانـة المنزلية دون غيرها مؤسسات « المدينة القديمة » . ولم ير لا « سيبل » ولا « سوريل » تشابك المعطيات التي تدخل في تفسير الثورة الفرنسية . بيد أن المؤرخين اتجهوا شيئاً فشيئـاً شطر الموضوع المحدد أو المجموعة التي يجب أن تكون عملاً جماعياً .

لم تستخلص اهمية العوامل الاقتصادية الا ببطء كلي . وكان « ليست » و « شمـــولر » في طليعة من تولوا هذا الاستخلاص ؛ ولكن يجب انتظار آخر القرن حتى تظهر الماركسية في هذا الحقل نظرية مقبولة للبحث. اما التاريخ فقد برهن عن جرأته في معالجة مسألة الاصول الدينية. اجل ان التاريخ قد طبق في نقد التوراة الطرائق نفسها التي استخدمها في كشف حقيقـة نشأة روما او المسألة الهوميروسية . الا ان الباحث الذي تحوم حوله شبهة العداء لحقائق ايمـان حـي يأخذ على عاتقه مهمة غاية في الدقة . فقد سبق لكتاب « حياة يسوع »، الذي نشره شتراوس في السنة ١٨٣٥ ، ان أثار مجادلات حادة . ثم جاءت مؤلفات « فورباخ » و «برونو بوير » التي اعتبرت باعثة للشقاق : هل تصمد الفصول الاولى من سفر التكوين امام اكتشافات مـــا قبل التاريخ الطبيعي ؟ ومهما يكن من الامر ، فان «حياة يسوع » التي لطفها رينان وأبعد عنها كل ما هو اسطوري ، قد أثارت ردة فعل عنيفة وكلفت مؤلفها منبره في كلية فرنسا . فقد وقف رجال الاكليروس موقفاً دفاعياً قوياً وانشغل الكثيرون منهم باثبات التوافق بـين تأكيدات العلم واقوال الكتب . ولكن ذلك لم يحل دون اتساع الهوة بين المؤمنين المتمسكين بالروايـــة التقليدية وبين الوضعيين والعقليين والقائلين بحرية التدين الذين اعتبروا انفسهم احراراً في مناقشة الاناجيل كما هم احرار في مناقشة اية شهادة أخرى .

بينما كان التاريخ متجهاً ، ولو ببعض الصعوبة ، شطر التعريف بمـــاضي الانسان في جميع مظاهره ، كان علم الاجتماع يبحث عن نهج واســلوب . كان رأي ماركس ان التركيب يجب ان يرتكز الى الجدل وقوة الصراع بين الطبقات ؛ أما هربرت سبنسر فقد اعتقد بوضع قواعـــد مذهب تطويري يكون نتيجة تكيف المجتمعات تدريجياً على البيئة . ثم جاء « دورخـــايم » يقاوم المدرسة الآلية التي يمثلها « باريتو » و « والراس » والمدرسة المعنية بعلم طبائع الانسان التي يمثلهـــا « جايمس فرايزر » ــ وهو من سار على خطى « فردريـك ماكس مولر » باهتمامه بتفسير الاساطير ــ ، والمدرسة المعنية بعلم النفس التي يمثلها « تارد » و « فوييه » ، فحـــاول بقوة وضع الشروط التي قد تتيح لعالم الاجتماع القيام بعمل علمي حقاً ؛ وقد نشر كتابه «قواعد الأسلوب الاجتماعي » في السنة ١٨٩٥ ، فكان له بدوره صداه العظيم .

الايمان بامكانات العلم والعلم الاخلاقي النفعي

لاحظ « كورنو » زوال الميل الى الحقيقة الفلسفية البحتـة » . فالواقع الاختباري قد فرض نفسه فرضاً على الانتبـــاه . واذا صدق كلود برنار ، فان العقل البشري قد تفرغ منذ اليوم الى « دراسة الظواهر الطبيعية في واقع الأشياء الموضوعي » . زد على ذلك ان رينان قد اعلن منذ السنة ١٨٤٨ : « العلم دين ؛ العلم وحده قادر على تمكين الانسان من حل المسائل الازلية التـــي تفرض طبيعته حلها بالحاح » . ولكن الاختبارية النفعية تنتهي عند « جون ستيوارت ميل» الى إدبار مماثل أمام علم المعقولات . وان مذهب الطبيعة المؤمن بامكانات العلم الشاملة قد حمل « تين» على رد النشاط الدماغي الى تصادم الذرات العقلية . ورأى اتباع المذهب الظـاهري من امثال

« بان » و « جايمس ميل » ان الوجدان ليس سوى توارد افكار وصور (ولن يرى اتبـــاع الظاهرية الحتمية ، من امثال « مودسلي » و « هكسلي »، في الوجدان ، سوى مجـرد وميض فوسفوري دماغي) . وعاد « بوخنر » و « فوغت » و « مولسكوت » الى صيغ « كاباني » (الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء ، مثلا) ، وقد عاصرت بياناتهم تحقيقـات علـم الوظائف . وافتتح « ووندت » في ليبزغ مختبراً لعلم النفس ، واسس « فشنر » عـــلم النفس الطبيعي ، وربط « ريبو » بين علم النفس وعلم وظائف الجهاز العصبي . فتبخر كل مفهوم سام او لم يعد سوى وهم خادع .

ولكن نشاط الفرد ، مهما بلغ من ارتباطه بعلم الوظائف ، لا يفسر تفسيراً مقبولا الا على الصعيد الاجتماعي . ان هذا الوجدان الاجتماعي المتفاوت الطواعية ، يشكـل الترياق الواقي من الحتمية المطلقة المستحيلة ، عند ماركس كما عند سبنسر ، وعند جون ستيورات ميل كما عند « رينوفييه » . ومن جهة ثانية ليست الحرية في نظر هذا الاخير ، كما في نظر « كانت » ، سوى مبدأ اساسي مسلم به من مبادىء العقل العملي . وأعطى « هكّل » مذهب الواقع الواحـــد الذي قال به معنى فلسفة البهجة الخلاقة ، وأبان « ووندت » يجلاء هيمنة الارادة .

يتضح من ثم ان الايمان بامكانات العلم الشاملة عارم بالنشاط والقوة الفاعلة . ومادياً كان أم مشبعاً بالنفعية ، فانه لا يبتعد عن علم المعقولات السامي الا ليكتفي بالواقع . وسيعلن «وليم جايمس » ان « الفكر حقيقي لانه نافع ، وانه نافع لانه حقيقي » ، كما سيظهر مـذهب العملية ايضاً كعلم اخلاقي موضوعه العمل .

الفصل الثالث

استكشاف الأرض
وانتشار المثل الأوروبية

معرفة الارض وتمثيلها

انطلق الانسان الغربي بفرح وبهجة الى فتح الكرة الارضية . وان ما دفعه دفعاً الى امتطاء المغامرة هو الهوى والشجاعة والكلف بالرسالة والعلم ، لا سيما وان عالم المجهول ما زال واسعاً جداً .

غذّت الرغبةَ الحـــارة في المعرفة مجموعات المؤلفات وروايات السفر وكتب الارشادات والتعليمات . فقد بيع ٥ ملايـــين عدد يومياً من « اخبار لندن المصورة » التي ظهرت في السنة ١٨٤٢ . وقد عرفت « مغامرات روبنسون كروزويه » نجاحاً مطرداً منقطع النظير ؛ ونقلت الى كافة لغات اوروبا ، فأوجدت الكثيرين من امثـــال روبنسون ، السويسري ، والاميركي ، و « روبنسون البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة »، و« امثال روبنسون الحقيقيين»، ولا سيما مغناة « او قنباخ » الهزلية . واشتهر عدد من ارباب القصة الاجنبية : « ماريات »، مؤلف« مغامرات بيتر سمبل » ، والاميركي « ملفيل »، والسكتلندي « ستيفنسون » ، و « لوتي »، الملاح المحترف الذي تذوق جمال الكون اثناء تجواله فيه تذوق الفنان المتوحد . وأوجد « جول فيرن »القصة الجغرافية . فتجول هو ايضاً في العالم ، دون أن يغادر مكتبه، وجمع بين السبق العلمي ومشاهدة المناظر والمجتمعات مشاهدة صحيحة ، وخلقَ اشخاصاً يستهوون الفتيان ، كـ « فيلياس فوغ » الذي يدور حول العالم في ثمانين يوماً ، والقبطان « نيمو » الذي نسير على خطـــاه ٢٠٠٠٠ عقدة تحت البحار ، والقبطان هاتراس الذي انتصر على القطب الشمالي ؛ وهي الماسة الاسطورية ؛« نجم الجنوب » ، ما لفت انتباهه ، في السنة ١٨٦٧ ، الى افريقيا الجنوبية ؛ أما فكرة الدوران حول العالم فقد أوحى بها اليه ، في السنة ١٨٧٢ ، اعـــلان لوكالة كوك . وسوف يتولى دور الراوي الفرح في « كتب الغابة المتلبدة » احد قرائه ، روديارد كبلنغ ، الذي كان ، من جهـــة ثانية ، صديقاً لابن « توماس كوك » .

لم يعد قط من مدرسة خلو من خريطة قارات العالم الخمس وخريطة الوطن الأم . واذا وفر الاطلس تمثيلا اكثر دقة ، فان الأداة العلمية المثلى ، التي جاءت ثمرة عملية مسح وقياس ارتفاع استغرقت وقتاً طويلا ، هي الخريطة الطوبوغرافية : وهكذا فان المسقط المخروطي الشكل الذي صححه « بون » قد استخدم في رسم خريطة بقياس ١/٨٠٠٠٠ حلت في فرنسا محل خريطة « كاسيني » .

اسهم علم طبيعة الارض ، والجيولوجية ، والجغرافية الطبيعية اسهاماً متوازياً ، ان لم يكن تضامنياً ، في معرفة الكرة الارضية . فقد أمكن وزن هذه الاخيرة وقياسها . اجل ، لقد تعاقبت النظريات حول طبيعة القشرة الارضية ، فحلت الواحدة محل الاخرى ؛ ولكن تفسير نواتىء الارض بات اذ ذاك أكثر ارضاء واقناعاً حين نشر « سويس » الفيّنّي في السنوات ١٨٨٣ – ١٨٨٨ ، بروح شاعر وعالم واسع الاطلاع ، كتابه « وجه الارض » . وقد صرح « كورتلين » آنذاك ايضاً : « لا اقرأ من المؤلفات الخيالية سوى النشرة الجوية احياناً » ؛ ولكن علم المناخ الذي اتقنه نمساوي آخر ، هو « هان » ، قد اثبت في العهد نفسه تقريباً ، ان درس التيارات الهوائية الكبرى وانواع الطقس المختلفة قد سجل نتائج قيمة مهدت لها دروس مهندس البحرية الاميركية « موري » ودروس « لو فربيه » .

هي حاجات الملاحة بصورة خاصة ما يجدر بنا ان نعزو اليها النجاحات الجديدة المحققة في علم البحار . فبين السنة ١٨٢٠ والسنة ١٨٥٠ أدت اسفار « ديمون دورفيل » و « ويلكس » الى رد القارة الجنوبية أبعد الى الجنوب . وبالاستناد الى المعلومات التي دونها « موري » في خريطة جميلة للتيارات البحرية ، أو في « توجيهاته الملاحية » القيمة ، ابتكر « بروك » مرجاسا سهل تحديد الاعماق البحرية ، واتاح البخار كذلك سهولة استخدام الملفاف لانزال اجهزة المراقبة واخراجها . ولعل اهم حدث هو الرحلة التي قامت بها بين السنة ١٨٧٢ والسنة ١٨٧٦ ، السفينة « شالنجر » التي عادة بمعلومات وفيرة جداً اوردتها لجنة برئاسة « ويفيل طومسون » في ٥٠ مجلداً . وفي السنة ١٨٨٥ سيّر « البير الاول » امير موناكو بعثته العلمية الاولى . وفي السنة ١٨٩٩ ، تألف في كوبنهاغن مجلس دولي دائم لاستكشاف البحر .

الاستكشافات البرية

حوالي السنة ١٨٦٠ اشير في الخرائط الى الاراضي المجهولة في القسم الاكبر من افريقيا وفي آسيا الوسطى والجزيرة العربية و « امازونيا » . وما زال تكون الجبال وحياض الانهار يخفي مفاجآت كثيرة ، والاستكشافات البرية تسفر ابدا عن وقوع ضحايا كثيرة . فركوب مخاطر الصحارى الشاسعة الاطراف ومناطق النوامي الحرجية يقتضي صوفية حقيقية وجلداً غير اعتيادي . وهو الجمل الافغاني القادر على البقاء ١٣ يوما بدون تجرع الماء ، ما استطاع وحده اجتياز الصحراء الاوسترالية ؛ ولم يفلح « لابرين » في اجتياز الصحراء الافريقية الكبرى الا بمعونة جنود من قبيلة « شامبا » يمتطون الجمال ؛ كما ان « برازا » ، على الرغم من رغبته في الظهور بمظهر المسالم ، قد اصطحب ٣٠ بحاراً ورتيباً ، و ٣٠٠ بحار

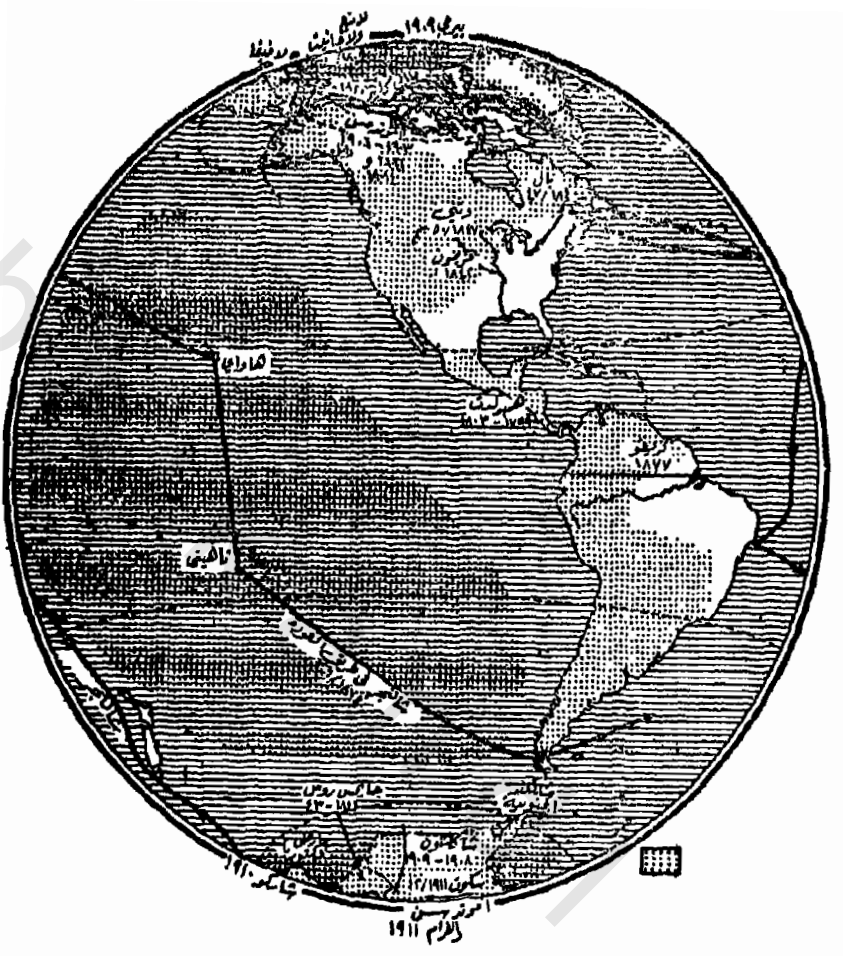

شكل ٦ ـ اكتشاف الارض في القرن التاسع عشر

سنغالي ، ١٢٠٠ جذاف اوكندي او ادومي وقرابة الف حمال باتكي وبابوندي وخمسة زوارق بخارية ، وجهز مستودعاً في « ليبرفيل » وانشأ ٢١ محطة ومركزاً عسكريا بين الشاطىء والكونغو . زد على ذلك ان امر المهمة الحامل توقيع احد الملوك لم يكن شيئا يستهان به : فقد استحصل « ناشتيغال » على مثل هذا الامر من ملك بروسيا لتقديمه الى الشيخ عمر في « بورنو » ، وقصد «جوزف هاليفي » مأرب،مدينة ملكة سبا القديمة ، مرتديا زياً اسرائيلياً، ومزودا بكتاب توصية من حاخام صنعاء ؛وتنكر « بالغراف » ـعلى غرار « كايه » في الصحراء الافريقية ـ بزي اسلامي ليتمكن من دخول صنعاء عاصمة الوهابيين . ولم يهمل كذلك امر المال والبضائع . فكشفت القارات اسرارها .

كانت هنالك مسألتان في افريقيا : مسألة الانهار الكبرى التي تصلح دون غيرها لربط ساحل بآخر عبر السباسب والاحراج ، ومسألة الصحراء الافريقية الكبرى التي تمتد بين المتوسط والمناطق السودانية . يضاف الى ذلك مسألة النخاسة ، لان النخّاس يحرص على ان يضل المسافرون المسالك ، ويحرّك الزعماء البلديين ، ويقاوم بالحيلة ، وحتى بالعنف ، كل دخول يرتدي طابع العداء للرق . ففي منتصف القرن نجح « بارت » و « ديفريه » و «رولف» و « ناشتيغال » ، ببذل جهود خارقة، في اجتياز الصحراء وبلوغ الساحل النيجيري و « تشاد ». واسدل في الوقت نفسه الستار الذي كان يخفي الشبكة المائية في المنطقة الاستوائية : اهتدى ليفنغستون الى ينابيع الزامبيز وينابيع الكونغو ؛ اما ستانلي الذي انطلق للبحث عنه فقد

قام بجولة كبرى في المنطقة الكونغولية . وفي السنة ١٨٨٠ بدأت عملية تقاسم الاراضي .

لم يكن قلب آسيا اسهل منالا . بينما كان الروسيـان « تشرسكي و « برجفلسكي » يدخلان الاراضي المرتفعة في الشرق الاقصى السيبيري ، كان «ريشتوفن »يتجول في اصقاع الصين ويصفها . ولكن العائق المخيف كان « سطح العالم » الواسع الذي توفق فيه برجفلسكي الى اكتشافات هامة ، اعني بها ينابيع الـ « يانغ تسي » و « تاريم » و « لوبنور » ؛ ولم يستطع لا « مانتنغ » ولا الاخوان العازريان « هوك » و « غابيه » مشاهدة «لاسا» الا باخفاء شخصيتهم ؛ ولم يحقق غيرهم هذه الامنية . فقد الف الارتفاع حاجزاً : واذا استطاع هواة تسلق الجبال اقتحام اعلى القمم شموخا في اوروبا ، فان قمم آسيا قد تحدت جرأة الانسان الابيض .

فتح القطبين

القطب يجتذب كالمغنطيس ؛ ومثال القبطان « هاتراس » ليس من نسج الخيـال . سارت السفن الشراعية أولاً على خطى كوك في البحار الجنوبية ؛ فجر صيد الحوت اعظم الملاحين جرأة الى أبعد من القواعد المأهولة . وبرزت الرغبة كذلك ، في عهد مبكر ، في اكتشاف مجاز بين الاطلسي والهادي شمالي اميركا وآخر الى الشمال من العـالم القديم . ولكن الصعوبة قامت في وجوب تمضية فصل الشتاء في مناطق يمتد فيها الليل بين أربعة وستة أشهر ، ومقاومة الجبال الجليدية التي قد تتداخل وتسحق السفينة : فهكذا انتهى في ظروف فظيعـة الاميركي « لونغ » ومن معه على السفينة « جانيت » خلال رحلة الى المجاز الشمالي الشرقي ؛ وفي هذا التاريخ نفسه تقريباً عرفت بعثة « غريلي » النهاية نفسها في « غرينلند » حيث عثر على جثث مرعبة ابلترت اعضاؤها العلوية والسفلية ، بسبب دفع الجوع ببعضهم الى أكل لحـوم البشر . فمست الحاجة من ثم الى التجهز بأدوات خاصة والتزود بغذاء ملائم . وليست البعثة الى القطب مما يلائم الشماليين فحسب ، فهي توجب ارتداء البسة شعوب المناطق المتجمدة والتدهن بالشحوم . وفي أواخر القرن ، كان « نانسن » و « بيري » و « اموندسن » قد تلقوا درساً من الاختبـار ، فلم يتركوا شيئاً للمصادفة : بنى « نانسن » السفينة « فرام » القادرة على مقاومة ضغط الجليد ؛ وتزود بمؤن تكفي لمدة خمس سنوات وفكر حتى ببعض اسباب اللهو ؛ وتعلم بيري تقنيـة الاسكيمو الذين ادخلهم في خدمته وامتحن رجاله ومعداته على جليد الارض الغرينلندية .

بعد أن تلاشى الاعتقاد بوجود قارة جنوبية ، بقي التقدم ، ما أمكن التقدم ، فوق الامواج المتلاطمة باتجاه القطب الجنوبي . وفي سبيل تحديد موقع القطب المغنطيسي الجنوبي ، وضـع ويلكس وروس رسماً تقريبياً لحدود القـارة المتجمدة الجنوبية الحقيقية وتعرفوا الى براكينها وخلجانها الواسعة . ثم توقفت النجاحات : اذ اقصروا العمل على صيد الحوت والاستيلاء على الجزر والارخبيلات الصغرى المتناثرة في مياه المحيط المتجمد الجنوبي .

يرد هذا التوقف الى أن مسألة مجازي الشمالي الغربي والشمال الشرقي كانت اشد استهواء . فقد عند البريطانيون في بذل الجهود لاكتشاف الاول ، وانتهى « ماك كلور » ، الذي انطلق للبحث عن بعثة « فرانكلن » المفقودة ، الى الدوران حول القارة الاميركية من الشرق الى الغرب . ثم

لجمع « نانسن » ، و « اموندسن » من بعده ، في اجتياز « غرينلند » . أما مجاز الشمال الشرقي ، فقد توصل « نوردنسكجولد » الى عبوره بالسفينة « فيغا » بعد أن امضى الشتاء في الجليد على بعض المسافة من مضيق « بيرنغ » . عند ذلك دفع وهم « بحر القطب الطليق » بالسفينة « تجتهوف » ، ثم بالسفينة « جانيت » ، نحو الشمال ؛ ولكن حوض البحر المتجمد الشمالي لم يستكشف إلا في أعقاب حيدان مركب « نانسن » ، « فرام »، عن طريقه طيلة ثلاث سنوات، فاستفاد المهندس الاميركي « بيري » من ذلك وسار تكراراً على رأس بعثات قرّبته شيئاً فشيئاً الى القطب الشمالي الذي توفق الى بلوغه في السنة ١٩٠٩ بواسطة مزالج تجرها الكلاب .

كان القطب الجنوبي أكثر بعداً وأشد وعورة ، ولكن المستكشفين ما لبثوا أن بلغوه هو ايضاً . لقد تعددت المحاولات بين السنة ١٨٩٧ والسنة ١٩٠٥ ؛ فان شاكلتون قد اقترب من الهدف وبلغ نقطة ترتفع اكثر من ٣٠٠٠ متر وتبعد عنه أقل من ٢٠٠ كيلومتر ، ولكنه افتقر في النهاية الى المؤن ؛ وأخيراً ظفر اموندسن النروجي ببلوغه في السنة ١٩١١ ، بينما لاقى سكوت حتفه في عاصفة ثلجية .

معرفة الكون

ولكن ما هي بالضبط الشعوب المختلفة التي يتألف منها الجنس البشري ؟ لقد وقع مدلول العرق موقع الرضى من الرومنطيقيين الذين تكلموا عن العرق الفرنجي والعرق الكلتي والعرق الجرماني ؛ فالعرق يفسر كل شيء ، وحتى السلوك الفكري ؛ وسوف يبث « غوبينو » فكرة وجود عرق آري، هو أنبل الأعراق البيضاء ومُعَد للمهام الخصابة. وقد قام نقاش حاد بين القائلين بوحدة النوع والقائلين بتعدد الانواع . لا بل لم يعرف ما اذا كان يجدر الكلام عن علم طبائع الانسان أم عن علم خصوصيات الشعوب . وكان مقدراً للصوفية العنصرية، بفعل تشوش الآراء ، أن تغذي ، في أواخر القرن ، الاهواء القومية والتوسعية الاستعمارية .

الا أن هذه النظرية الساذجة قد صادفت مقاومة شديدة تولاها اولئك الذين ارتأوا، كـ « ميشليه » مثلاً ، ان البيئة والحياة المشتركة أعظم أهمية من الدم أو شكل الرأس في تكييف الشعوب والأمم . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، أن « كارل ريتر » ، الذي يبدو المهد الحقيقي لجغرافية بشرية تفسيرية ، قد حاول ، منذ السنة ١٨١٧ ، وصف البلدان وسكانها وصفاً يستهدف اثبات تبادل الارتباط . وفي هذا الاتجاه سار من بعده « برغهوس » و « بيترمن » و « ركلو » . وبينما يقترح « راتزل » ، المتشبع بالنظريات الحتمية ، درس العلائق القوية بين الدول وسياستها وبين المعطيات الطبيعية ، تشبث « فيدال دي لا بلاش » و« ماكندر » بالتوسع في مدلول طريقة الحياة الناجم عن تعاون صادق بين النوع والطبيعة قادر على تفسير التعددالفائق في طرائق التكيف، ومن ثم تفسير النماذج البشرية . ونزولاً عند طلب « لافيس » ، وعلى طريقة ميشليه ، سوف يقدم « فيدال دي لا بلاش» ، لكتاب مفصل في «تاريخ فرنسا »من وضع مجموعة من المؤرخين ، بـ « لوحة جغرافية » متنوعة الألوان .

دور اللغة في انتشار الثقافة الاوروبية

نظر الغربي الى الاداة والنسيج والطريق والخط الحديدي ، وحتى الى المسكن، كما الى وسائل عمل في الاجزاء الأخرى من العالم ، ولكنه لمس الحاجة الى افهام غيره فوائد وجوده . واذا وجد موافقاً أن يتعلم بالضرورة لغات تختلف كل الاختلاف عن لغته ، فقد بدت له أفضلية انتشار لغـــات تنقل بسهولة تأثيره وحالته النفسية . وقد رأى سابقة تثير الانتباه في قوة انتشار اللغتين الاسبانية والبرتغـالية في العالم الجديد .

من دواعي الأسف أننا لا نستطيع أن نتعقب ذاك الهجوم اللغوي الذي قام به المهاجـــر والمستعمر والتاجر ومعلم المدرسة والمرسل ، بواسطـة الصحيفة والبيان والكتاب – وكتاب التوراة بصورة خاصة . وهكذا فان اللغة الفرنسية ، التي احتفظت بمركزهـا في جزيرتي هايتي وموريس ، قد احرزت تقدماً مطرداً في كندا وأفريقيا الشمالية (حيث اقتبست بعض المفردات عن العربية) والشرق الأدنى وحتى الشرق الأقصى . ولكن كم كان اشعاع اللغة الأنكليزية أعظم قوة : فان الأماكن الكثيرة التي تحمل أسم فكتوريا وادوارد وجورج في العالم لدليل على عظمة البريطانيين العالمية ؛ وإنما تفاهمت الشعوب بواسطة اللغة الانكليزية في الهند ؛ واللغة الانكليزية ملكت سيدة في كافة الطرق البحرية . إلا أن الاتصالات بين الشعوب قد خلقت لغات مشتركة غريبة : ففي « لويزيانا » عرفت البقاء لغة عامية فرنسية – زنجية ، « غـــامبو » ، وفي آسيا الشرقية يتكلم الحمال والعامل والتاجر لغة عامية تعرف بالـ « بدجن الانكليزي ». ومن الصعوبة بمكان احياناً كتابة لغة بالاحرف اللاتينية أو الانتقال من كتابة الى أخرى (ان مثل الـ « كوك نغو » في فيتنام مثل استثنائي على وجه العموم) . يضاف الى ذلـــك من جهة ثانية ان الدولة المستعمرة آثرت في المستعمرات تنشئة البلديين عن طريق لغتها الخاصة : فالطريقة البريطانيـــة المعتمدة في الجامعات الهندية تعكس الاساليب السائدة في اوكسفورد وكمبردج ، ولم يهتم الهولنديون إلا في عهـد متأخر بـ « مدرسة شعبية » تعلّم فيها اللغة الماليزية واللغة الجاوانية .

انتشار المسيحية

اعتبر الاوروبي والاميركي اللذان حركتهما الحرارة الدينية ان الحملة الصليبية لم تتوقف قط. لذلك فان المذاهب التي تنتسب للمسيح قد نمت نمـواً مطرداً ؛ زد على ذلك ان العالم الجديد الذي بُشر فيه بالانجيل واستُعمر في آن واحد قـــد زاد من الحيوية المسيحية . اما دعوة الرسالة ، التي عرفت فترة من التوقف ، فقد نمت مجدداً يساندها الاستعمار الذي ساندته هي بدورها .

برزت قوة الارثوذكسية ، التي ساندتها اجهزة الدولة الروسية ، في مـــا بين الشرق الادنى وآسيا الشرقية . بيد ان علينا في الدرجة الأولى تقدير الأهمية التي ارتدتها تقوية الكاثوليكية في مركزها . فان ما فقدته الكنيسة الرسولية الرومانية في ايطاليا ، في المجال الزمني ، أمـــام تيار الحركة القومية، قد حاولت بنجاح الاستعاضة عنه في المجال الروحي بتحديدمركزها بدقة ليس من الالحاد فحسب، بل من المبادىء العصرية أيضاً. الم يؤكد المجمع الفاتيكاني في السنة ١٨٧٠

ان خليفة القدس بطرس «يمتلك... العصمة التي اراد المخلص الالهي ان يقلدها كنيسته في تحديد العقيدة حيال الايمان والاخلاق» ؟ وبفضل الوحدة وتسلسل السلطان حقق العمل الكاثوليكي ، آنذاك نتائج قيمة خارج اوروبا. فقد سبق لبيوس السابع ان احيا جمعية اليسوعيين واعاد إنشاء جمعية الرسالات في الخـــارج . واستفاد خلفاؤه من الظروف (ضعف الامبراطورية التركية ، واحتلال الجزائر ، والتدخل في الصين) لاحداث نيابات واسقفيات رسولية جديدة . وقـــد جمعت جمعية نشر الايمان وحدها ٢٦٨ مليوناً ، تبرع الفرنسيون بـ ١٧٤ منها ، بين السنة ١٨٢٢ والسنة ١٨٩١ . فاستطاع بيوس التاسع ولاون الثالث عشر تقسيم اوقيانيا ، وافريقيا ، وآسيا من ارمينا الى اليابان ، الى دوائر كنسية . وقد برزت أسماء شخصيات شهيرة : الأب « هوك » وصاحبا السيادة « اوغدار » ، « رسول الكونغو » ، « ولافيجري » ، مؤسس الآباء البيض ، والاب « دي فوكو » الذي كان ناسكاً اكثر منه مبشراً على كل حـــال . وبينما لم يكن هناك أكثر من ٣٠٠ مرسل خارج أوروبا في السنة ١٨١٥ ، نرى عـــددهم يرتفع الى ٦١٠٠ في السنة ١٩٠٠ ، بصرف النظر عن جوقات المربين . فسارت الهند في الطليعة لجهة عـــدد الاهتداءات ، تليها الهند الصينية والصين ، والف الشرق الادنى منطقة ثالثة من حيث الاهمية ، متقدما على افريقيا . اما اذا اخذنا عدد السكان بعين الاعتبار ، فاننا نرى ان النجاح المحرز في بعض الجزر كان اكبر منه في البلدان المذكورة . ولعل المهتدين بلغوا بين ٤ و ٥ ملايين تقريباً .

اعتمدت البروتستانتية على مستعمرات التوطين الكبرى التي اسسها الهولنديون – في الكاب – ولا سيما البريطانيون ؛ ثم اشعت الولايات المتحدة بدورها بكل غيرة . فاسفرت « يقظة » القرن الثامن عشر عن ولادة مؤسسات كبرى للنشر المسيحية المصلحة : الجمعية المعمدانية التبشيرية ، وجمعية لندن التبشيرية ، اللتين تأسست على غرارهما منظمات عديدة لا تقل عنها غيرة تبشيرية متقدة . ففي السنة ١٩٠٠ كانت ٢٤٩ جمعية بروتستانتية تتولى أمر الانفاق على ١٦٠٠٠ مبشر ؛ كما ان جمعية الكتاب المقدس باعت أو وزعت ٤ ملايين انجيل طبعت بـ ٣٥٠ لغة ؛ وتراوح عدد المهتدين بين اربعة ملايين وأقل من ثلاثة (بحسب المؤلفين) ، وتوزع بين الهند ، وافريقيا الجنوبية واندونيسيا ، وجزر المناطق الحارة ، والصين . وكانت المكاسب هنا ايضاً اكبر منها في المستعمرات الصغيرة الخاضعة لوصاية ادارية شديدة .

ليس من ينكر فائدة التدخل السياسي للدفاع عن الايمان . أجل قد يحدث أحياناً ان تتأذى الارساليات من التدابير التي تتخذها بعض الحكومات بحق بعض الجمعيات . ولكن عداء الجمهورية الفرنسية الثالثة للاكليروس لم يعتبر يوماً مادة من مواد التصدير . لا بل غالباً ما اتخـــذت من الدفاع عن المصالح الدينية حجة لتبرير توسعيتها الاستعمارية . ولذلك غالباً ما نرى قضية الانجيل تختلط في نظر البلديين بقضية الاجنبي الذي يريد السيطرة عليهم .

يضاف الى ذلك ان الشكل التجاري الذي ارتداه التبشير الديني قد اغاظ هؤلاء البلديين . فقد اشتهر العديد من المهتدين الصينيين باسم « المسيحيين من اجل الارز » . ولم ينس اليابانيون

يوما « الاغراء بالحرير والبندقية »الذي استخدمه اليسوعيون لاستمالتهم . وهو الطبيب المبشر ، القس « شارل غتلوف » ، من ركب السفينة كترجمان في خدمة شركة « جاردين وماتسون » لبيع الافيون من الصينيين في السنة ١٨٣٢ ، بعد ان قبض منها مساعدة مالية . ودخل الاب « فيناز » اليسوعي « تافاريف » في السنة ١٨٥٥ متنكراً برفقة عميل مصنع فرنسي للاسلحة. ولا شك ، في رأي « ستانلي » ، ان الافريقيين جميعهم ، اذا ما اخذنا همجيتهم بعين الاعتبار ، يفضلون التاجر على المرسل المبشر ؛ بيد ان هذا الاخير سيلعب في افريقيا الشرقية دوراً اعظم من دور الاول ؛ اذ ان الكتاب المقدس يجب ان يسبق بالة البضائع ؛ في حال ان العكس هـــو ما حدث في افريقيا الغربية .

تناسقت المنافسات بين الارساليات من جهة ثانية مع الخلافات بين الدول. فقد استمر النزاع حول الاماكن المقدسة تتخلله حوادث مفجعة في أغلب الاحيان ؛ وقام هذا النزاع في الهند بين الكاثوليك والبروتستانت ، وبين الاكليروس البرتغالي في « غـــوا » والارساليات الكاثوليكية الفرنسية ، وفي الصين بين العازريين في « مكاوو » واليسوعيين ، وبـــين هؤلاء والآباء الانكلوساكسونيين، وفي « هاواي » بين الاميركيين والبريطانيين؛ وفي مدغشقر لم تخف المنافسة بين الكاثوليك والبروتستانت الخصومة الفرنسية الانكليزية .

فمن الوهم الخادع من ثم الاستنتاج بان المسيحية قد حققت مكاسب حاسمة . وبصرف النظر عن مقاومة متباينة العنف قابلتها بها السلطات التقليدية في الشرق الاقصى ، يجب الاعتراف بان الاسلام قد صمد في كل مكان ، لا بل حقق نجاحات ذات قيمة في افريقيا وربما في آسيا دونها نجاحات المسيحية .

انتشار الروح الانسانية ؛ مواصلة مكافحة النخاسة

كتب لارون الثالث عشر الى صاحب السيادة « لافيجري » ما يـــلي : «اني اكبر علو الهمة الذي تبرهنون عنه حينما اقتضى ذلك خـــلاص البشر ». ولكن هذا العمل الروحي لا ينفصل عن المحبة التي تستهدف التخفيف من الآلام الارضية وتتصل بدورها بصراع العلمانيين من اجل الانسانية .

كانت مكافحة المرض مع التعليم مهمة الارساليات الرئيسية ، دينية كانت هذه الارساليات ام غير دينية. فان « بنات المحبة » اللواتي اسس جمعيتهن القديس « منصور دي بول » قد انشأت في الجزائر والشرق الادنى ومدغشقر والصين ملاجىء للاطفال ودور ايتام ومستوصفات وادرن مستشفيات دخلت في عدادها مستشفيات البرص احيانـــاً . وكان الكثيرون في الهند ، من بين المبشرين البروتستانت ، أطباء وممرضين؛ ولما كانوا متزوجين ، فقد سعوا الى ازالة عـادة تعدد الزوجات ورفع مستوى المرأة. وكان تحسين الصحة وحفظها، في نظر الاوروبيين والاميركيين ، احد حقوقهم الاولى في اقرار السكان البلديين بفضلهم .

اعتبروا ان للاستعمار ما يبرره اذا ما نجح في استئصال احدى افظع آفات عالم المناطق الحارة طغيانا ، اعني بها النخاسة . فكان عليم ، والحق يقال ، اقفال هذه السوق الكبرى ، بسبب

فمهدهم اياها في مغارسهم في العالم الجديد. ولكن ما هو السبيل الى استنزاف النبع الذي يغذيها ان لم يكن بمراقبة القارة الافريقية بكليتها ؟

كان المستكشفون والمبشرون يُعلمون بالآفة ، ويفتدون بعض المساكين ويعتقونهم . ولكن عملية استئصالها كانت تستلزم بوليساً دولياً وحملات عسكرية منظمة . الا ان « الجمعية الدولية الافريقية » التي اخذت على عاتقها فتح ابواب افريقيا امام الحضارة عقدت في « بروكسل » في السنة ١٨٧٦ جلسات ظهر فيها « ليوبولد » ملك بلجيكا بمظهر « المحسن الى الزنوج » ، ولكنها ما لبثت ان تحولت عن هدفها الى استعمار رابح يخدم مصالح الملك . ولن يحدث شيء حاسم قبل سنة ١٨٨٠ .

في هذه الاثناء مارست انكلترا الضغط على سلطاني زنجبار ومسقط للحيلولة دون النخاسة بين شاطئي المحيط الهندي ؛ واستحصلت من جمهورية افريقيا الجنوبية على وعد بتلطيف حالة الزنوج ؛ وعاتبت خديوي مصر واستحثته للتدخل في « دارفور » . ولكن النخاسين ، بعد ان اقصوا عن المحيط الهندي ، صمموا اكثر فأكثر بالمقابلة على الاحتفاظ بالطرق التي يسلكونها بين السودان والبحر الاحمر . وفي الوقت الذي اعترفت فيه الدول المجتمعة في برلين ، في السنة ١٨٨٤ – ٨٥ ، بدولة ، الكونغو المستقلة ، موجبة عليها مكافحة النخاسة ، سقطت الخرطوم في ايدي الثورة المهدية ، وربما بدأ موت « غوردون » باشا ، الذي كان يعتبر فارساً من فرسان المسيح ، في قرن لا يعير الفروسية اهتماماً يذكر ، تحدياً لاوروبا المسيحية المناهضة للنخاسة . فعقد في بروكسل في السنة ١٨٨٩ مؤتمر جديد واجه اتحاد تدابير قانونية ، ولكن النخاسين لم يزولوا من السودان الا بعد سحق الدراويش على يد كتشنر في السنة ١٨٩٨ ، وسحق ملك « اويداي » ، « رباح » ، على يد الجيوش الفرنسية في السنة ١٩٠٠ .

لا ريب في واقع العاطفة الانسانية التي املت هذه المكافحة . ولن يستوقفنا هنا سوى النجاح المنقطع النظير الذي احرزه كتاب « كوخ العم توما » من تأليف السيدة « بيشر ستو » الذي نقل الى معظم اللغات الغربية وطبع اكثر من ٥٠٠ طبعة وصيغ حتى بابجدية العميان . ولا نستطيع كذلك ان ننعت بالمراءاة كلمة التهدئة التي ترد باستمرار في كتابات المستعمرين حين يعلن هؤلاء عزمهم على وضع حد للحروب الداخلية ، والجرائم الطائفية الطابع ، والاتاوات المرتفعة التي تفرضها الاقطاعيات البلدية . فقد استهدفت اتفاقية بروكسل في السنة ١٨٨٥ واتفاقية برلين في السنة ١٨٩٠ ايجاد حق دولي حقيقي ، بتنظيم الفتح وتوصية الفاتح بتحسين مصير السكان والغاء النخاسة وتجارة الاسلحة وبيع الكحول . وفي السنة ١٨٨٨ اصدر لاون الثالث عشر رقيما اثنى فيه على مبادهات الكردينال لافيجري .

كان من شأن هذا العطف الكريم ، في اعتقادنا ، تبرير الوصاية التي توجبت ممارستها على حضارة متفوقة . فهو قد وفر عليها الاستناد الى حق الاقوى ، لا سيما وانه اتفق كل الاتفاق والرغبة ، الصادقة ايضا ، في استثمار الكرة الارضية استثماراً أبعد بصيرة .

obeikandl.com

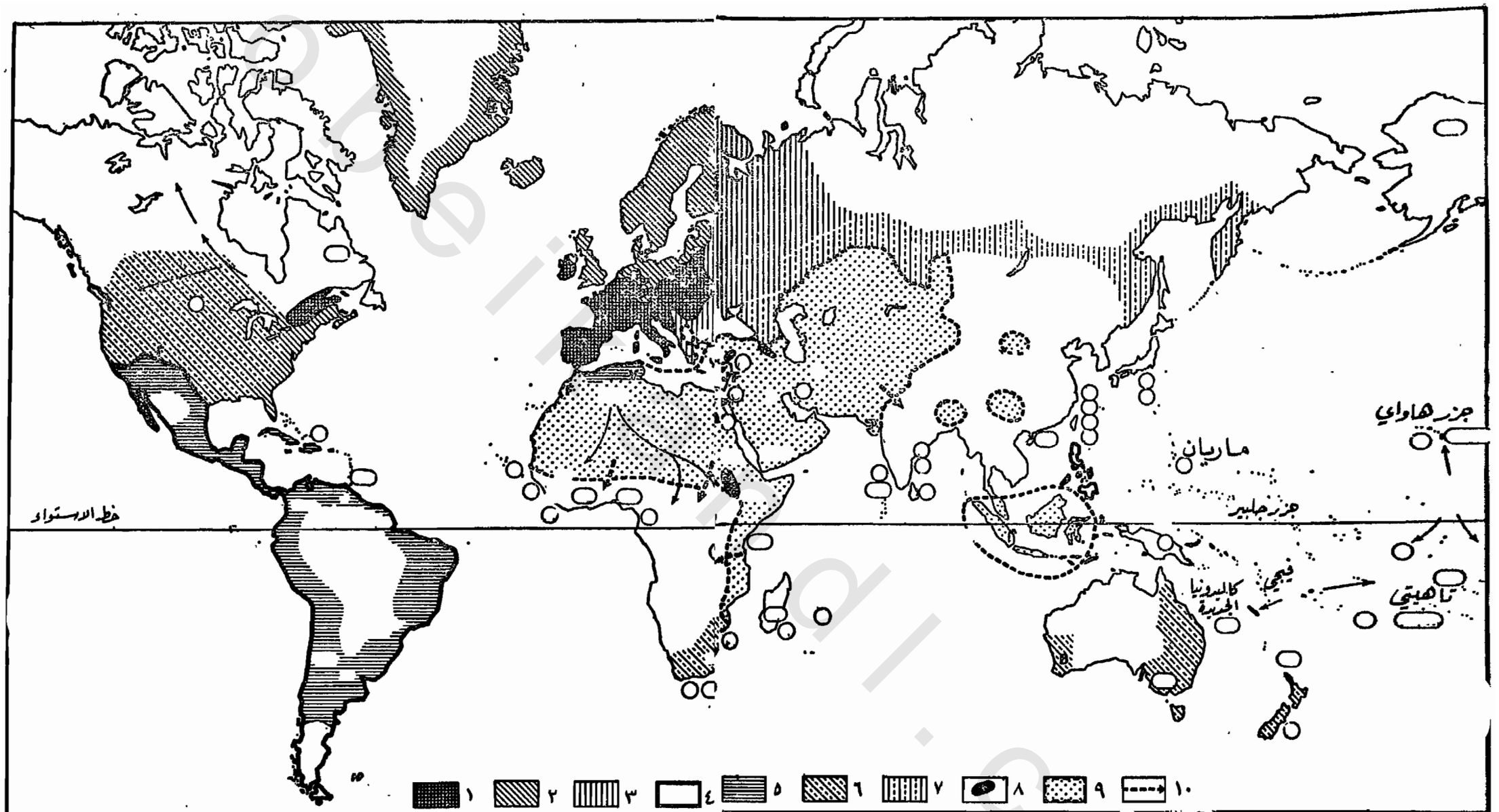

شكل ٢ - الانتشار المسيحي

١ - بلدان كاثوليكية أو ذات أكثرية كاثوليكية في اوائل القرن ؛ ٢ - بلدان بروتستانتية او ذات اكثرية بروتستانتية في اوائل القرن ؛ ٣ - بلدان ارثوذكسية في اوائل القرن ؛ ٤ - بلدان اميركية او آسيوية كانت الكاثوليكية الدين الرسمي فيها في اوائل القرن ؛ ٥ - مناطق انتشرت فيها المسيحية (اكثرية كاثوليكية) ؛ ٦ - مناطق انتشرت فيها المسيحية (اكثرية بروتستانتية) ؛ ٧ - مناطق انتشرت فيها المسيحية (اكثرية ارثوذكسية) ؛ ٨ - مسيحيون اقباط وأرمن ؛ ٩ - مناطق يسيطر فيها الاسلام ؛ ١٠ - مكاسب الاسلام .

الفصل الرابع

ارتفاع عدد السكان
ونزوحات الأوروبيين الكبرى

نمو عدد السكان في اوروبا والعالم

كان ارتفاع عدد سكان الارض في النصف الاول من القرن الثاني عشر اسرع منه في القرن الثامن عشر ؛ وقد برزت هذه الظاهرة بروزاً أوضح بعد السنة ١٨٥٠ . فاذا سلمنا بأن عدد سكان الارض كان ٥٠٠ مليون في السنة ١٦٥٠ و ٧٠٠ مليون في السنة ١٧٥٠ ، فاننا نرى العـــدد يرتفع الى ضعفه بين السنة ١٦٥٠ ومستهل القرن التاسع عشر، بينما هو يتضاعف مرة ثانية بين السنة ١٧٥٠ والسنة ١٨٨٠ . كما نرى ان معدل الارتفاع في النصف الاول من القرن التاسع عشر أعلى منه في النصف الاول من كل من القرنين السابقين ، الا في آسيا . وعلى الرغم من ان سكان آسيا قد تجاوزوا ابداً نصف سكان الارض ، فان هيمنة هذه القارة قد ضعفت . وكذلك فان اميركا لم تحتل بعد سوى مركـــز وضيع على الرغم من تقدمها الملحوظ . أما الكتلة الاوروبية الآسيوية فقد جمعت بمفردها ثلاثـة ارباع السكان . ولكن ما يستوقف انتباهنا بصورة خاصة هو سكان اوروبا : كان اكثر من خمس سكان الارض في السنة ١٨٠٠ ، فارتفع الى اكثر من الربع بقليل في السنة ١٩٠٠ . فاذا اعتبرنا ان هذا العدد قد بلغ ضعفه على الاقل خلال القرن التاسع عشر ، وان مساحة اوروبا تأتي في المرتبة الرابعة بين القارات الخمس — وفي المرتبة الاخيرة ، اذا لم تدخل فيها روسيا — فاننـا ندرك الطاقة الديموغرافية التي تنطوي عليها .

يجب الا ننسى ، بالاضافة الى ذلك ، ان اوراسيا انما نمت بذاتها . فان افريقيا قد استقبلت اكثر مما اعطت ، والامريكتين لم تقدما اي عنصر للهجرة؛ كما لم تقدم اوقيانيا اي عنصر ايضاً . والحال ، نحن نرجح ان الذين هاجروا آسيا اقل عدداً من أولئك الذين هاجروا اوروبا . ففي السنة ١٩٠٠ ، يجب ان نضيف الى الـ ٤٠٠ مليون اوروبي كل البيض الذين جـاؤوا الى القارات الاخرى من أوروبا او انحدروا من اورومة اوروبية : لذلك فان ابناء اوروبا قـد مثلوا آنذاك

ثلث الجنس البشري[1] .

(١)

عدد السكان بالملايين

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	١٨٧	٢٦٦	٤٠١
آسيا	٥٧٥	٧٦٠	٩٠٠
افريقيا	١٠٠	١٠٠	١٢٠
اميركا الجنوبية	٦	٢٥	٨١
اميركا الوسطى واميركا الجنوبية	١٩	٣٣	٦٣
اوقيانيا	٢	٢	٦
	٨٨٩	١١٨٦	١٥٧١

نقلا عن تقديرات ويلكوكس وساندرباغ

نسبة توزيع السكان

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	٢٠٫٩	٢٢٫٣	٢٥٫٥
آسيا	٦٤٫٦	٦٤٫١	٥٧٫٢
افريقيا	١١٫١	٨٫٣	٧٫٦
اميركا الشمالية	٠٫٥	٢٫٦	٥٫٢
اميركا الوسطى واميركا الجنوبية	٢٫٦	٢٫٥	٤
اوقيانيا	٠٫٣	٠٫٢	٠٫٥

كثافة السكان

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	١٨٫٧	٢٦٫٦	٤٠٫١
آسيا	١٣٫٧	١٧	٢١٫٣
افريقيا	٣	٣٫١	٤
اميركا الشمالية	٠٫٢	١٫١	٣٫٤
اميركا الجنوبية واميركا الوسطى	١	١٫٢	٣٫٤
معدل الكثافة	٦٫٧	٨٫٧	١٢

(نقلا عن ساندبارغ)

نسبة الزيادة

	١٧٥٠-١٨٠٠	١٨٠٠-١٨٥٠	١٨٥٠-١٩٠٠
اوروبا	٣٤ ٪	٤٣ ٪	٥٠ ٪
آسيا	٢٨٫٥ »	٣٣ »	١٨ »
افريقيا		٠ »	٢٠ »
اميركا الشمالية	١٤٥ »	٣٠٠ »	٢٢٢ »
اميركا الجنوبية واميركا الوسطى	٥١ »	٧٣ »	٩٢ »
اوقيانيا		٠ »	٣٠٠ »

(بكل تحفظ للفترة ١٧٥٠ - ١٨٠٠)

الزيادة السنوية ٠٫٧. بالمئة بين ١٨٠٠ و ١٨٥٠ ؛ ٠٫٨٢٣. بالمئة بين ١٨٥٠ و ١٩٠٠

النزوحات الاوروبية الكبرى

كان لنزوحات السكان التي حدثت ابتداء من السنة ١٨٥٠ اثرها البعيد في المعاصرين. ولا ريب في ان ارتفاع عدد السكان في اوروبا قد كان لها محركاً ودافعاً ، واستحث تطورها التقني والاقتصادي ، واوجد فيها تيارات هجرة أتاحت بعض التوافق بين العرض والطلب في سوق العمل ، وسهلت على العموم نشأة المدن الكبرى ، ولا سيما مراكز الصناعة الكبرى والتجارة الناشطة. ولكن المقايضات الداخلية لم تكن كافية ، فنزح عدد كبير من الاوروبيين عن اوطانهم ، نزوحاً مؤقتاً او نهائياً ، رغبة منهم في تحسين مصيرهم .

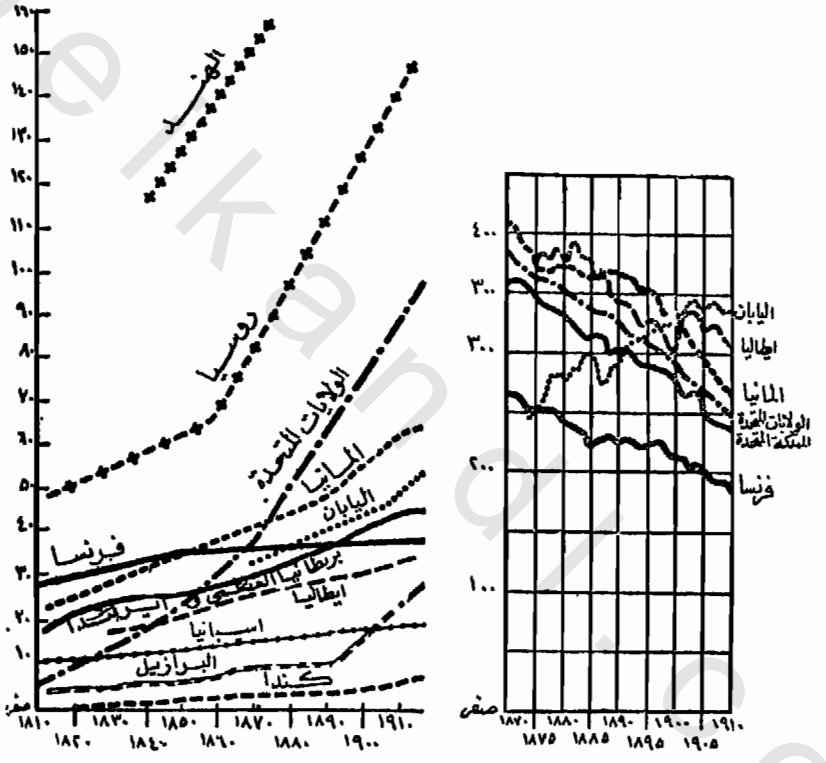

شكل رقم ٨ ـ السكان ونسبة الولادات

الى اليسار : سكان بعض البلدان بملايين النسمات (نقلا عن احصاء « بيرو » العام)

الى اليمين : نسبة الولادات لا ... ١٠ نسمة (نقلا عن « هوبر » ، برنل » ، « بوفر » ؛« سكان فرنسا » وعن احصاء « بيرو »)

وما كانت هذه الهجرة لتتحقق في القرن الثامن عشر . فان ظروفاً مؤاتية كثيرة – انخفاض كلفة وسائل النقل ، وعدم قابلية المدن لاستيعاب كافة النازحين عن الارياف ، وحرية المهاجر في التوجه الى مناطق واسعة خالية من السكان والاستيطان فيها – قد توفرت في الوقت الذي

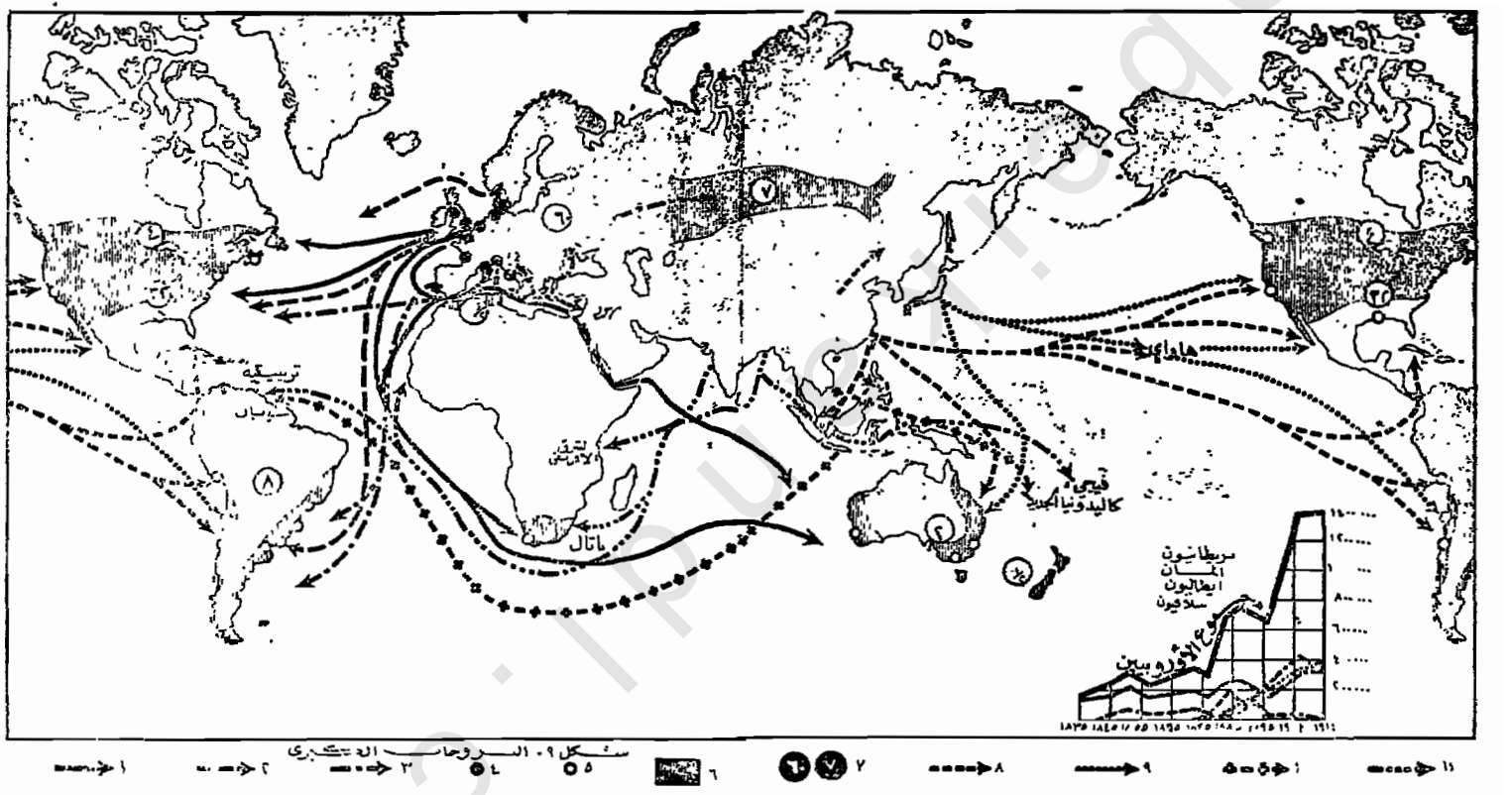

شكل ٩ - النزوحات الكبرى

١ - نزوحات بريطانية ؛ ٢ - نزوحات سكندنافية والمانية ؛ ٣ - نزوحات متوسطية واوروبية وسطي واوروبية شرقية ويهودية ؛ ٤ - مرافىء المهاجرة الاوروبية ؛ ٥ - مرافىء الاغتراب ؛ ٦ - مناطق اغتراب الاوروبيين ؛ ٧ - اعداد المهاجرين (دوائر سوداء) والمغتربين (دوائر مرقنة) الاجمالية بالملايين ؛ ٨ - نزوحات صينية ؛ ٩ - نزوحات يابانية ؛ ١٠ نزوحات هندية صينية وماليزية ؛ ١١ - نزوحات هندية .

الرسم البياني يبين تصاعد المهاجرين الاوروبيين

بدت فيه تقديرات « مالتوس » وشيكة التحقق في كل مكان تقريباً ، بين الاطلسي والمتوسط ، وحتى الاورال في وقت لاحق قريب . فكان هذا الوقت هو البرهة السريعة الزوال: فبالامس اعتبرت الروح التجارية نزوح الرعية مضرة باقتصاد الامير ، وغداً ستفرض الوطنية قيوداً اما على الخروج واما على الدخول عبر الحدود . ومنذ السنة ١٨٤٦ ، نادى « ثورنتون » ، تلميذ « مالتوس » ، بهجرة « على نطاق واسع » في كتابه « تضخم عدد السكان وعلاجه » . فنشطت الدعاوة ، دون اي عائق ، في اغراء المساكين ؛ واخـذت بعض الجمعيات الدينية وشركات الملاحة على عاتقها امر النقل والايواء ، ورضيت الحكومات ، وتولت بعض دول مـا وراء البحار دعاوة تشويقية . ولم يكن مهما ان يتم السفر في ظروف صعبة (فقد زعـم بعضهم ان ١٥ ٠٠٠من اصل ٩٠ ٠٠٠ مسافر من بريطانيا العظمى قد ماتوا في الطريق او بعد انزالهم الى البر في السنة ١٨٤٧) ، اذ ان اليقين من وجود اراض وعمل مضمون كان حافزاً قوياً للمعوزين . اما أولئك الذين ارغمتهم الازمات السياسية او الاضطهاد الديني على الجلاء او الانتفاء فكانوا اقلية ضئيلة (عدة آلاف من الفرنسيين بـعد السنة ١٨٤٨ ، وعدة آلاف من سكان الالزاس واللورين بعد السنة ١٧٨٠) : فالمليون يهودي شرقي الذين دخلوا العالم الجديد بعد السنة ١٨٨٠ قد فروا من البؤس ومن الاضطهاد الروسي (« بوغروم ») على السواء . وقد سبق لـ « ميشليه » في السنة ١٨٣٥ ان شاهد ذلك جيداً في ليفربول : « جـاء الآن دور المهـاجرين المساكين الذين يُدفعون دفعاً الى ظهر السفينة . انهم لقطيع بشري بائس . . . لا مفر من أن يسافروا . صغار الحاكة يتضورون جوعاً في جوار منشستر » . هذه هي هجرة الكادحين .

تراوح عدد المهاجرين ، حتى السنة ١٨٤٠ ، بين ٣٠ و ٤٠ الـف شخص في السنة : اي ١ ٥٠٠ ٠٠٠ منذ السنة ١٨٠١ ؛ وكان جلهم من الصناعيين اليدويين الذين افقرهم المعمل والمصنع . ثم ارتفع هذا العدد في السنة الواحدة ، بقفـزة اولى ، الى ٢٠٠ ٠٠٠ وحتى الى ٣٠٠ ٠٠٠ ؛ ويرد ذلك الى خطورة ازمة ١٨٤٥ – ١٨٤٨ ، والغاء الفدادية في اوروبا الوسطى – الذي حرر الفلاح من ارتباطه بالارض – ، والاندفاع وراء الـذهب في كاليفورنيا واوستراليا : وهم البريطانيون والايرلنديون والالمان خصوصاً من هاجروا باعداد كبيرة ؛ فان ٨٠٪ مـن مجموع المهاجرين بين السنة ١٨٤٥ والسنة ١٨٥٠ ، و ٥٠٪ حتى السنة ١٨٧٥ ، انتسبوا الى انكلترا وايرلندا وحدهما . ويقدر عدد المهاجرين بـين السنة ١٨٤١ والسنة ١٨٨٠ بـ ١٣ مليوناً . ثم مرت فترة توقف نسبي في السنوات ١٨٥٧ – ١٨٧٥ التي توافق انطلاقة صناعية ملموسة في اوروبا والحرب الاهلية في الولايات المتحدة . ولكن التدفق تجدد وتعاظم مرة اخرى بعـد السنة ١٨٨٠ : فنزح عن اوروبا ١٣ مليوناً خلال عشرين سنة فقط ؛ نسبة اقل من البريطانيين والنسبة نفسها من الايرلنديين والالمان ، يضاف اليهم السكندنافيون ؛ اما الجدة الكبرى فهي بدء هجرة سكان اوروبا الجنوبية والشرقية : البرتغاليون والاسبانيون اولا ، ثم رعايا فرنسوا – جوزيف والقيصر .

حركة انتقال الشعوب والشعوب الجديدة الاوروبية المنشأ

سجلت الجغرافية من ثم انقلاباً عظيما يلفت الانتباه فيه واقعان هامان : فمن جهة اخذ شطر كبير من اليهود يجتاز الاطلسي بحيث اصبحت اميركا ، بعد روسيا ، موطن اكبر عدد منهم في العالم ؛ يضاف الى ذلك ان شعوبا صغيرة عدة ـ كالايرلنديين والبرتغاليين ـ كادت تتوزع مناصفة بين ديار الاغتراب واراضي الجدود ؛ ومن جهة ثانية ، امتدت شبكة المجتمعات المنظمة تنظيماً اوروبياً الى القارة الاميركية كلها تقريباً ، واوستراليا وزيلندا الجديدة ، ومناطق افريقية معتدلة المناخ ، وحتى الى بعض مناطق آسيا . فأسهم المهاجرون في استثمار الكرة الارضية ونشروا في الوقت نفسه الحضارة الاوروبية ، بحيث ان وجه هذه العوالم الاوروبية الجديدة ، الذي لم يكن مماثلا كل المماثلة لوجه اوروبا القديمة ، قد اعاده الى الذكرى ، على الرغم من ذلك ، بصورة مؤثرة جداً .

الفصل الخامس

فتح المحاصيل الكبرى
الحيوانية والنباتية

طلبت اوروبا من العالم مساعدته على التغذية والاكتساء .

القنص والصيد

ان التقنيات الصناعية لم تضعف فروع الاقتصاد الاساسية بل قوّتها ودفعت بها الى الامام .

فان ردة الفعل الدفاعية ضد الحيوانات المؤذية قد افضت الى ما يشبه القضاء عليها في الغرب، ولكن حيوانات المناطق الاخرى كانت كذلك مطمح حرصاء لا يعرفون للشفقة معنى . فغذت الجبال المرتفعة والاراضي المتجمدة حول القطبين الاسواق العالمية بالفراء ؛ وفي المناطق الحارة طورد الظبي والغزال ولا سيما الفيل في عملية استثمار استباحت كل تجاوز ووحشية . ولا عجب من ثم اذا انقرضت بعض الانواع ، واذا ما توجب ، للمحافظة على الحيوانات المهمة ، ايجاد احتياطي طبيعي او اللجوء الى تربية الحيوان (تولت افريقيا الجنوبية تربية النعامة) . وقد بلغ من الحاح الطلب ان صناعة الفراء قد اكتسبت خبرة واسعة في فن استخدام كل قنيص موبر .

وعلى الرغم من ان الانسان لم يعدليتقيد بالصوم،فانه قد مال اكثر فأكثر الى طلب غذائه من البحر . وقد تحسنت عدته لتحقيق مطلبه ، بينما كشفت المياه عن اسرار حياتها العضوية . فان البخار والمروحة وهيكل السفينة الحديدي قد اتاحت بناء سفينة الصيد التي كان باستطاعتها ، اذا ما زودت بالمحروقات الكافية ، اطالة رحلة الصيد وتعقب السمكة عن كثب وحتى معالجتها محلياً . وقد بوشر في السنة ١٨٧٥ استخدام الشبكة التي تجر تحت سطح المياه. وبفضل التبريد ، بات باستطاعة السفينة المزودة بالجليد توسيع نطاق عملياتها. وقد ولد مرفأ «غريمسبي» في السنة ١٨٥٨ وجهز « بالخط الحديدي المركزي الكبير » الذي سارت عليه قطارات نقل

لاسماك الاولى . وبرز نشاط ملحوظ في البحار الضيقة والساحلية، وعلى شواطىء اوروبا الشمالية الغربية ، واميركا الشمالية في الغرب والشرق على السواء ، وآسيا الشرقية . فأثار هذا النشاط منازعات بين الفرنسيين والانكليز حول مياه « الارض الجديدة » الغنية بالاسماك، وبين الانكليز والاميركيين في مياه « بيرنغ » ، فأقر مؤتمر عقد في لاهاي قانوناً دولياً للصيد ، كما استهدفت احدى الاتفاقيات حماية الانواع المهددة بالانقراض .

كان الحوت في عداد هذه الأنواع . فقد جد الصيادون في اثره الى ان زال من نصف الكرة الشمالي منذ السنة ١٨٥٠ . فتحول الصيد الى المحيط المتجمد الشمالي حيث قام به النرويجيون بمهارة فائقة وولع عظيم . وقد روى « ملفيل » هذه الملحمة في « موبي ديك » .

تحولت حياة اهل البحر : فطال غياب الصياد ، وامسى اقل استقلالاً، وازدهرت المشاريع الرأسمالية بفضل معدات تميزت بمزيد من الفعالية .

استخدام الشجرة

قضت المجتمعات العصرية على قسم كبير من احتياطي الاشجار الحرجية في اوروبا الغربية ، وجر الاستعمار الى الافراط في قطع الاشجار في جنوبي الولايات المتحدة وشرقيها . وكانت الكميات المتوفرة في تناقص مستمر حين تكاثر استخدام الاشجار على الرغم من اللجوء الى الفحم الحجري .

ثم جاء دور الاحراج الواسعة في المناطق المحيطة بالقطب الشمالي التي لم تشك بعد من الاعتداءات البشرية : فغدت اسكندينافيا وفنلندا وكندا دولاً منتجة كبرى . فقدمت شركة « خليج هودسون » خشب البناء بصورة خاصة حتى منتصف القرن وزودت مصانع السفن بخشب الصنوبر ، ثم جاء عهد الالواح الخشبية الطويلة المقطوعة من جذوع ضرب من أشجار الصنوبر وعهد الاشجار التي لم تعر اية اهمية حتى ذاك التاريخ . فوظفت رؤوس اموال جديدة في مشاريع هامة كثيرة كـ « شركة الورق الدولية » التي ابتاعت ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع . وقد امتلك اللورد «نورثكليف» صاحب صحيفة الـ« دايلي مايل » ٦٠٠٠٠٠ هكتار في جزيرة « الارض الجديدة » وبنى في « غراند فولز » مصانعه الورقية الخاصة .

لم تكن احراج المنطقة الحارة اقل فتنة وسحراً بأشجارها الثمينة . الا ان اميركا الجنوبية والهند واندونيسيا قد تقدمت على افريقيا في هذا المجال بفضل وسائل النقل . فبينما استخرج العفص من شجرة الـ « كبراكو » في الارجنتين ، استخرجت الكينا والكوكا من اشجار جبال « اندس » . وعاد « لاكوندامين » باسم المطاط الذي لن يستخدم صناعياً الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؛ ومنذ السنة ١٨٧٠ ، انتشرت حمى الذهب الاسود في الاحراج الامازونية : فجال جامعو صمغ المطاط في الاحراج المظلمة لتأمين طلبات الزبن الموصين الذين نقلوا المحاصيل المجموعة عن طريق الانهر . وستبلغ هذه الحمى ذروتها في السنة ١٩١٢ .

ما زال الغرب مفتتناً بالعطور التي وفرتها له المنــاطق الرطبة المرتفعة الحرارة : واذا كان استقطــار الفحم المعدني قد وفرّ له صباغات صنعية تواحم قرمزية غواتمالا ونيلج الصين والهند، فأنه ما زال يتجه نحو الطبيعة الغنية بالنباتات للحصول على الجاذبة والقرنفل والاترجية . فوسع زراعة الخشخاش المنوّم التي وفرت له ارباحاً طائلة ، واستخلص من الكوكا احدى لذاته الخفية . وادخل في سلسلة الزراعـات المتقنة عالم التوابل : اشجار القرفة ، واشجار الونيلية ، واشجار الفلفل واشجار القرنفل ، التي كانت تنمو ، كما يتسنى لها النمو ، بعناية البلديين الكسالى . ولم يأبه للضرر الذي سيلحق باشجـــاره الزيتية الخاصة، فطلب من الهند زيت السلجم لمصباحه واستعمله في غذائه كما استعمـــل الفول السوداني وزيت البلح وجوز الهند ، والسمسم ، واستخدم الخروع للتداوي والتصوير .ووسع كذلك صناعة المنسوجات التي أتته من المصادر عينها : قنّب سيام الذي اسماه «حرير كانتون »، والرامِيا ، وقنب مانيلا أو « اباكا » ، والقنب المكسيكي ، والقنب الهندي بنوع خاص . واتجه أكثر من اي يوم مضى شطر الشرقين الأدنى والأقصى في طلب الخز أو الحرير الخام بعد انتشار مرض التغلغل الطفيلي الذي اصاب دود القز في مقزاتة نفسها ؟

بيد أن ما اراد توسيعه واخصابه في الدرجة الأولى هو زراعة القطن . فان الخبازيات النهمة قد انتشرت في أكثر من مليون كيلومتر مربع حين افتقرت بعض المراكز الصناعية الرئيسية في اوروبا الى المـــادة الخام بسبب الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأميركية . ومهما يكن من أهمية نهضة وانطلاقة زراعة القطن الاميركي – الذي لن ينافسه قطن آخر – فان صاحب المصنع في « لانكاشاير » أو « ميلهوز » أو « شمنيتز » لن يستطيع الاكتفاء بمون واحـــد . لذلك تم الاتفاق على انتاج القطن ، حيثما سمحت الحرارة بذلـــك ، على أن تؤخذ بعين الاعتبار المياه ، والتربة التي يجب ان تكون مخصابة ، والسواعد التي يجب أن تكون كثيرة : فسيُنتج من ثم في ارض « بيرار » السوداء، ووادي الـ « غانج » ،وعلى جنبات النيل وداريا – بواسطة الري ؛ ثم في البرازيل وجزر الانتيل الانكليزية الصغرى والصين ؛ وأخـــيراً في المكسيك و « كوينسلند » ونيجريا و « اوغاندا » . وفي اوائل القرن لم يغط النسيج النباتي الأول سوى ١٢٪ من حاجات البشر ، بينما هو غطى أكثر من ٥٠٪ في اواخره .

ولم يكن توسيع زراعة اشجار الشاي والبن والكاكاو اقل الحاحاً في المناطق الحارة ، لا سيما وان الاشربة المصنوعة من ثماره كانت مرغوبة جداً . فان الاحتكار الصيني القديم ، الذي غذى تجارة رابحة عن طريق كانتون وآسيا الوسطى منذ ان زرع البريطانيون في اسام وسيلان، والهولنديون في جزر الـ « انسولند » ، شجرة الشاي التي حسنو انواع محصولها . على ان آسيا لم تفقد مرتبتها الممتازة . فان البن ، الحبشي الاصل ، الذي احتكره العرب تحت اسم « مخا » قد وجد في اميركا ارضه المختارة . فقد اعتنى به الهولنديون في جاوا والانكليز في سيلان ،ومن جاوا انتقل الى«غويانا»،بينما استورده الفرنسيون الى الـ«ماسكارانيه» والانتيل،وزرع البرتغاليون

شجرته بدورهم في منطقة « برنامبوك » و « باهيا » ؛ ثم بلغ « ساو باولو » التي وافقته تربتها الحمراء ، ومناخها ؛ وانتقل اخيراً الى أرض كولومبيا « المعتدلة » والمزارع الفنزويلية ، وتسلق منحدرات الـ « كورديليير » ، وغزا اميركا الوسطى . إلا أن البرازيل انزلت منه الى الاسواق قدراً من الأكياس لم يعد انتاجه معه عمليه رابحة . فليس من اقتصاد أوهى من هذا الاقتصاد المرتبط بالطلب الغربي . ولكن اقتصاد الكاكاو ليس بالاقتصاد الافضل : فان الأكوادور تدين له بما تدين كولومبيا او ساو باولو للبن . وكان الكاكاو شراباً مفتخراً في اواخر القرن الثامن عشر ، وقد عرفه هنود اميركا ، فانتقل من ثم الى اسبانيا . ولكنه احتل فجأة مرتبة رفيعة حين انزل السويسريان ، « بيتر » و « لندت » ، الشوكولاتا الى الاسواق ، فوظفت رؤوس الأموال في مغارس البرازيل وفنزويلا والاكوادور ؛ ثم انتقلت شجرة الكاكاو الى مستعمرة الشاطىء الذهبي حيث أغرى البريطانيون الزنوج بانتاج عائلي . وبفضل ذلك لاحت في أفق القارة الافريقية ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، زراعة لن تقل شأناً عن زراعة شجرة الشاي في آسيا وشجرة البن في اميركا .

ولكنها لن تستطيع مزاحمة هذه الأخيرة طويلاً على المرتبة الأولى في تجارة الموز . أجل لقد عني المستعمرون الانتيليون باشجار الموز التي تظلل اشجار الكاكاو والبن ؛ ولكن موز « كاناري » كان موضوع تقدير اعظم . فتبدل الوضع في أواخر القرن حين ابتاعت بعض الشركات الاميركية — وعلى رأسها « شركة الثمار المتحدة » — اراضي واسعة جداً في اميركا الوسطى ؛ يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، أن أحد فروع هذه الشركات ، « الدرز اند فيفز » ، قد احتكرت تجارة الموز مع الكاناري .

الثمار والبقول على الخوان في الغرب

ليست ثمرة الموز سوى واحدة من الثمار الكثيرة التي دخلت اوروبا واميركا الشمالية حديثاً . وقد تنوع الغذاء من ثم ، بصورة عامة ، تنوعاً وفيراً ، ولا سيما في المدن . ولم تأت الكميات الكبرى من الثمار والبقول التي طالبت بها المدن من الأرياف المحافظة على الطرائق التقليدية فحسب ، بل من بعض الأراضي التي اكتشفت ، بفضل هذه الزراعة ، مصدر ثروة لم تحلم به قط . ويجدر التذكير هنا باستفادة هولندا وبريطانيا الساحلية و « كورنواي » الانكليزية وبعض المناطق المتوسطية من زراعة بواكير الثمار . فان هنالك ، الى جانبي خطي السرطان والجدي ، مستعمرات اتقنت انتاج النبيذ والزبيب والزيتون والبواكير المختلفة الكثيرة . أما مناطق زراعة شجرتي التين والبلح فكانت محاذية لهذه الأراضي وأبعد نحو الصحراء . وقد اتسعت كذلك اتساعاً عظيماً أراضي زراعة الحمضيات : ففي السنة ١٨٦٠ ابحرت سفينة بخارية من فالنس وأفرغت في لندن شحنتها الكاملة من البرتقال . وفي السنة ١٨٨٣ وصل خط حديدي بين كاليفورنيا الجنوبية وشرقي الولايات المتحدة . وما لبثت كاليفورنيا وفلوريدا والانتيل ومستعمرة الـ « كاب » وأوستراليا واليابان أن انتجت التفاح الذهبي على غرار البلدان المتوسطية القديمة .

التنافس والحرب بين الشمندر وقصب السكر

ارتفعت نسبة استهلاك السكر ارتفاعاً كبيراً. فلم يعد البريطاني ليكتفي بثلاثة كيلوغرامات للشخص الواحد كما في اوائل القرن، بل اصبح بحاجة الى ٤٠ ؛ واستهلك الفرنسي منه ٢٣ بدلا من ٢ ؛ واستهلكت المانيا ٧ ملايين قنطار في سنة ١٩٠٠ مقابل مليون واحد حوالي السنة ١٨٥٠ ؛ ولن تلبث الولايات المتحدة ان تؤلف سوق البيع الاولى لهذا الصنف . اجلى ان في ذلك لدليل يسار : ولكن مما يلفت الانتباه من جهة ثانية ان هذه المادة الغذائية قد رغب فيها سكان المناطق الشمالية اكثر من سكان المناطق الجنوبية ، وابن المدينة اكثر من الفلاح . لذلك لم يعد قصب السكر ليكفي بعد السنة ١٨٥٠ ، فانتزع الشمندر مركزه ، بعد ان احرز نجاحات ملموسة ؛ ولكنه تأخر عابر منيت به المناطق الحارة ، عند اللقاء النخاسة ، امام اوروبا واميركا الشمالية اللتين عممتا الدورة الزراعية واستتا المزيد من معامل السكر في كنف الحماية الجمركية . ولكن الاشياء عادت الى حالها بعيد الثورة الكوبية التي وافقت في الزمان فترة تدن في الزراعة : وقد افضى الى ذلك المجهود الذي بذله في آن واحد الهولنديون في جاوا ، والبريطانيون في الهند وجامايكا وموريس ، والبرازيليون في بلادهم ، واليابانيون في فورموزا ، ولاسيما الخطوة التي خطتها كوبا « وبورتوريكو » الى الامام في كنف الولايات المتحدة . ثم اوجدت الاتفاقات الدولية المساواة بين الزراعتين ، فتوزع قصب السكر والشمندر ، مناصفة تقريباً ، انتاجاً استهلك الغرب ثلاثة ارباعه .

توسيع مساحات زراعة الحبوب

كان الجدب بالامس يعني الحاجة الى الخبز . ومن جهة ثانية قابلت التجمعات البشرية المناطق التي كانت فيها الحبوب مرتكز الغذاء . ولذلك كانت معركة الارز في آسيا ومعركة الحنطة في اوروبا معركتين حيويتين في نظر المجتمعات المرتفعة عدداً ؛ ولكن كانت هنالك معركة الذرة الصفراء عند الهنود الاميركيين ومعركة الذرة البيضاء والجاورس في افريقيا . وقد اشار « مالتوس دي دومبال » الى الصيغة التي توافق اوروبا الضيقة : « ان الاهراءات الحقيقية لليسار هي الدورات الزراعية المتقنة » . ولكن الزراعة الوفيرة الانتاج متعذرة في المساحات الواسعة التي يجب ان « تصنع فيها الارض » اولاً . فهي المساحة الصالحة للحراثة ما يعول عليه حين يكون المقصود فتوح الارض البكر بواسطة المحراث .

انه لظاهرة عظيمة تقدم جبهة مستصلحي الاراضي عبر المروج او السباسب من الشرق نحو الغرب في اميركا الشمالية ، ونحو الشرق عبر سيبيريا ، ومن الشواطىء نحو الداخل في المناطق الجنوبية . ومن الطبيعي ان الامكانات وطرائق المعيشة قد اختلفت بين فريق وآخر : فشتان بين « المزارع » الاميركي الذي استفاد من الخط الحديدي والآلة الزراعية ، وبين الفلاح الروسي المشدود الى عادات جدوده في اعتماد الزراعة الجماعية . اما وجه التشابه فهو ضعف الانتاج الذي يميض عنه ضعف الاستهلاك محلياً ؛ بحيث اعطت اراضي زراعة الحبوب فائض انتاج يبيع بمعظمه في الاسواق العالمية . اضف الى ذلك ان الطرائق والتقنيات قد افادت من

الاختبار : فقد شوهد قمح شتوي ، هو القمح « التركي الاحمر » ، يزرع في اراض واسعة بين « كنساس » وداكوتا ؛ وقمح ربيعي ، هو ال «مزمار الاحمر» الغاليسي المنشأ ، يغزو «اونتاريو» و« مانيتوبا » و « ميناسوتا»و«داكوتا»؛ ثم بلغت اراضي زراعة القمح في تقدمها المناطق نصف الصحراوية التي وافقت ، بفضل « الزراعة البعلية» ، نوعا من الحنطة اعظم قـــدرة على مقاومة الجفاف والبرد ، هو « المركيز» ، الذي استحصل عليه بتهجين «المزمار الاحمر» والقمح الهندي . اما في الهند فقد وجه الانكليز جهودهم شطر البنجاب والسند حيث ساعـــد الري على انتاج قمح ربيعي .

بيد ان اعظم نجاح هو نجاح اميركا الشمالية التي افادت من تنظيم تجاري متين مرتكز الى الاهراءات ، ووسائل نقل سريعة ، وصناعة طحينية متقدمة . فقد خصصت لزراعة الحبوب ، بما فيها زراعة الذرة الصفراء ، مساحة ٧٠ مليون هكتار في الولايات المتحدة ، و ٧ في كندا ؛ فتوفر ٥ مـــلايين طن من طحين الحنطة في السنوات ١٨٩٠ — ١٩٠٠ . وباتت «مينيا بولس » و « شيكاغو » و « وينيبغ » تؤمن الخبز لـ ١٠٠ مليون نسمة . اما الارجنتين واوستراليا والهند فقد اسهمت ، بامكاناتها المتواضعة ، في تسليم اوروبا الغربية ما تحتاج اليه ، اي ١٢ مليون طن بالاضافة الى ما كانت تسلمها اياه اوروبا الشرقية على غير نظام .

تقهقرت امـــام القمح الحبوب المعروفة منذئذ بالثانوية ، لان الخبز الابيض كان دليل حضارة متقدمة .

ولا يخلو من المغزى كذلك التقدم البطيء في انتاج الارز الذي لم يعره الغرب اهتماماً يذكر . ولكن الغرب قد توفق ، بجعل بورما تلعب دور ممون الجماهير الآسيوية الشاكية من التغذية الناقصة ، الى ان يتحكم بتموين شطر هام من هذه البشرية .

نجاحات تربية المواشي

ان المروج والسباسب التي يسهل اعدادها لزراعة الحبوب تصلح لتربية المواشي ايضا . لذلك نرى ان تربية المواشي ارتبطت بالزراعة في البلدان الاوروبية التي زاولت الزراعة منذ القدم . امـا فتح الارض البكر فغالبا ما تم بواسطة التطبيع الذي يمكن ان يكون موضوع مضاربة مائعة .

هذه هي حال الخروف الذي انكفأ في اوربا الغربية والوسطى امام النباتات المفيدة المغذية ، ووافق المساحات الجافة الشاسعة في الغرب الاميركي والسهل الروسي ونصف الكرة الجنوبي . وتعطينا اوستراليا على ذلك مثلاً عظيما. فان الحدث الرئيسي بالنسبة لها ليس انزال ٧٥٠ محكوماً ممن لفظهم المجتمع في خليج (سدني) بامرة « ارثور فيليب » في ٢٦ ك٢ ١٧٨٨ ، بل انزال ٢٩ خروفاً . ففي السنة ١٨٢١ ارسلت بالات الصوف الاولى الى انكلترا، وفي السنة ١٨٦٠ ارتفع عدد الاغنام الى ٢٠ مليون رأس ، والى ١٠٠ مليون في السنة ١٨٩٠ . وعلى الرغم من الجفاف الرهيب الذي حصل في السنة ١٩٠٢ ، ومن جرد الارانب للارض ، الذين اضـــرا اضراراً

كبيراً بعد ذلك بهذا العدد الضخم من الاغنام ، فان صحة المثل الاسباني السائر تتحقق في هذه القارة القليلة السكان : « اقدام الخروف من ذهب ، والأرض التي تظهر فيها آثار اقدامه تتحول الى ذهب » . فبات بمقدور العالم ، الذي لم يستهلك قط أكثر من ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ طن صوفاً في اوائل القرن أن يستخدم ١ ٣٠٠٠ ٠٠ طن حوالي السنة ١٩٠٠ ، فاصبح الانفصال نهائياً بين المناطق المنتجة والمراكز الصناعية .

وهنالك واقع آخر كان من شأنه تشجيع تربية المواشي ، اعني به أهمية اللحوم والاجبان في تغذية المجتمعات الجديدة . لا ريب في أن مجهود أوروبا الشمالية الغربية ، التي حسنت فيها المراعي التي ترويها امطار كافية ، قد تكلل بالنجاح : فعلى غرار الزراعة ، ارتدت تربية الأبقار والغنم طابع التصميم على انتاج عظيم . ولكن النشاط الزراعي في البلدان الجديدة ، التي توفرت لها المراعي الطبيعية الواسعة والحبوب المغذية ، قد تقدم كل مجهود . فان « منطقة الأبقار » ، حيث اعتمدت في تربية المواشي الطريقة البدوية ، مع ما استلزمته من رعاة بقر وحراس (*Gauchos*) ، ليست سوى المرحلة الأولى من النشاط في هذا الحقل ؛ ثم جاء دور المحطات الثابتة ، او مزارع التسمين ، التي غذت صناعة المعلبات ؛ ثم اخذت ترتسم انطلاقة الحليب : فقد دخلت كندا وزيلندا الجديدة وأوستراليا الى جانب الولايات المتحدة في منافسة الشمال الغربي الأوروبي في قيمة المنتوجات ، وقد سهلت الذرة الصفراء ومصالة الحليب ، بالاضافة الى ذلك ، نمو تربية الخنازير ، ونجاح الـ « مارغارين » (مزيج حليب وشحم حيواني حققه « ميج — موريس ») وشحم الخنزير . ولم يكن أقل شأناً كذلك تقدم تربية الطيور والدواجن ، بفضل الانتقاء التزاوجي وبسبب طلب متعاظم للحوم والبيض . أما النحل فقد اصبح موضوع استثمار أكثر تنظيما قياسياً : فبعد « ريو مور » ، جاء هوبير و « دزيرزون » اللذان اكتشفا التناسل الذاتي لدى العاملات البياضات ، و « لانغستروث » و « دادان » اللذان ابتكرا القفران ذات النحت المتحركة . كان الغذاء الحيواني المنشأ لا يزال نادراً ومتوسطاً في القرن الثامن عشر : فلا مجال من ثم للتقليل من أهمية التبدل الذي حدث في هذا النطاق ، اذا ما اردنا فهم ارتفاع مستوى المعيشة العام في الغرب منذ منتصف القرن اللاحق .

انتشار الغربيين ونتائجه غير المقصودة على الانواع النباتية والحيوانية

الا ان الانسان قد تأثر ، على الرغم من ذلك ، بالنتائج غير المرتقبة التي اسفرت عنها اتصالاته . وقد لاحظنا ان استيراد اصواف المناطق الجنوبية كان كافياً لانتشار أكثر من خمسماية نوع نباتي جديد حول مراكز صناعة الجوخ في جنوبي فرنسا . ويفسر شراء الحبوب من الشرق الأوروبي دخول بعض انواع نباتات البورات الى فرنسا. وقد انتقلت من العالم الجديد الى أوروبا آفة الارمداد التي فتكت منذ السنة ١٨٤٧ بالكرمة المتوسطية القديمة ، بينما قاومتها الانواع الاميركية مقاومة فضلى . وانطلاقاً من نصف الكرة الغربي ، انتشرت كذلك آفة العفونة وقمل الشجر المثمر. وكان الصرصور الذهبي قد تردد الى الباذنجانيات البرية في الولايات المتحدة قبل

أن يفتك فيها بالبطاطا ، وظهر في أوروبا مرتين بين السنة ١٨٧٦ و ١٨٨٠ .واتلف داء الكرمة كذلك الجفون الأوروبية التي زرعت في اميركا قبل أن ينتقل الى أوروبا ويحدث فيها الكارثة التي لم تعالج إلا جزئياً بعملية تطعيمها . وظهر داء اوراق البن العربي في سيلان ، ثم انتشر في أقل من عشرين سنة في كافة البلدان الواقعة حول المحيط الهندي ، وتسرب اخيراً الى قلب افريقيا . أما الدوري النهم فقد دخل اميركا بعيد السنة ١٨٥٠ ثم اوستراليا حيث جاء الأرنب بدوره يحدث اضراراً أكثر مثولا للعيان ايضاً . واذا استُصوب في بوهيميا إدخال الجرذ الممسّك الذي ابتغاه الكنديون من أجل جلده الفروي ، فانه من جهة ثانية قد تكاثر تكاثراً خطراً في موطنه الجديد .

الفصل السادس

العبقريـــة الصناعية في أوج انتاج الفحم الحجري وعنـد ظهور الفولاذ

« وا أسفاه ! ان المطحنة التي تدور ، تدور ثم تموت » .
(« فيرهايرن » ، « الامسيات »)
« ايها الغزاة القساة القلوب ، انما انتم آتون لتحرموني من شعلة عروقي ... »
(« غودو » ، « اغنية الفحم الحجري»)

ترويض القوى الطبيعية وسيطرة الفحم الحجري

سارت الحضارة الصناعية بخطى حثيثة بعد السنة ١٨٥٠ : فارتسم حينذاك الخلاف في اوروبا بين بلدان الحصان البخاري وبلدان حصان الجر ، وتوصل الاميركي الشمالي حقــاً الى استثمار ثروات قارته ، وحقق الغرب في العالم تفوقاً مادياً ساحقاً .

لم تتخل المياه قط عن وظيفتها كقوة فاعلة . فبالاضافة الى الخدمات الضرورية التي مـــا زالت تؤديها ، من غسل نسائج وتـنقية شفار وتوفير الانبجـاس القوي المضغوط الذي يستخدمه المنجم للتحليل ، نراها تحرك آلات الرفع وتغذي مضخة « ابولد » المبعدة عن المركز وتتيح تركيب المصعد وتولد الكهرباء بواسطة المنفة . واذا ما تدنى شأن المطحنة الهوائية والسفينة الشراعية ، فان الهواء المضغوط قد حرك كذلك المعـــاصر والمثاقب وامن المتانة لفرملة « وستنكهوس » .

اجل ان البخار ، الذي هو وليد الماء على كل حال ، قد استقطب العديد من المعجبين ، كما ان تحقيقاته قد اخرست المرتابين . الا ان المهندس والعالم قد أخذا منذئـــذ يبحثان عن محرك

obeikandl.com

أعظم فاعلية : اما بواسطة الهواء الساخن كما توخاه « اريكسون » و « فرانشو » ، واما بواسطة الغاز كما ارتأى « هوغون »، وكما ارتأى بعده « لنوار » و « اوتو » و «لانجن» ، واما بواسطة محروق سائل ايضاً . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق تحققاً نهائياً، وقد عجزت الكهرباء نفسها التي اثبتت قدرتها على اضاءة فضلى ، عن توفير قوة دافعة كافية . فالمجال ما زال واسعاً امام الفحم الحجري .

امتد المنجم ونشر الدخان ولوث الاراضي المجاورة الهادئة ؛ وجمع البشر بمئات الالوف في هذه « البلدان السوداء » حيث اخضعهم لعمل شاق مضن ؛ وغالباً ما تسبب بالموت واثار الاحقاد ، ولكنه عرف كيف يستميل الناس اليه . وتعمق الدهليز بفضل المطرقة القارضة والمثقب (مثقب «كافي» حوالي السنة ١٨٢٠ ، ومثقب « سومابيه » بعد ذلك بعشر سنوات) ، وبفضل اجهزة فضلى للتدعيم والضخ والتهوية والافراغ (بواسطة سلة مزودة بفرملة ابتكرت في السنة ١٨٥١) . وسهلت الآلات استنزاف المياه والغسل والغربلة ؛ ولكنها لم تخفف الجهد اللازم لقطع الاشجار ودحرجتها واعدادها للتخشيب ولردم الحفر . فتضاعف الانتاج تضاعفاً متبايناً جداً . ولكن نسبة الاستهلاك ارتفعت ارتفاعاً عظيماً جداً . فتنوع استعمال الفحم : استخدم وقوداً في المدن ، ثم مست الحاجة اليه في القاطرة وفي صناعة الحديد والحديد المصبوب والفولاذ ؛ وسير العديد من الانوال ، واحدث ثورة في صناعة الورق والزجاج ، واوجد معمل السكر الشمندري ؛ و'كرّر فأعطى غاز الانارة الذي حل محل الزيوت والنفط؛ والقار الذي استخرج منه البنزين والاتيلين ، ومواد تلوينية كثيرة ؛ وحوامض الفينول على انواعها التي استخدمت في الطب الدوائي وصناعة الجلود ، واملاح حمض البكريك القابلة الانفجار .

يقدر العارفون ان استخراج الفحم قد انتقل من ٩ ملايين طن حوالي السنة ١٧٩٠ الى ٩٠ مليوناً في السنة ١٨٥٠ ؛ ولكنه ارتفع حتى ٣٠٠ في السنة ١٨٨٠ وناهز الـ ١٠٠٠ في السنة ١٩٠٠ . وقد كتبت صحيفة التايمس يوماً : « ان الاماكن الغنية بالفحم الحجري امست وكأنها حجر الفلاسفة المعاصر ... » ورأى فردريك سيمنس في الفحم « قياس كافة الاشياء » ، وسيذهب «مكسيمليان هاردن» الى ابعد من ذلك باعلانه : «لا خلاص بدون الفحم ». فقيست القوة منذ ذاك التاريخ بالوحدات الحرارية التي يولدها الوقود المعدني . ومهما يكن من الامر فان سلاح المحارب وقلم الدبلوماسي يجب ان يحسبا حساباً لمعول عامل المنجم . ومنذ السنة ١٨٧٠ انتجت مناجم الـ « رور » ضعفي ما تنتجه مناجم فرنسا . وعلى نقيض هذه الاخيرة ، تجمعت داخل حدود البلدان المنتشرة بين الـ « أبالاش » والـ « دونتس » اغنى طبقات الفحم الحجرى في نصف الكرة الارضية الشمالي : الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى، المانيا ، ولا سيما بريطانيا العظمى التي تقدمت غيرها في الاستثمار واستفادت من تسهيلات كبرى لعقد الصفقات .

كانت الاولوية البريطانية ساحقة في السنة ١٨٥٠ (٥٦ مليون طن) ؛ ولن تزول الا قبيل

السنة ١٩٠٠ ، حين احتلت الولايات المتحدة بدورها المرتبة الاولى . ولكن بريطانيا العظمى احتفظت ، حتى بعد هذا التاريخ ، بالسيطرة على الاسواق من حيث نسبة المبيعات : واذا هي تراجعت بعض التراجع في اوروبا الوسطى امام المنافسة الالمانية ، فانها ما زالت تزود الموانىء البحرية بالوقود . فكانت نتيجة وجود الفحم الانكليزي في كل مكان الوجود الانكليزي في كل مكان ايضاً: وان لندن التي توفرت لها هذه الامكانية العظيمة قد سيطرت في كل مكان ايضاً.

ارباب صناعة الحديد والفولاذ

في القرن التاسع عشر انطلق عصر الحديد . فقد تحققت انتصارات تقنية تثق بنفسها وبالمستقبل : بناء الجسور المعدنية الكبرى في « بروكلن » و « فورث » و « غارابيت » – وقد بنى هذا الاخير « ايفل » ، « رجل الحديد » ، رجل البرج – ، وبناء هذا البرج الساحر نفسه فوق معرض السنة ١٨٨٩ . وغزا المعدن المروض حياة الغربي ودخل في كافة ادواته المألوفة . فالريشة بقيت ريشة حتى ولو صنعت من الفولاذ ، واستمرت المرأة في حمل لحى المشد وان لم تكن لحى حوت حقيقية .

تحتمت هزيمة الفحم الخشبي الذي كان يغذي « الكور الكاتالاني » ؛ لقد انتقلت السيطرة الى الفحم الحجري المقطر: انه لتحول بطيء لعمري، اخترقه في أماكن عديدة نوعية المنتوجات المحققة حتى ذاك التاريخ والمصالح المشتركة القائمة بين الحدادين واصحاب الاحراج . وازدادت طاقة المصاهر بفضل اكيار « كوبر » : فقد بني منها ما انتج ٥٠٠ طن في اليوم الواحد ، وحتى ٩٠٠ طن في الولايات المتحدة . وتحسن التصفيح الذي تناول الفولاذ ايضاً .

وكان انتاج الفولاذ المستوفي كافة الشروط هدف الطرائق التقنية التي مثلت ثورة حقيقية في صناعة الحديد والفولاذ خلال القرن . فقد اعطت بعض المعادن الحديدية غير الخالصة فولاذاً سائحاً عن طريق التكليس في مصهر مزود بمرايا عاكسة للنور ؛ وأنتج في أميركا فولاذ عرف بالفولاذ الممزوج بالكربون ؛ وتحقق الفولاذ « الدجاجة » في « بتسبورغ » في السنة ١٨٤٠ ، والفولاذ السائح في السنة ١٨٥٣ . وفي هذه الاثناء فكر « هنري بسمر » الذي كان قد هوى تعطيل الطوابع البريدية واستخراج عصير قصب السكر واختراع مضخة مبعدة عن المركز ، بتحويل الحديد المصبوب تحويلاً مباشراً الى فولاذ سائح بواسطة تيار هوائي مضغوط ؛ وكان محوله هذا يبعد كربون الحديد المصبوب السائح فلا يبقى الا الاستعاضة عن الكربون بواسطة حديد مصبوب ممزوج بالمنغنيز او الكبريت . وكان ذلك في السنة ١٨٥٦ . فاستقبل الاختراع في البدء استقبالاً حماسياً ، ثم تغلب الارتياب ، فاضطر بسمر لان ينشىء بنفسه في « شفيلد » مصنعاً للفولاذ بحسب نظريته . وما لبثت فوائد طريقته ان برزت شيئا فشيئاً ، مع انها لم تنطبق على المعدن غير الخالص الممزوج بالفوسفور واستلزمت مادة خاماً نقية جداً .

ثم ابتكرت طريقة اخرى : هي طريقة اذابة الحديد المصبوب مع الحديد اللدن . وكان

هذا الاختبار قديم العهد : وقد سبق لـ « ريو مور » و « هاسنفراتز » ان اشارا اليه. فقد عاد اليه « لويس لو شاتلييه » في السنة ١٨٥٦ بواسطة كور مزود بالمرايا يحترق فيه الكربون احتراقاً بطيئاً ، ومن شأنه إتاحة استخدام نفايات الحديد وقراضاته . ولكن العملية لم تنجح نجاحاً تاماً إلا في السنة ١٨٦٤ حين استخدم الاخوان « اميل » و « بيير مارتين » كوراً زودت جدرانه بأوكسيد السليسيوم ومولداً للغاز من صنع « فردريك سيمنس » . فتم انتاج الفولاذ بشتى درجاته وبكميات كبرى . وانتقل استخراج المعدن الغير الخالص من ٤ ملايين طن إلى ١٨ مليوناً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٠ .

في هذه الأثناء تحسنت السقاية وتعلم الناس الاستفادة من المعادن غير الخالصة الممزوجة بالفوسفور . وكان « غرونر » قد اثبت أن القاعدة الكيميائية وحدها قادرة على تثبيت الجسم الممزوج بالفوسفور والخالي من الماء ؛ ولكن لما كان جدار الكور مزوداً بأوكسيد السليسيوم ، فان القاعدة كانت تحلل هذا الأوكسيد . والحال وجد المسألة حلان في السنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ : فمن جهة فكر « توماس » و « جلكرست » بتلبيس المحول بكربونات الكلس المزدوج والمغنيزيا؛ ومن جهة ثانية اعتمد « بورسيل » و « فالران » تلبيساً مماثلاً لكور « مارتين » . فقفز الاستخراج قفزة جديدة ، وبلغ ٢٧ مليون طن في السنة ١٨٩٠ و ٤١ مليوناً في السنة ١٩٠٠ .

تسبب هذا التطور السريع في التقنيات في انتقال المشاريع من مكان الى آخر . فقد كانت المؤسسات الصغرى من قبل موزعة هنا وهناك على مقربة من الاحراج والمياه . ثم برزت الحاجة الملحة الى حديد وفحم حجري يتوفران معاً . ففي انكلترا مثلاً تجمعت المصانع في « مدلندس » ومنطقة « غلاسكو » الغنية بالحديد ؛ ولكن منجم الفحم الحجري لا يلبث أن ينزف ولا يكفي: فتنتقل المصانع نحو البحر الذي تأتي عن طريقه المعادن غير الخالصة من البلدان الأخرى ، وتستخرج هذه المعادن كذلك من الطبقات الجوراسية بين « كليفلند » و « غلوسستر » ؛ ولكن هذه المعادن لم تكن كثيرة الانتاج بسبب امتزاجها بالفوسفور . بيد أن طريقة توماس لم تحل دون فقدان الجزيرة أولويتها ، لا سيما وقد سُلّم فيها بافضلية طريقة مارتين . وتأخرت بلجيكا كذلك تأخراً نسبياً لأن الحديد قد نزف فيها . وأحدق الخطر بفرنسا التي انقذها منجم اللورين الصغير . ولكن هذا المنجم الأخير لم يكف المانيا ، فكان أن الصناعات الحديدية والفولاذية الكبرى في انكلترا وألمانيا قد استوردت حاجاتها من بلدان لا تستخدم كل ما تستخرجه من المعدن غير الخالص (فرنسا ، اسوج ، اسبانيا) أو تصدره بكليته (الجزائر) . وفي روسيا ، تأخر الأورال نسبياً أمام تقدم الـ (دونتس) . وفي الولايات المتحدة باتت بتسبورغ عاصمة صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ومعالجتها ، وحتى في السنة ١٩٠٠ ، اجتذب اليها كرنجي ، المالك فيها سعيداً ، معدن « ماركيت » الادبس اللون بفضل فتح قناة « سولت — سانت — ماري » . إلا أن المؤسسات العاملة لحساب البحرية قد اقتربت من الاطلسي ، والجنوب أخذ يتجهز شيئاً فشيئاً ، وقامت مدن الحديد والفولاذ في السهول الكبرى بعد اكتشاف أهمية المناجم الحديدية

في منطقة البحيرات ، دون أن يؤدي ذلك الى تخفيض انتاج هذا المركز العظيم . فأكد كرنجي حينذاك أن الولايات المتحدة « سوف تستطيع سد حاجات العالم بأجمعه » .

تنوع المعادن غير الحديدية والاملاح

كان الفولاذ من ثم امتزاج حديد وكربون . أما صناعة انواع الفولاذ الخاصة فقد استلزمت معادن غير حديدية كثيرة كان بعضها جديداً ، كالتونغستين والمنغنيز والنيكل .

صنع الشبهان من امتزاج النحاس والخارصين ، وحل محل الورق المقوى في صناعة اسطوانة الخرطوشة ؛ وبفضل لدانته استخدم في صناعة انابيب المصابيح وصناعة الصنابير ؛ ومائل المجوهرات وارتدى مظهر البرونز المذهب . ومن حيث ان النحاس مادة حسنة الايصال فقد استخدم في مصانع التقطير والتمحيص ومعامل السكر ؛ ودخل في خدمة الكهرباء . أما الزئبق فقد استخدم في اذابة المعادن الأخرى وأضفى على المتفجرات خاصيات فاعلة ، واستعين به لمعالجة المصابين بالداء الزهري . وأمنت علب المحفوظات ازدهار الحديد الابيض (التنك) الذي ليس سوى حديد ملبس بطبقة رقيقة من القصدير . واستخدم البورق لبرنقة الزجاج وطلي الخزف الصيني والتصوير . وتمت كذلك تقنيات خاصة سيقوم لها التحليل بالمجرى الكهربائي عوناً كبيراً ؛ وهو هذا التحليل ، بصورة خاصة ، ما سوف يحقق آمال « وهلر » و « بونسن » و « سانت كلير دفيل » باتاحته تحليل الألومين . ولكن اذا استثمرت أوروبا ثرواتها خير استثمار ، فانها لا تستطيع مقارنة مواردها من النحاس والرصاص والنكل بموارد اميركا : وليست جزر (كاسيتريد) المعاصرة من بعد قائمة على مقربة من شواطئها بل في ارخبيل الـ « سوند » .

بين الاملاح ما زال ملح الطعام ، المقوي والمدر للبول ، والضروري للانسان والحيوان ، يستخرج من الملاحات الساحلية ومناجم الملح . وليست هذه المادة ما افتقرت اليها أوروبا . ولكن الحاجة مست الى املاح أخرى في الزراعة ومن أجل خصائصها الصناعية . فأوجد « ليبيغ » في « جيسن » و « جان باتيست دوما » ، و « جلبير » و « لوز » من بعدهما ، الكيمياء الزراعية ، مع ان المزارعين ما زالوا يفضلون الأسمدة العضوية على انواعها : الدمن والاشنة ومقذوفات البحر والغوانو . وقد غذى هذا الأخير ، الذي ليس سوى فوسفات كلسي تكون من دبوقاء الطيور ، تجارة كبرى خلال نصف قرن في كافة ارخبيلات المنطقة الحارة ، لا سيما وأن استثمار جزر « شنشا » في « بيرو » قد استمر منذ السنة ١٨٣٠ حتى السنة ١٨٧٥ . ثم اكتشفت أهمية املاح الفوسفات الموجودة في بعض الصخور اما بشكل عقد أو بعر الشيطان ، واما بشكل حجارة طبشورية فوسفورية . وفي الوقت نفسه لفت الانتباه إلى شواطىء اميركا الجنوبية نفسها ملح البارود الذي صنع منه عمال المناجم بارودهم والذي كان من شأنه انتاج سماد ازوتي من النوع الجيد . وبسرعة ذاعت شهرة هذه الاملاح ، فاستفاد الشيليون من الحرب المعروفة بحرب الباسيفيكي في ١٨٧٩ – ١٨٨١ وانتزعوا من « بيرو » و « بوليفيا » المناطق الغنية بنتراث السوديوم في جوار صحراء « اتاكاما » . ومن جهة ثانية وفر الملح الطبيعي المعروف بال « كاينيت »

والمركب من سلفات المغنيزيوم وكلورور البوتاسيوم ، الاشنان للزراعة الأوروبية المتقدمة ، ثم توفق « جوزف فوغت »، اثناء بحثه عن الفحم الحجري في السنة ١٩٠٤ ، الى اكتشاف كلورور البوتاسيوم الطبيعي في الالزاس العليا .

امبراطورية الكيمياء الواسعة الاطراف

كانت نتيجة توسع المناجم أن الغرب امتلك مواد خاماً وفيرة ومتنوعة جداً تطلبتها عبقريته الصناعية وتفتحت في تحويلها. وقد سلكت في ذلك طريقين .

فان الكيمياء قد اشتركت اشتراكاً فعالاً في المعركة من أجل الحياة وغدت عاملاً قوياً من عوامل الموت . حاربت الأمراض التي تصاب بها الانواع النباتية كالكرمة، وحفظت المأكولات (حين حقق « شارل تليبه » – بعد « جاكوب بركنس») – التبريد الاصطناعي بواسطة روح الحوامض الخشبية والكلورور الكلسي ، قامت السفينة « البراد »في السنة ١٨٧٦ برحلتها الأولى ذهاباً وإياباً بين اميركا الجنوبية وأوروبا)؛ وحسنت عملية التخمير واشتركت في اعداد الجعة. وساعدت على مزج الخمور بسوائل أخرى وعلى غشها أيضاً ؛ ووسعت نطاق الانبيق والكحول التي تعاظم استهلاكها تعاظما مخيفاً ، والتي صلحت ، اذا ما أفسدت ، للتدفئة والانارة والصباغة وصناعة البرنيق على اختلاف انواعه. ومن بين فروعها الأولى انتاج الحامض الكبريتي الذي لعب دوراً رئيسياً في صناعة الأسمدة الفوسفاتية والقلى والمواد الملونة والعطور والمتفجرات ، والذي صنع بواسطته الحامض الأزوتي والحامض الكلوري. يضاف إلى ذلك أن صناعة القلى قد تجددت بالطريقة المرتكزة الى محاول النشادر التي احكمها « سولفاي »و « شلوسنغ » : وأن هذا الملح قد أعطى ماء(جافيل) بامتزاجه بالكلور؛ وصلح للتبييض اذا ما أضيف اليه كبريت أو كربونات؛ واذا ما أضيف اليـــه البيكربونات سهل الهضم واختار العجين واشترك في تركيب معجون « بوردو »لمكافحة طفيليات الحدائق، واذا ما أضيف اليه حامض البور أصبح مطهراً واستخدم في صناعة الجلود الرقيقة . واذا ما عرف الكيميـــائي كيف يحسّن توشية النسائج (انتقلت التوشية من لونين في النسائج الهندية والنسائج القنّبية في السنة ١٨١٣ الى ٨ بفضل « كوشلين » في السنة ١٨٥٦ والى ٨٥ في السنة ١٩٠٠) ،فانه لن يلبث أن يبتكر العديد من الألوان بفضل « رونج » و « باير ». ولكنه بانتظار ذلك سيبتكر ، بمجرد إضافة الكـــافور الذي يخفف من الخصائص التفجيرية التي يتميز بهـــا السلولوز الازوتي ، والسلولويد الذي صنعت منه الامشاط واطواق القمصان واطراف الاكمام (هذه هي البياضات الاميركية) ، والذي حل محـل القشرة والند، والذي استخدمه «ايستمن » في صنع الأفلام الفوتوغرافية . ثم ان تثبيت الصور بواسطة الاملاح السريعة التأثر بالنور قد أحرزت نجاحات عظيمة جداً .

اودع الانسان فكره الورق اكثر فاكثر يوماً بعديوم. فجاءت الكيمياء عوناً له بواسطة المعجون الخشبي الذي عالجه بالكلور والقلى والاشنان والنشادر. وفكر « مونغولفييه » بخشب الزيزفون؛ وفي السنة ١٨٦٠، عند الساعة الخامسة مساء، خرجت « الصحيفة الاميركية الشمالية » من المطبعة

بينها قطعت شجرة الحور التي ضحي بها من اجلها في الساعة العاشرة من صبيحة النهار نفسه .

« ولكن الانسان يحارب الاحراج الهادئة ...»

(« اغان واناشيد » ا « فيكتور دي لابراد »)

قبل الولاعة الفوسفورية ، مثل الثقاب خير نجاحاته في اشمال النار : جمع بين مفاعيل الكبريت والفوسفور وبين الخشب ، بعد ان اقترحه « رومر » « وبريشل » في النمسا ، فحسنه « لوندستروم » و « جونكوبنغ » . فبدأ القرن الثامن عشر ، الذي لجأ ابداً الى ضرب الصوانة بمدن لاشمال الصوفان وكأنه ، بالمقارنة ، اقرب الى العصور الاولى . وكان غاز الانارة موضوع رضى لسكان المدن ، فتقدم تقدماً حثيثاً سهله ليس صنبور « اوير » فحسب بل مضرم « بونسن » ايضاً . وتوجب على الشمعة الشحمية ان تحسب حساباً للاسيتيلين ولا سيا للمصباح البترولي الذي بدا عملياً واقتصادياً . وفرض الهيدركاربور نفسه بصورة مفاجئة في اعقاب احكام الاجهزة المزودة بالفتيل التي يصعد فيها الزيت بفعل الخاصية الشعرية ؛ ولكن لنجاحه تفسيره في نجاحات استخراجه وتقطيره : فان حمى البترل التي انتابت اميركا غداة الاستبار الذي اجري في السنة ١٨٥٩ في « تيطوسفيل » على يد الكولونيل درايك – الاندفاع نحو « اوهايو » – قد رفعت الانتاج من ٣٠٠٠ هكتوليتر في السنة الاولى الى قرابة ٤ ملايين منذ السنة ١٨٦٥ . وبينها تأسست شركات قوية لاستثمار هذا المصدر غير المرتقب للثروة ، واجه بعضهم الطاقة الحرارية ، وبالتالي مصدر القوة الفاعلة ، التي قد يوفرها هذا الوقود السائل اذا ما ابتكر محرك موافق .

تباشير الكهرباء الجديدة

لا شك في ان المستقبل يخبىء في طياته تهديداً للبترول كعامل انارة بفعل نجاحات الكهرباء . فـان « بلانتيه » قـد اخترع المركم ، و « غروف » فكر بأول مصباح كهربائي ، و « رايت » استحصل على شهادة اختراع قوس كهربائي توفق « فوكو » الى تطبيقة عملياً بعد حين : كان كل ذلك مجرد تباشير . ولكن الجدة المشجعة تحققت في السنة ١٨٦٩ حين وفر «غرام» بدينمه تياراً قادراً على تغذية المصدر الضوئي . ثم حقق « جابلوشكوف » شمعة من الفحم المركوم . اما المصباح الكهربائي الاول المضيء في الفراغ فيجب نسبته الى « سوان » . ولكنه لم يضىء سوى برهة قصيرة . فأخذ اديسون يبحث آنذاك عن خيط ثابت ؛ وفي سبيل الحصول عليه اوفـد البعثات الى كافة الجهات ، وبعد ان امتحن الخيط القطني ونشارة الصنوبر وشعر اللحية ، استقر اختياره على نوع من الخيزران الياباني . ثم جاءت السنة ١٨٧٩ : فاحدث الاكتشاف ضجة كبرى . وقامت اول شبكة توزيع منذ السنة ١٨٨٢ في نيويورك ؛ ثم أنشىء صف انوار في مقدم اوبرا باريس ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ، كان بالامكان مقارنة اضاءة « مبنى عام بمعدل ١٦ شمعة في المتر المربع باضاءة « رواق المرايا » التي لم تعط سوى ٢٫٥ فقط . ولكن الشوط لم يبد خاسراً ، لا بالنسبة للغاز الذي كان اقـل كلفة ولا للمصباح البترولي الذي كان اكثر ملاءمة للمساكن الوضيعة والارياف .

جهز « برجيس » اول شلال مائي في السنة ١٨٦٩ فولدت الكهرباء المحققة شعوراً قوياً بأن

obeikandl.com

التيار الذي سينتج سيكون وفيراً . وجاء التلغراف والهاتف الكهربائيان نمطين ثوريين لنقل الفكر . وشق التحليل بالمجرى الكهربائي ، في الوقت نفسه ، الطريق امام تحويلات عظيمة في المادة : وبحسب الطريقة التي اشار اليها « ارنست – ورنر سيمنس » ، استخدم « هـــول » في اميركا و « كيلياني » في المانيا و « هـــيرو » في فرنسا فرناً لاذابة معدن الالومينيوم بواسطة القوس الكهربائي ؛ ثم طلع « مواسان » بصناعة الكربورالكلسي ومركبات الحديد والمعادن الاخرى . ولن يلبث الشرر، الذي يشعل امتزاجاً غازياً قابلا للاحتراق ، ان يولد المحرك المني على هذه الظاهرة : وهكذا فان الكهرباء ستسهم ، بمغالطة غريبة ، في فتح آفاق وامكانات جديدة امام البترول .

الهجوم الآلي

لقد افضى كل شيء الى انتصار الآلة التي بدت وكأنها لا تعرف الكلل وتتفوق على الانسان تفوقاً كبيراً بالسرعة وبمزيد من الاتقان والدقة في اغلب الاحيان . ففي السنة ١٧٧٦ كان عشرة اشخاص ينتجون ٤٨٠٠٠ دبوس : فجاءت الآلة ، بعد مـــرور مئة سنة ، تنتج ١٨٠ دبوساً في الدقيقة اي ما يعادل مليونين بالنسبة لهؤلاء العمال العشرة . وفي الولايات المتحدة انتج عامل النسيج ٩٦٠٠ يردة من النسيج القطني في السنة ١٨٤٠ خلال ١٣ساعة عمل في اليوم؛وفي السنة ١٨٨٠ بات ينتج ٣٠٠٠٠٠يردة خلال عشر ساعات عمل في اليوم.وبينما كانت امهر عاملات صناعة الجوارب تنجز بين ١٥٠ و٢٠٠ عقدة في الدقيقة،انجز النول المستقيم ٥٤٠٠ ، والنول الآلي ٤٥٠٠٠ ، والنول المستدير ذو الابر المتصلة حتى ٤٨٠٠٠٠ .وبواسطة آلة « ماك كورميك » الحاصدة التي يجرها حصانان ، جمع المزارع الاميركي سنابل سبعة هكتارات بينما لم يستطع فلاحان اوروبيان ، في الوقت نفسه ، حصد اكثر من هكتار واحد .

تطلبت الآلة وقتاً للعمل منظماً بكل دقة . وباستطاعتنا تحـــديد السنوات ١٨٥٠ – ٦٠ تاريخاً لانطلاق صناعة الساعات صناعة منسقة ، وهو فيلبس من احكم زنبرك الـــرقاص في السنة ١٨٦١ .

« ايتها الساعة ! الاله الناحس ، والمخيف ، والعديم الاحساس ... »
« بودلير »

حققت الآلة اكثر الاشغال دقة ، فانتشرت انتشاراً عظيماً ، سواء في اعمـــال الخشب (آلات النجر والنشر والتفريض والتلسين) ام في اعمال المعادن (المخارط،والمثاقب،والمناشير المتصلة الاطراف ، والمثاقب اللولبية) . وقد احكم « هويتوورث » دقتها بعد « مودسلي » و « كليمان » .

حافظ القطن ، بين النسائج ، على تقدمه التقني . فاعتمدت آلات غازلة جديدة ، نـول « روبرتس » الذي عمل آليـــا ، والنول المستمر الحـــركة الذي ابتكره « بار كورتيس » و « مادسلي » . وارتفع عدد الصنانير في النول الواحد من ٣٠٠ او ٤٠٠ الى ١٢٠٠ . وازدادت كذلك سرعة المكوك في الحياكة . وبشر النول الآلي ، الذي ابتكره الاميركي « نورثروب » ،

بتغييرات هامة جداً : فاللحمة تستبدل آلياً حين ينقطع احد الخيوط، وباستطاعة حائك واحد ان يراقب لا آلتين فقط او اربع الآت بل حتى ٤٠ و ٥٠ آلة. أجل، لن تعرف آلة « نورثروب» في اوروبا قبل السنة ١٩١٤ . ولكن الانتاج في الساعة قد تحسن في كل مكان (ارتفع خلال قرن في بريطانيا من ١٠ الى ١٠٠ في الغزل ومن ٤ الى ١٠٠ في الحياكة) . وزودت صناعة الغسل بآلات تؤمن عمليات التقصير والمضمضة والتنشيف والتنظيف الكيميائي. وكانت آلة التطريز مصدر ثروة لـ « سان غال » ؛ كما ان آلة « بوناز » للخياطة والتطريز ، التي اخترعت في السنة ١٨٦٣ ، قد استعملت لصنع الالبسة والاثاث ، ونول « موشليه » واقسى تخريم النسيج الدقيق . فانتشرت آلة الخياطة انتشاراً سريعاً وتحسنت، تحسناً مطرداً، فاحتلت المركز الاول في صنع الالبسة . واستخدمت الآلات في خياطة القفافيز وتثبيت العقب وخياطة الساق وجمع وجه الحذاء والنعل . وتوفرت لصناعة الفراء احهزة تدلك وتصقل .

واذا ما زال الحجر ينحت باليد ، فان الانسان قد استخدم آلات لرفع الاثقال ؛ وجلب الى مراكز عمله القراميدوالآجر والانابيب المصنوعة كلها آليا بواسطة الطواحين الهارسة والكسارات المبعدة عن المركز والمخارط . وفي صناعة الزجاج وفرت الناقلة الآلية على العامل الاقتراب من الفرن ؛ وقضت الآلة النافخة على طريقة استخدام القصب المثقوب الذي كان ينفخ فيه بالفم .

وجاء انتصار الآلة كاملاً في صناعة الورق . فقد استخدم « مونغولفييه » ، في هرس الخرق الرثة ، الآلة العاجنة المخترعة في اميركا ؛ واكتملت اجهزة صناعة الورق بالة تقطيع الخرق وآلة رفع المعجون ومنظم الحركة وجهاز التصفية والمساطح . وكان الحدث الاكبر في حقل الطباعة ظهور الالة الدائمة الحركة التي احكمت شيئاً فشيئاً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٥ بفضل استخدام الصفائح المستديرة والوشيعة التي تطبع الوجه والظهر: فبينما لم يطبع سوى ٨٠٠٠ طلحية في الساعة وعلى الوجه فقط في السنة ١٨٤٥ اصبح بالامكان طبع ٩٦٠٠٠ طلحية من ١٢ صفحة في السنة ١٩٠٠؛ ولم تؤمن الآلة الاسطوانيه الدائمة الحركة طي الطلاحي فحسب ، بل جمعها حزماً من ٥ و ١٠ او ١٥ طلحية بحسب المراد .

والى السنة ١٨٦٧ يعود تحقيق الآلة الكاتبة الاولى على يد الاميركيين « شولز » و« دنسمور» اللذين اشترى (رمنغتون) شهادتيهما . ولكن طموح الآلة بلغ حد منافسة آلات الطرب نفسها أو اقله حد تسجيل الاصوات : وهذا كان الهدف من الحاكي (الفونوغراف) الذي ابتكره اديسون في السنة ١٨٧٧ .

فهل كان من أمل في تحقيق نتائج على مثل هذة الأهمية في انتاج المواد الغذائية يا ترى ؟ انه لجلي أن الآلة الزراعية أعجز من أن تنظم هذا الانتاج على غرار الآلة المستخدمة في الصناعة ، ولكن من شأنها تلافي نقصان السواعد والمساعدة على فتح مساحات جديدة ما كانت الزراعة بدونها لتنتزعها من الطبيعة الغامرة . وهكذا فقد امتدت إلى أرضها المختارة في اميركا

الشمالية حيث نستطيع ملاحظة تقدمها في عهدين ثلاثينيين : عهد الآلة الحاصدة ابتداء من السنة ١٨٥٥ ، وقد عقب عهد المحراث الحديدي ، ثم عهد الحاصدة الرابطة . ويجب هنا ان نعترف لـ « ماك كورميك » بفضله الأول في تحقيق حركة اسنان المنشار تناوبياً . وقد سهلت المسلفة استخدام المبذر الآلي فغدت تتدحرج وتدور وتهرس ، بينما جمع المحراث في هيكله حتى أربعة اجهزة حارثة . وأتاحت الآلة الدارسة ، الكندية الأصل ، التي ادارها فريق من ستة رجال ، درس ١٥٠ هكتولتراً بينما لم يستطع الرجل الواحد درس أكثر من ٣ بواسطة المدقة . وفي صناعة الطحين التجاري تخلى الرحاعن مركزه لمسحق مستديرمن الحديد المصبوب المسقي؛ ونُظف القمح بالنساسيف والغرابيل ، ونخل الطحين بالمناخل. واذا تأخر اعتماد المعجن الآلي في صناعة الخبز، فان الآلة قد لعبت دوراً هاماً في صناعة البسكوت والمعجونات الغذائية،ومعامل التصفية ، وصناعة الشوكولاتا. وفي المسالخ جزرت الآلة الحيوانات ونظفتها بالفرشاة وأفرغتها وقطعتها وملحتها . وفي المزرعة أخذت آلة مبعدة عن المركز تحل محل المخضة ، ودخلت مصنع الالبان مفرزة الكشأة الدائمة الحركة .

لا يعني ذلك أن التيار كان عارماً لا يقاوم ، وأن طرائق العمل القديمة كان محكوماً عليها بالزوال في كل مكان. فكل ما حصل هو أن التضاد قد أتضح وبرز بين مهنة واخرى وبين بلد وآخر . ويجب ألا ننسى من جهة أخرى أن المسألة غالباً ما كانت مسألة دفع إلى الامام . فبالإمكان مثلاً تسيير الآلة الدارسة بساعد الانسان ، أو المدورة ، أو البخار ، ولكن ما هو المحرك الذي يجب استخدامه في العاجنة الآلية ؟ وكيف يجب جر الالة الزراعية ؟ وفي هذه الحال الأخيرة ما زال الحصان مفضلاً على القاطرة البخارية التي عرضت منذ السنة ١٨٥٠ .

أكب القرن من ثم على زيادة قوة الجهاز الحراري: فخفف ضرر نقاط فقدان مفعول مكبس المحرك في سيره ، وحد من التخثير في الاسطوانة ، وزاد مساحة الاحماء ، ولجأ إلى الانفجار المزدوج والثلاثي وحتى الرباعي بواسطة الطريقة المركبة . ولكن هذا المحرك ما زال ثقيل الوزن ، كبير الحجم ، متوسط الفعالية بالنسبة للوقود المحرق . وعلى الرغم من ذلك فقد قدر بعضهم أنه أدى لأوروبا واميركا ، حوالي السنة ١٨٩٠ ، عملا يوازي عمل مليون عبد .

تباهى ذاك العهد بتحقيقاته ، فطاب له تعدادها واظهارها . ففي السنة ١٨٥١ جمعت
المعارض لندن ١٧٠٠٠ عارض في قصر البلور حيث أحل « باكستون » ، في مساحة تبلغ ٩ هكتارات ، الحديد والزجاج محل الحجر والقرميد ، وفي السنة ١٨٥٥ ، قام في باريس قصر الصناعة مع « رواق للآلات » تحرسه أربع قاطرات صنعت على شكل أبي الهول. وفي كل عرض جديد توسع نطاق المعرض وتعاظم الاقبال . وعلى غرار لندن التي دعت العالم في السنة ١٨٦٢، وجهت اليه باريس الدعوة في السنة ١٨٦٧ لزيارة قصر الـ « كوليزيه » المظيم ذي الاروقة الدائرية السبعة التي كان أحدها « رواقاً جديداً للآلات » : فكتب « هوغو » : « هذا هو الميثاق السلمي

openkanz.com

العظيم » . وفي السنة ١٨٧٣ أقامت فيينا معرضاً في إطار الـ« براتر » ، وليون في إطار «الرأس الذهبي » ؛ وفي السنة ١٨٧٦ أقيم معرض في فيلادلفيا التي جعلت منه احتفالاً بالذكرى المئوية للاستقلال الاميركي ؛ وفي السنة ١٨٧٨ ، أقيم معرض جديد في باريس التي شيدت الـ « تروكاديرو» وعرضت المصنوعات الخزفية . ثم أقيمت المعارض على التوالي في « سيدني » ، و « ملبورن » ، و « امستردام » ، و « انفرس » ، و « اورليان الجديدة » ، و « برشلونة » ، و « بروكسل »، وشيكاغو التي أحيت في السنة ١٨٩٣ ذكرى اكتشاف كولومبوس لاميركا . ولكن اعظم المشاهد كانت المشاهد الباريسية بمناسبة الذكرى المئوية للسنة ١٧٨٩ ، والاحتفال بنهاية القرن الرسمي في السنة ١٩٠٠ : فقصدها الزائرون بعشرات الملايين للتمتع برؤيتها . « ان السنة ١٩٠٠ ... سوف تكون نهاية قرن كامل من الجهود المدهشة في حقلي العلم والاقتصاد »، كما جاء في مرسوم صدر في السنة ١٨٩٢ . «وسوف تكون كذلك عتبة عصر يتلبأ العلماء والفلاسفة بعظمته وستبلغ وقائعه حيث لم تبلغ احلام مخيلاتنا في الارجح ... فمعرض السنة ١٩٠٠ سوف يشكل تأليف القرن التاسع عشر ويحدد فلسفته » .

وسواء كانت المعارض شاملة أو دولية ، فانها توزّن السير الظافر للحضارة الصناعية

الفصل السابع

الانطلاقة الكبرى لوسائل المواصلات في عهد البخار

انتصار الخط الحديدي

ان حلم سان – سيمون باحتلال الكرة الارضية بواسطة الخط الحديدي قد تحقق ما بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ : نصف قرن كان جديراً باسم « عصر الخط الحديدي » الذي اطلق عليه . ولكن الجـر على الخطوط الحديدية بقي عمل الغرب بصورة خاصة . ففي السنة ١٨٦٠ تقاسمت اوروبا والولايات المتحدة ، بما يقارب التساوي ، ٠٠٠ ١٠٨ كيلومتر ، بينما لم يتجاوز طول هذه الخطوط في اجزاء العالم الاخرى الـ ٠٠٠ ١٥ كيلومتر ؛ وفي السنة ١٩١٠ كان نصيب الولايات المتحدة ٠٠٠ ٣٨٠ واوروبا ٠٠٠ ٣٣٠ من اصل مليون كيلومتر ونيف في كافة انحاء العالم .

لقد جند بناء الخطوط الحديدية رؤوس اموال عظمى وافضى الى ولادة اجهزة خاصة قوية ، حين لم تتولّه الدولة مباشرة ، والى قيام اشغال عظمى . ودفع كذلك بصناعة المعادن ، واضفى على الآلة البخارية كل رونقها ، وكثّر الاعمال الفنية .

ان الخط الحديدي ، الذي اخترق الارياف ، قد استلزم تسوية ترابية متينة ، وقد صنعت العوارض من خشب السنديان الذي حفظ من الفساد بحقنـه بالكريوزوت او بكلورور الزنك . ثم حل الخط الفولاذي محل الخط الحديدي ، كما استعيض عن الجسر الحجري بالجسر المعدني .

وان في اختراق الجبال ما يثير الاعجاب في هذا المجال . ففي التسلق امتحان للبخار ، وفي فتح الانفاق امتحان للتقنية . وسوف يستخدم المـاس والمثقب المحرك بالهواء المضغوط للتغلب على الحجارة الصلبة ؛ وسوف يلبس الرواق بالحديد المصبوب لا بالخشب ، وتؤمن التهوية بواسطة الآلات الجاذبة الهواء او النافثة . وجاء تحقيق نفق « سنيس » مشجعاً جـداً من هـذا

القبيل على الرغم من ان المجاز الرواق على ارتفاع ١٣٠٠ متر وبطول ١٣٦٠٠ متر قد استغرق ١٥ سنة . وبفضل الخبرة المكتسبة ، تحقق نفق « غوتار » في عشر سنوات ، بطول ١٥٠٠٠ متر تقريباً ، بواسطة المثقب الآلي وبالرغم من عذاب العمال الذين اضطروا الى تحمل حرارة بلغت ٨٦ درجة مئوية . ثم فتحت الانفاق بالتفضيل في اسفل الجبال (نفق سمبلون سيفتح على ارتفاع ٧٠٠ متر) ، فصرف النظر رويداً رويداً عن النفق في المرتفعات، كنفق «سمرنغ» الذي فتح منذ السنة ١٨٥٤ بعد ١٤ نفقاً ثانوياً و ١٦ جسراً .

فلم يلبث النفق من ثم ان بدا افضل من الجسر لاجتياز الانهار العريضة والاقسام المستطيلة الضيقة من البحر . فحفر الانكليز نفقي « مرسي» و «سفرن» (طول هذا الاخير ٧ كيلومترات) والاميركيون نفق « هدسون » . ولكن العقبة السياسية حالت دون تنفيذ مشروع اتصال تحت مضيق « با ـ دي ـ كاليه » ، كما ان الاتصال بين شبه الجزيرة السكندنافية والمانيا قد تم بواسطة سفن خاصة مجهزة بخطوط حديدية لنقل القطار ، بين « ساسنيتز » ، « روغن » و « مالمو » .

احرزت القاطرة تقدماً حاسماً منذ ان فكر المهندس الانكليزي بين « كرامبتون » بوضع العجلات المحركة في مؤخر مسخن البخار لا تحته ، وهي عجلات مترابطة اثناء تتناقل حركة دورانها . وفكر النمساوي «انغرت»، للخطوط السريعة الانحدار ،والفرنسي «بتييه»، لقطارات نقل البضائع ، بأجهزة محكمة خاصة . فارتفع الوزن شيئاً فشيئاً من ٢٥ و٣٠ طناً الى ١٥٠ طناً ، فاستطاعت القاطرة جر مقطورات يبلغ وزنها ٢٠٠٠ طن . واستعيض عن المكبح اليدوي القديم بالمكبح الآلي او المائي او المكبح العامل بالهواء الخفيف الكثافة او الهواء المضغوط . وأحكم تسيير القطارات البخارية التي تسير بالحبال على منحدرات الجبال (في ريغي وبيلاط ، في جبال الالب ، وفي جبل واشنطن ، في اميركا) . ووفر الابراق الكهربائي عوناً مفيداً لنقل الاشارات . كما اتاحت العربة السهلة التوجيه للمقطورات السير في منعطفات الخطوط واطالة القاطرة والمقطورة .

باتت المقطورة اكثر راحة . فأنيرت بغاز زيت المنضد بعد ان كانت تنار بزيت السلجم . ثم أجريت محاولة إنارتها بالكهرباء على خط « لندن » ـ « برايتون » . وتمت التدفئة بواسطة مساخن يغذيها البخار . وبسبب المسافات بنى الاميركيون مقطورات للنوم مع منتفعاتها ومقطورات للاستقبال وحتى مقطورات فخمة استطاعت العائلات الثرية بواسطتها الانتقال دون ان تخالط المسافرين الآخرين . وجهزت القطارات التي تصل دول العالم الجديد بجسور ضيقة تتيح التجول بين مقطورة واخرى اثناء سير القطار . وفي السنة ١٨٨٠ اضيفت الى قطار خط الباسيفيكي مقطورة تحتوي على مطبعة اصدرت فيها صحيفة يومية تنشر الاخبار الواردة برقياً في المحطات . وازدادت السرعة ازدياداً مطرداً . فمن معدل ٢٨ كيلومتراً في الساعة حوالي السنة ١٨٥٠ ارتفعت الى ٧٤ في انكلترا و ٥٩ في اميركا في السنة ١٨٨٠ . وبعد انقضاء

عشر سنوات تجاوزت سرعة القطار بين نيويورك و « بوفالو » ١٠٠ كيلومتر في الساعة . كما أن السفر من باريس الى مرسيليا لم يعد ليستغرق سوى ١٤ ساعة . وفي نصف قرن انخفضت الكلفة الى نصفها وحتى الى ثلثها بحسب البلدان .

اذا استثنينا بريطانيا العظمى وبلجيكا وجزءاً من المانيا ، لرأينا ان الخطوط الحديدية لا تؤلف شبكات في بلاد اخرى قبل السنة ١٨٦٠ . اما في فرنسا فان الاتصال بين باريس وحدود الحدود الكبرى او الموانىء فقد بدت تباشيره في الافق . وقد بذل الجهود الكبير في هذه البلاد في عهد الامبراطورية الثانية واوائل عهد الجمهورية الثالثة . فارتسمت حينذاك بوضوح في اوروبا الغربية شبكة خطوط حديدية هامة تقع الى الشمال من جبال « البيرينيه » والـ « ابنين » وجبال الالب الشرقية . ولم تشمل هذه الشبكة شبه الجزيرة الايبيرية والسوق الايطالية والبلدان الواقعة الى الشرق من خط الطول المار بـ « دانزيغ » و « بودابست » ؛ ولكن ايطاليا الشمالية استفادت منها بفضل الانفاق الالبية . وأخذت سويسرا تلعب دور الانطلاق في وسط اوروبا . وبينما اتصل الغرب بالنمسا بواسطة نفق « ارلبرغ » ، نرى النمسا ، التي حققت نفق « سودباهن » على طريق تريستا ، تمدد شبكتها نحو الدانوب الشرقي والبلقان وتتصل بالقسطنطينية وتصل اوروبا الوسطى بالشرق الادنى .

وفي اميركا الشمالية لم يطرأ على البناء اي توقف . فهي الولايات المتحدة ما وضعت في السنة ١٨٦٩ اول شريط معدني يصل بين الاوقيانوس والآخر . انها لفكرة جريئة اخرت الحرب الاهلية تحقيقها ، على الرغم من ان الاعمال ، التي تقررت منذ السنة ١٨٦٢ ، قد شرع فيها في السنة التالية . وقد اشرف القائد « غرنفيل م. دودج » على هذا المشروع اشرافه على حملة عسكرية : فجند اليد العاملة في « الغرب الاوسط » من بين الجنود المسرحين والمهاجرين الايرلنديين واستخدم الصينيين في كاليفورنيا . وقد واجه عقبات كثيرة اهمها الهنود — وقبيلة « سيو » بصورة خاصة — ونواتىء الارض وفقدان اليد العاملة ، ولا سيما التنافس بين شركة « الاتحاد الباسيفيكي » و « الشركة الباسيفيكية المركزية » اللتين كان على حكومة الاتحاد ان تفصل في خلافاتهما . زد على ذلك ان المنحدرات كانت سريعة والجسور خشبية ، والسرعة محدودة ؛ ولكن اكتمال العمل قوبل بحماس منقطع النظير ، وسوف تنجز خمسة خطوط هامة اخرى بين المحيط والمحيط ما بين ١٨٦٩ و ١٨٩٣ ، بما فيها ذاك الذي انشأته الحكومة الكندية بين « هاليفاكس » و « فانكوفر » مروراً بـ « كيبيك » بغية تحقيق ضم كولومبيا البريطانية الى ميثاقها الاتحادي .

وجاء الجهود الروسي مماثلا ، وان متأخراً ، بمساعدة رؤوس اموال الغرب على كل حال ، وبغية توسع نحو الشرق الآسيوي يقابل التوسع الذي قاد الولايات المتحدة وكندا حتى الباسيفيكي . فأنجز الخط القزويني اولاً ، الذي سوف يكمله الخط الارالي في السنة ١٩٠٥ ، وهو اقصر من الاول واكثر استقامة : وهذان الخطان هما في آسيا الوسطى شبيهان بالخطين المارين في الصحراء

الافريقية . وبدت الصعوبات في سيبيريا ادهى منها في اميركا : طبقات ارضية متجمدة او تسرب مياه اثناء ذوبان الجليد ، وانهيار عريضة يخب اجتيازها ، ومسافات شاسعة ، وكثافة سكان متدنية جداً ، يضاف اليها نواتىء جبال « بايكال » المستعصية . ولكن الطرق المعبدة للخيل لم تعد لتفي بالحاجة امام الاستعمار المتوقع والمستقبل المنشوري . فشرع اذن في اطول خط حديدي في العالم منذ السنة ١٨٩١ وصل الى « فلاديفوستوك » في السنة ١٩٠٢ بفضل اتفاق عقد مع الصين اجيز بموجبه اجتياز منشوريا الشمالية .

كان الخط الحديدي أداة توحيد جلى لاميركا الشمالية وللامبراطورية الروسية . وقد خدم كذلك الشراكة الجمركية في الدول الالمانية ، وعرف الريخ البسماركي خير معرفة ما هو مدين له به ، فلم يتركه في ايدي الافراد . وفي ايطاليا ايضاً كان عوناً لاسرة « سافوا » على إرساخ سلطتها ، فجمعت حكومة روما الشركات الخاصة واشترتها . ولكن الشركات الخاصة ما زالت تتقاسم الارض الفرنسية ؛ تلك هي الشبكات الست ، ولكنها اتجهت كلها الى باريس باستثناء شبكة الجنوب . ومنذ السنة ١٨٥٣ ، وضع اللورد دالوزي تصميماً لشبكة هندية تكون خير صلة بين بلدان وشعوب غير متلاحمة وربما خير وسيلة لارساخ السيطرة البريطانية .

نبض الخط الحديدي بطاقة كبرى وكاد يتمخض بخلق الامم ، وكان بالاضافة الى ذلك قادراً على اصدار احكام بالموت . فكان ممكناً ان يتسبب في الاضرار بالطريق المائية وحتى ان يقضي على بعض التجارات (سيكون الخط المنشوري سبب زوال قوافل نقل الشاي التقليدية بين بكين وسيبيريا) . ولكنه احيا المقايضات التي ادارها ، والمشاريع التي استخدمته ، والمناطق التي اجتازها وانتهى اليها . وقد نقل بين ٤٠٠ و ٥٠٠ مليون مسافر وبين ٢٠٠ و٣٠٠ مليون طن من البضائع حوالي السنة ١٨٥٠ ، و ٤ مليارات مسافر و ٥ مليارات في كل من السنوات ١٩٠٥ - ١٩٠٧ .

سباق الطرق البرية ودفاع الطرق المائية

على الرغم من مقاومة يائسة ، كان على نقل البضائع بالعجال ان يعترف بخسران قضيته حيثما مر الخط الحديدي . فكانت الضربة قاسية للطريق البرية التي توجب عليها من ثم تحديد اطماعها فلن تكون بعد اليوم سوى رافد الخط الحديدي وتكون سعيدة اذا ما اتصلت بمحطة القطار الحديدي وحافظت على وظيفة توزيع ما ينقله القطار. كانت كافية للعربات والمشاة والدراجات. ولكن اذا لم تتوفر المصلحة القديمة للنقل البري ، فغالباً ما لا يكون هنالك شيء البتة . اما الطريق الزراعية فقد استفادت من النشاط التجاري الذي أغنته الخطوط الحديدية ، وتحسنت .

واذا ما أبدت الطرق المائية بعض المقاومة في ظروف أفضل ملاءمة ، فمرد ذلك الى انها كانت تتقاضى اجور نقل أقل ارتفاعاً بالنسبة للوزن. وما زال الجدل قائماً بين انصار كل من طريقي النقل المذكورتين . اما الحقيقة فهي ان النقل المائي يتقهقر اذا ما اعتمد معدات واجهزة

قديمة العهد . ففي انكلترا مثلاً اشترت شركات السكك الحديدية وسائل النقل المائي ، وفي فرنسا كادت الملاحة تتلاشى في بعض الاقاليم كالـ « لوار » والـ « آلييه » ؛ ولكن الرأي العام أقلقته قوة أسياد الخط الحديدي ، ومنذ السنة ١٨٧٣ ، كرس اكثر من مليار فرنك لاعادة انشاء وتوسيع شبكة يكون مركزها في المناطق الصناعية الشمالية والشرقية .

أحست المانيا بحماس حقيقي للملاحة الداخلية . فاستخدمت ما استطاعت الى ذلك سبيلا الطرق الطبيعية الممتازة التي تؤدي الى بحر الشمال وتؤمن المواصلات بين مختلف مناطق رينانيا ، ولكنها نظمت كذلك تموين برلين بالخامات وجعلت منها مركزاً صناعياً من الدرجة الاولى . وكان الشريان الكبير الذي يشكله نهر الرين موضوع عناية يقظى : سدود في حوض « كولونيا » تقويم منعرجات ، وتنظيم مجرى في الوادي الضيق وما قبله من جهة البنبوع ، وحفر احواض بالغة الاتساع في المرافىء التي جارت المرافىء البحرية من حيث محمول السفن ؛ والمخفاض أجور النقل المخفاضاً جعل النهر ينظم ويحرك ويقلب تيارات مقايضة كبرى ، ويجتذب المؤسسات الصناعية ، ويسهم في ازدهار الـ « رور » وكافة انحاء المانيا الغربية ، ويتحكم برقعة واسعة تؤلف سويسرا جزءاً منها ، ولم تتجاهلها بريمن وحتى همبورغ ، وتنازعتها كذلك المرافىء البلجيكية والهولندية . واذا كانت قناة « دورتموند » — « امس » مخيبة للآمال ، فقد ارتسمت الخطوط الكبرى لطريق نهرية كبرى تصل الغرب بالشرق .

ولم يكن تجهيز الحوض الدانوبي اقل فتنة واغراء . ولكن انتاجية الاعمال كانت اقل شأناً . فبعد أن توفقت معاهدة باريس ، في السنة ١٨٥٦ ، الى تحرير النهر من كل عائق سياسي ، تنظم الامن فيه بوثيقة ملاحة وتولت الملكية النمساوية الهنغارية تنظيم تدفق مياهه ؛ وتحول الانتباه بعد ذلك الى مختنق « الابواب الحديدية » ومجاز « سولينا » اللذين يغلقان الممر الضيق العميق الماء الصالح للملاحة : والسبب في هذا التحول مرده الى اهمية النهر المتعاظمة لتجارة الحبوب .

استمر التضاد بين روسيا والولايات المتحدة المتشابهتين من حيث اهمية شبكة النقل الطبيعية فيهما . فقد فتحت روسيا قناة الـ « نيفا » وانجزت شبكة « ماري » التي كانت تكملة لطريق تبلغ ... ٤ كيلومتر بين بحر قزوين وبحر البلطيق . ولكنها لم تستخدم سوى ثلث انهارها ولم يتجاوز طول اقنيتها مجتمعة الـ ٨٠٠ كيلومتر ؛ يضاف الى ذلك ان نهر الـ « فولغا » الذي سار فيه اكبر عدد من السفن لم يتصل بالانهار الصابة في البحر الاسود . اما في اميركا ، فلم تعمق قناة « ايريه » القديمة تعميقاً مستمراً فحسب ، ولم تنظف مصاب الميسيسبي فحسب ، بل اصبحت البحيرات الكبرى بحراً داخليا حقيقيا تنشط فيه حركة نقل عظمى ايضا .

وقد امنت السفينة البخارية ، في البرازيل بواسطة الامازون ، وفي الصين بواسطة الـ « يانغ تسي » ، توغل التجارة الى مناطق شاسعة شبه خالية من الطرقات والخطوط الحديدية بمساعدة رؤوس الاموال الاوروبية اجمالا . كما انها سهلته احيانا بالاشتراك مع الخط الحديدي ، على النيل والكونغو و « البارانا » مثلا .

تفهقر السفينة الشراعية وتفوق السفينة البخارية

على غرار عربة المسافرين التي عرفت ذروة اكتمالها حين كان مقدراً لها أن تنحني امام القطار الحديدي ، كذلك بلغت السفينة الشراعية أوج عزها حين أخذت السفينة البخارية تقصيها عن البحار .

ان السفينة الشراعية السريعة الحركة ، المعدة للأسفار البحرية الطويلة ، قد لعبت دوراً لامعاً حتى أواخر القرن. فان السفينة البخارية المزودة بالمروحة لم تتفوق عليها سرعة إلا حوالي السنة ١٨٨٠ ، وللسرعة ثمنها على كل حال . ولذلك استمرت الملاحة الشراعية ، في طرقات كثيرة ، لنقل المشحونات الثقيلة. فالبناء المعدني قد ساعد على إطالة هياكل السفن : فانتجت بين السنة ١٨٩٠والسنة ١٩٠٠ السفن الطويلة الكبرى المزودة باربعة وحتى بخمسة صوار،التي جابت البحار الواسعة في نصف الكرة الشمالي ، وشحنت النكل من كاليدونيا الجديدة وقنب مانيلا وقصدت الـ « شيلي » والشاطىء الغربي من الولايات المتحدة . ودافعت بعناد وشجاعة عن سمعتها. ولكنها غالباً ما واجهت الصعوبات بين الاطلسي والباسيفيكي حول رأس « هورن » – الرأس الوعر – بينما توفقت منافستها في مضيق « مجلان » . وهو فتح ترعة السويس بصورة خاصة ما كان لهـــا ضربة قاسية (فالقنـــاة اضيق من أن تساعد على السير يمنة ويسرى ، والأرياح نادرة في البحر الاحمر) . واخيراً ازداد الامان بواسطة السفينة البخارية وكان التأمين على الأشرعة مرتفعاً. ففي السنة ١٩١٣ بلغ محمول ٢٣ ٠٠٠ سفينة بخارية ٢٦ ٥٠٠ ٠٠٠ طن ومحمول ٦٦٠٠ سفينة شراعية ٣ ٩٠٠ ٠٠٠ طن ، فكتبت صحيفه الـ « تايمس » بحزن : « ان غياب السفن الشراعية يولد فينا التأثير الذي يولده غياب صديق قديم » .

قال « وليم مورس » عن السفينة البخارية « أنها كاتدرائية العصر الصناعي » ، وقـد اثارت حماس روسكين نفسه : فان هذا الأخير يحمد الله الذي أتاح له رؤية الباخرة التجـارية الكبرى التي هي اشرف ما انتجه الانسان ، ذاك الحيوان العائش في جماعة. فقد تعاظم قوامها واتضحت خطوطها الخاصة التي لا تخلو من الأناقة .

في السنة ١٨٥٢ انزلت الى البحر السفينة الأولى المعدة لنقـل الفحم ، « جون بوَر » ، وهي سفينة بخارية مزودة بعجلات . فتعددت من ثم مستودعات الوقود على الطرقات البحرية . ومن جهة ثانية اتاحت موانىء التموين بالمحروقات تموين مسخن البخار بالمياه العذبة لأن مياه البحر قد تتاكله . فقام آل بورن مؤسسو « شركة الملاحة البخارية في شبه الجزيرة والشرق » ينشئون مستودعات الفحم وخزانات المياه واحواض إصلاح السفن في السويس وعدن وبومباي وكلكوتا. وحوالي السنة ١٨٧٠ استخدم المخثر الذي وفر الماء، والآلة المركبة التي وفرت الفحـم . زد على ذلك أن هذه الالة قد زادت من السرعة ايضاً .

لكارديف يعود الفضل في قوة الاسطول البريطاني ، وللهيكل المعدني كذلك . والسبب في ذلك أن المروحة لا تلائم إلا هذا الهيكل . وقد اعتمدها آل بورن في السنة ١٨٥١ في السفينة حملايا التي عين لها السير على خط مدينة الكاب ؛ ولكن استعاضتهم عن الخشب بالحديد استهدفت

كذلك تجنب العفونة والاهتراء وتعرض الخشب للنمل الابيض في مياه المناطق الحارة ؛ وبالمقابلة احتفظوا بالعجلة في المتوسط الذي تفتقر موانئه الى احواض لاصلاح السفن. وكانت شركة «كونار» قد انزلت الى البحر سفنها الخشبية الاربع المزودة بعجلات ذات لوحات ؛ وفي السنة ١٨٥٤ كان في حوزتها سفينة حديدية ، «برسيا» ، التي كانت تستهلك ١٥٠ طنــاً من الفحم الحجري في اليوم وتعبر الاطلسي في تسعة أيام بدلاً من اربعة عشر بفضل آلاتها المزودة برقاص جانبي ؛ وفي السنة ١٨٦٢ كسبت اربعاً وعشرين ساعة بفضل المروحة ، ولكن جهازاً من الحبال والمحال احتفظ به فيها لمساعدة الآلات عند الحاجة. أما البارجة نابوليون ، من الأسطول الحربي الفرنسي ، وقد بنيت وفاقاً لتصاميم «ديبوي دي لوم» ، فقد بلغت سرعتها ١٣ عقدة في السنة ١٨٥٣ . وبهذه السرعة عبرت سفينتا النقل «بيرير» و«مدينة باريس» الاطلسي في تسعة أيام. وجهزت السفينة بمزيد من وسائل الراحة: فان مالك السفن ، «اسماي» ، الذي اسس شركة «الملاحة البخارية البحرية» قد زود السفينة «اوسيانيك» بغرف وردهات بنيت في الوسط لا في المقدمة ، وبقاعة للطعام تمتـــد على طول السفينة ؛ وفي السنة ١٨٦١ ظهرت الشرعة الخفيفة التي غطت الشرعة الرئيسية لايواء المسافرين .

حين استخدم الفولاذ بدلاً من الحديـد ، اجازت متانة الهيكل وصلابتها قياسات كبرى وسرعة متزايدة . وقد استحدثت حيازيم جانبية عززت ركانة السفينة . وأعطى مسخن البخار والآلات المحركة ، بفضل المروحة المزدوجة ، طاقة فاعلة كبرى ، بينما تدنى استهـــلاك الوقود نسبياً. فانتقل معدل محمول السفن في السويس من ٧٦٦ طناً في السنة ١٨٧٠ الى ٢٠٠٣ في السنة ١٨٩٠ و ٢٨٣٣ في السنة ١٩٠٠ . وبلغت السرعة القصوى ١٨ عقدة في السنة ١٨٨٠ و ٢٥ في السنة ١٩٠٥ . فقامت المنافسة من أجل «الشريط الازرق» بين الشركتين البريطانيتين «كونار» «والنجم الابيض» ، وبين شركـة «الخطوط البحرية بين همبورغ واميركا» . فدفعت الى انزال سفن الى البحر تتميز بمزيد من الحجم والسرعة (فان قوة آلة السفينة «بريطانيا» كانت ٥٠٠ حصان بخاري في السنة ١٨٤٠ ، بينما بلغت قوة آلة «الامبراطور» ٠٠٠ ٦٨ ») دفع من ثم بصناعة بناء السفن الى الامام. وقد صنعت المعامل البريطانية وحدها ثلاثة ارباع البواخر بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٥ ، ثم خمسيها فيما بعد .

انخفضت اسعار الشحن . فان كلفة نقل مد القمح الاميركي إلى انكلترا ، التي كانت ٦٠ سنتيما في السنة ١٨٦٠ ، قد هبطت الى ١٥ سنتيماً في السنة ١٨٨٠ والى ٥ في السنة ١٩١٠ . ولم يتـــم السفر في ظروف فضلى فحسب ، بل نقلت البضائع بسعر متدن ايضاً . فوحد البحر العالم أكثر من أي وقت مضى .

المرافىء البحرية الكبرى

أوجدت السفينة المرفأ ، فجددته وأحيته الاساطيل البحرية . ووصل الخط الحديدي كذلك بين المرافىء وبين بحر وآخر ، فتقاربت بذلك أوجه الاوقيانوسات المتقابلة أو المتدابرة . فلعبت أوروبا اكثر فأكـــثر دور برزخ حقيقي لا

بل دور برازخ عدة بين الاطلسي والمتوسط ، واميركا الشمالية دور الجسر بين الأطلسي والباسيفيكي .

استندت حياة المرفأ بالامس الى كل ما من شأنه الاجتذاب اليه . وغالباً ما استخدم للحرب والنشاطات الاقتصادية معاً . فان « لو هافر » قد بقيت مرفأ عسكرياً حتى السنة ١٨٢٤ . وفي برست و شربورغ ، كانت الوظيفة العسكرية مثاراً للوظيفة التجارية. إلا أن التخصيص لم يعد شيئاً نادراً . فمرفأ صيد السمك هو لعمري من انجازات القرن التاسع عشر . و كارديف مدينة بنموها للفحم الحجري ولبواخر نقله ، وقد قدّر بعضهم أن نسبة ارتفاع عـدد سكانها كانت ... ١٠ نفس لكل مليون طن تصدرها الى الخارج ؛ وفرت لهـــا لندن وبريستول وليفربول المواد الغذائية ، وبلغت دائرة عملها شانغاي نفسها. وانشىء في اقرب النقاط الى البحار العميقة مرفأ السرعة الذي ترسو فيه السفن فترة قصيرة . وفي أمكنة أخرى أخذت الوظيفه الاقليمية بعين الاعتبار . أما الوظيفة الدولية ، وهي اوسع نطاقـاً ، فقد تجزأت بفعل توسع الشبكات الحديدية والنهرية : فتنازعت انفرس وروتردام وامستردام المناطق القائمة ما وراء رينانيا التي نازعتها اياها بريمن وهمبورغ، بينما تزاحمت جنوى ومرسيليا على مداخل أوروبا الآلبية . وأما لندن التي كادت تحتكر اعادة التوزيع فقد تقهقرت نسبياً ، ولكن نيويورك مدينة لاعـــادة التوزيع هذه بثروة طائلة جداً . وعلى الطرقات البحرية الكبرى ازدهرت المرافىء المجهزة خير تجهيز كالكاب وبومباي وسنغافورة وهونغ كونغ .

إلا أن السفن المتعاظمة قوة والمتكاثرةعدداً استلزمت احواضاً أكثر عمقاً واتساعاً. فالمطلوب تأمينه هو الدخول والخروج والتحميل والتفريغ في أقصر وقت ممكن . وبرز من ثم مثالان ، يشكل أولهما غزو اليابسة للبحر بواسطة سدود مبنية وأرصفة تعزل الاحواض المقتطعة بمحاذاة الشاطىء ؛ وهذا المثال غير نادر في المتوسط : فحين لم يعد جون مرسيليا الطبيعي ليكفيهـا ، تقدمت نحو الشمال الغربي حيث بنت حوض «لاجوليات»،ثم الحوض الامبراطوري أو الوطني ، ثم حوض «لابينيد»وحوض«مدراغ». أما المثال الثاني فيقوم بالحفر في اليابسة عند مصاب الانهر الواسعة ، كما في لندن وليفربول وانفرس وهمبورغ ونيويورك . وبغية تجنب معـاذير الارساء قرب الارصفة في النهر ، جهزت لندن احواضاً واسعة جداً في نهر التايمس لتعويم البواخر. ولما كانت البرك وراء السدود قد اتسعت ، فقد امتدت انفرس الى ٩٠ هكتاراً منها . ثم ووجهت مسألة المداخل ، المقضة بالنسبة لروتردام ، ضحية تراكم الرمـل في الممرات الضيقة القائمة على الانهار الرينانية :وهذا ما حمل «شور»على تولي عمل جبار يجرفه الرمل من أحد هذه الممرات على طول ٣٣ كيلومتراً وعمق ٩ امتار تحت مستوى البحر اثناء مده. وانشئت اجهزة قوية من جسور قابلة التدوير ، ومحطات لربط السفن بالقلوس ، وآلات لرفع الاثقال ، ومستودعات في الاماكن المردومة بالاتربة وفي المـــلاجىء البحرية للسفن . وجلي أن كل ذلك قد فرض تقنيـة متقدمة جداً .

لو نظرنا إلى شكل القارات لرأينا أن الاطلسي يؤلف اداة اتصال كبرى بين نصفي الكرة الارضية ، وان العالم الجديد يشكل حاجزاً يحول دون الملاحة حول الارض ، وان افريقيا تشكل كتلة مماثلة تحول دون المرور من الغرب الى الشرق بين الاطلسي والمحيط الهندي . ولكن الكتلتين البريتين الرئيسيتين تبدوان وكأنهما تتلاشيان في وسطهما . فان البحار المتوسطة تخترقهما ولا تبقى منهما في هذه النقطة سوى برازخ ضيقة ما كانت لتحول ، الا بنوع من السخرية ، دون الملاحة حول الارض عند خطوط العرض الوسطى .

كان مقدراً لفكرة ايجاد طريق مائية بين المتوسط وبحر الهند أن ترى النور في الدرجة الاولى . لقد رأت النور منذ القرن الثاني عشر مشاريع كثيرة استهدفت فتح هذا « البوسفور الجديد » ، كانت ستستوقف السانسيمونيين وتستهوي محمد علي : فتأسست شركة مهمتها اعداد الدروس لفتح قناة ، اشترك فيها « انفانتين » و « ارليس – ديفور » و « بولين تالابو » مع ستيفنسون الابن ، بعد ان ثبت لهم ان مستوى المياه في المتوسط لا يختلف عنه في البحر الاحمر .

إلا ان احد محاذير المشروع كان انه يخدم النفوذ الفرنسي في نظر المسؤولين البريطانيين الذين صرفتهم مصالح كبرى ، من جهة ثانية ، عن ان يمدوا له يد المساعدة . فما زالت الطريق المألوفة هي طريق الكاب ، كما ان نقل البريد والمسافرين ، الذي يرتدي طابع السرعة ، ما زالت تؤمنه ، منذ ١٨٣٩ – ٤٠ ، مصلحة « البريد عبر اليابسة » التي كانت تستخدم السفينة في المتوسط حتى الاسكندرية ، ثم بين السويس وبومباي ، بعد اجتياز مصر بطريق النيل وبطريق برية . أجل كان الانتقال يستغرق عشر ساعات من الاسكندرية إلى رشيد ، وستة عشر ساعة من رشيد الى القاهرة ، وثمانية عشر ساعة من القاهرة الى السويس ، يضاف اليها الوقت الذي يُضاع في المحطات بين مرحلة وأخرى ، مما يرفع مجموع الساعات الى ٨٠ أو ٨٥ . فكان يقتضي شهر لقطع المسافة بين مرسيليا وبومباي ، في حال ان السفر بين لندن والهند ، عن طريق الكاب ، كان يستغرق ثلاثة اشهر . ولكن قناة النيل قد حسنت ، ومرفأ السويس قد جهز تجهيزاً حسناً ، والقاهرة قد شيد فيها فندق توفرت فيه وسائل الراحة بما فيها حوض للسباحة ، وجُند الوف الجمال والجمالين لعبور الصحراء . اما كان يكفي لذلك خط حديدي ، بني بين السنة ١٨٥٥ والسنة ١٨٥٩ على كل حال ؟

في هذه الاثناء كان « فردينان دي لسبس » ، القنصل السابق في الاسكندرية ، والمشدود بصلة القربى الى الامبراطورة «اوجيني» وبصلة الصداقة الى الامير محمد سعيد ، ابن محمد علي ، يتقدم سواه في تنفيذ المشروع ، اطلع على آراء السانسيمونيين ، وتميز بطبع متكبر ، وكان فارساً ماهراً ، فتوصل الى اقناع سعيد باصدار فرمان يمنح الامتياز بموجبه لمصلحة شركة عالمية قدم لها المهندس النمساوي ، « نغرلي » ، مشروع قناة دون سدود ؛ واخذ على عاتقه انجاز المشروع بـ ١٦٠ مليونا ، وتجول في اوروبا لجمع الاموال اللازمة ، واستحصل من صندوق التوفير الفرنسي على اكتتاب بـ ٢٠٧ ٠٠٠ سهم من اصل ٤٠٠ ٠٠٠ سهم قيمة كل منها ٥٠٠ فرنك وتخلى منها عن

٨٥٠٠٠ سهم للخديوي الذي اصدر امرا بمصادرة ٢٠٠٠٠ فلاح . فشرع في فتح الترعة في شهر نيسان من السنة ١٨٥٩ .

ولكن عشر سنوات قد انقضت دون ان تحول اليها المياه . فقد قامت صعوبات سياسية : اعترضت انكلترا لان الفرمان لم يمرض على موافقة الباب العالي؛وحين توفي سعيد في السنة ١٨٦٣، وجب مراعاة جانب نوبار ، وزير خارجية خلفه المتردد ، اسماعيل . وكان هناك مسألة اليد العاملة المقضة ، التي استغلها خصوم القناة : فقد بلغ من الاحتجاج على التسخير ان الشركة ارغمت على استخدام عمال احرار براي نابليون الثالث نفسه الذي احتكم اليه في هذا الموضوع؛ اما العمال البالغ عددهم ١٥٠٠٠ ،فقد جاؤوا من الحاحوض المتوسط المختلفة،ولكنهم تقاضوا اجوراً مرتفعة ورفضوا جبل الطين بايديهم: فارغم ذلك على اللجوء الى الآلات ، ولاسيا بجارف الرمل البخارية ، بعد ان ضحي عبثاً بالعديد من العمال. وحين تحققت الغلبة على العائق التقني الرئيسي، واعني به سحي الوحول السوداوية اللون ، قام عائق جديد هو انتشار الهواء الاصفر والتيفوس. اجل لقد تبدل الرأي العام الانكليزي شيئاً فشيئاً في هذه الاثناء بعد ان ادركت الاوساط المنشسترية الفائدة التي ستجنيها التجارة من هذا النجاح . ولكن ما زال هناك الشاغل المالي، لان الاكلاف قد تجاوزت التقديرات الى حد بعيد : وقد فشل الاكتتاب بموجب سندات في السنة ١٨٦٨ ، لاسباب مختلفة منها حملة قامت بها الصحافة البريطانية ، ولكن الهيئة التشريعية انقذت الموقف باقرار اصدار بشكل انصبة . واخيراً احتفل في السنة ١٨٦٩ بإيصال البحرين بمشهد شرقي فاتن : اذ رافقت السفن الذاهبة من بورسعيد الى السويس ، مروراً بالاسماعيلية ، الانوار التزيينية والموسيقى والرقصات الشعبية .

ان القناة البالغة ١٦٢ كيلومتراً طولا و ٢٢ متراً عرضاً و ٨ امتار عمقاً قد فرضت قيادة السفن بحذر وبسرعة محدودة (يتم التلاقي في « المحطات » ويستغرق عبور الترعة ثلاثة ايام). ولكنها استفادت من وجود السفينة التجارية ومن اتساع حركة المقايضات بين اوربا واراضي الشرق ، مشجعة بدورها هذا الطراز من السفن ومسهمة اسهاماً قوياً في الانطلاقة التجارية المعنية. وبدا بين ليلة وضحاها وكان العالم القديم كله قد اقترب من اوروبا الغربية ، وكانت نيويورك نفسها قد اقتربت من المحيط الهندي . فان « جول سيغفريد » قد امضى ستة وعشرين يوماً في السنة ١٨٦٢ للانتقال من مرسيليا الى بومباي ، وفي السنة ١٨٧٢ ، لم يمض « فيلياس فوغ » الآتي من لندن سوى ثمانية عشر يوماً لبلوغ المرفأ الهندى . وتدنت اجور النقل الى ربعها بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٨٠ . الا ان السنوات الاولى كانت صعبة مالياً لان محمول السفن المارة في القناة لن يبلغ الارقام التي قدرها « لسبس » المتفائل الا في السنة ١٨٨٨ . وحين تقوت الشركة بفعل الوجود البريطاني في مصر والاتفاقية الدولية المعقودة في الاستانة ، اخذت توزع ربائح مغرية وقررت توسيع وتعميق القناة وتجهيزها بالانارة الكهربائية. فكان ان سهم الـ ٥٠٠ فرنك الذي سعّر بـ ١٦٣ في السنة ١٨٧١ ، قد ارتفع الى ٥٠٠٠ في السنة ١٩١٤ . وجملة القول

ان القناة ربما كانت « اعظم انجازات القرن » .

انتظر الرأسماليون نجاح قناة السويس للاهتمام بالبرازخ الاخرى . فان قناة كورنثوس، التي فكر بها نيرون ، قد تحققت بين السنة ١٨٨٣ والسنة ١٨٩٣ ؛ وحققت المانيا في السنة ١٨٩٥ الاتصال بين البلطيق وبحر الشمال بواسطة قناة « كيال » التي ستكون مشروعاً خاسراً على كل حال ؛ وفكر بعضهم بحفر ترعة « كرا » ، ودرست بعض اللجان مشروع قناة بين الاطلسي والمتوسط . ولكن المغامرة الكبرى كانت مغامرة باناما .

ان فتح قناة في هذه الجهات كان، والحق يقال ، اقل إفادة لاوروبا منه للاميركيين. فبالنسبة لمصر : فتنة المكان ، مفترق اجزاء العالم الثلاثة ، والضرورتان المتوسطية والآسيوية ؛ اما هنا فطبيعة تسيطر عليها امطار غزيرة ، واحراج واسعة وغابات متلبدة ، ومنطقة غير آهلة ، على شواطىء محيط لا يسلك بعد الا نادراً . وعلى الرغم من ذلك فسحر المشروع كان أخاذاً ، لا سيما وان البرزخ يضيق باطراد بين تهوانتبيك (١٩٧ كيلومتراً) حتى باناما (٧٠ كيلومتراً) . فالقرن السادس عشر قد استرسل في خياله في صدد مثل هذا المشروع ؛ وهمبولدت فكر به في السنة ١٨٠٨ . وحين افتتح بوليفار مؤتمر باناما في السنة ١٨٢٦ اقترح غوتيه بدوره فتح القناة ، ونادى كلاي بعمل جماعي . جاءت السنة ١٨٥٠ : حين سمع الناس صوت نداء الذهب الكاليفورني . فعقدت الولايات المتحدة اتفاقاً مع كولومبيا بغية اعلان حياد البرزخ في اضيق نقاطه ؛ ولما كانت انكلترا تحتل بليز وشاطىء الـ « موسكيتو » ، وتسلم باهمية جون فرنسيكا، عقد الاميركيون معها معاهدة تنم عن حذر متبادل بمنعها كل تحصين في تلك الجهات ، ثم حققوا ، على الرغم من تفشي الملاريا ، مشروع خط حديدي بين كولون وباناما . اما في الواقع فقد ارادوا كسب الوقت وآثروا العمل بمفردهم .

في السنة ١٨٦٩ فتحت ترعة السويس للسفن واجتاز اول قطار « الجبال الصخرية » . وعلى الرغم من العودة الى مشاريع فتح القناة ، اما على تهونتيبيك ، واما على نيكاراغوا ، فلا شيء يدعو بعد للاسراع في العمل . فان المصالح البحرية ومصالح الخطوط الحديدية قد تضافرت للحيلولة دون تنفيذ مشروع اجمع الرأي على اعتباره محفوفاً بالاخطار . فهل تركب اوروبا الخطر يا ترى ؟ اما اميركا فقد وقفت مرة اخرى موقف التريث والتبصر والسخرية . فأوصت بعثة « وايز — ركلو » (١٨٧٦ — ٧٨) بباناما ؛ ثم حصل « وايز » على الامتياز في بوغوتا ؛ ثم انعقد المؤتمر الاول للدروس الذي رفض اقتراح ايفل حفر قناة ذات سدود ووافق على اقتراح لسبس حفر ترعة عميقة يكون مستوى مياهها موازياً لمستوى مياه المحيطين ؛ ثم وضع مشروع تقديري بالاكلاف التي بلغت ١١٧٤ مليونا ؛ ثم اسس لسبس الشركة العالمية للقناة ما بين المحيطين ، التي احاطت الشروع في العمل بمزيد من الدعاوة، على الرغم من انها لم تجمع سوى ٣٠ مليونا ، بدلا من ٤٠٠ ، عن طريق الاكتتاب، واصطدمت بمناخ قاس قتال وبفيضانات النهر المتكررة وانهيارات جانبي الترعة . فانتهى مشروع هذه القناة الى الفشل وانفضت الشركة في السنة

١٨٨٩ بعد ان لجأت الى الرشوة لحمل البرلمان الفرنسي على منحها قرضاً مقابل اسهم ودون ان تتمكن من حفر قناة ذات سدود . وبعد هذه الفضيحة السياسية والبرلمانية والمالية والمصرفية معاً التي انتهت بالحكم على لسبس وابنه وايفل ، مست الحاجة الى قيام شركة بديلة اخرى . فعرفت اوروبا بذلك فشلا ستستغله اميركا .

سبق لـ « غرانت » ان اعلن بان ما يلزم الولايات المتحدة هو « قناة اميركية بمال اميركي، في ارض اميركية » . فاستمرت المنافسة مع انكلترا في نيكاراغوا ، وفي السنة ١٩٠٧ ، سوف يلتقي خط حديدي في تهوانتيبيك. اما في الواقع فهي باناما ما يترصده الاتحاد . فقد استفاد من النزاع الجنوبي الافريقي لانقاء مطالبة بريطانيا ؛ فأعلنت المعاهدة الموقعة لهذا الغرض حياد القناة قبل حفرها ومنحت الملتزم ، في الوقت نفسه ، حق تحصينها واقفالها في حالة الحرب. وبات بمقدوره من ثم ارغام كولومبيا على الاعتراف بدولة باناما التي تخلت عن كل ما يحتاج اليه بنـــاء الترعة وحمايتها . وبينما تولى الزعيم غوتهاز ، الاختصاصي في بنـــاء السدود ، ادارة المشروع الفنية ، قضت الحملة التي تولاها روس على البعوض الذي ينقل الهواء الاصفر والملاريا ؛ ثم زود بالمعدات ٤٥٠٠٠ عامل (من بينهم ٣٠٠٠٠ زنجي) استهوتهم الاجور المرتفعة ، ففتحوا الممر المائي الذي سيدشن في ١٥ آب من السنة ١٩١٤ . وقد بلغ ما انفقه الاميركيون على هـــذا المشروع ١١١٥ مليونا بعد ان كرس له الفرنسيون ١٢٧٤ مليونا .

كانت باناما فكرة طلع بها القرن التاسع عشر ، وهي ستسهل في القرن العشرين ارتقـــاء اميركا يجعلها الباسفيكي والشرق الاقصى اقرب الى نيويورك منهما الى لندن .

الاتصال البعيد

بعد السنة ١٨٥٠ نما نقل البريد نمواً فجائيا . فان معدل الرسائل في المـانيا مثلاً كان ١٫٥ للشخص الواحد في السنة ١٨٤٠ ، و١٢٫١ في السنة ١٨٧١ ، و ٥٨٫٦ في السنة ١٩٠٠ . وقـــد بيع في الولايات المتحدة مليون ونصف المليون من الطوابع البريدية في السنة ١٨٥٠ ، و ٣٩٩٨ مليوناً في السنة ١٩٠٠ .

ومما يثبت كذلك توسع الشبكة التلغرافية المعتمدة رمـــوز « مورس » ، التمديدات التي بلغت ١٦٠٠٠٠ كيلومتر من الشريط حتى السنة ١٨٥٨ ، والتي ستبلغ ستة ملايين في السنة ١٩٠٠ . وقدارسلت في اوروبا ٩ ملايين برقية في السنة ١٨٥٨ و ٣٣٤ مليوناً في السنة ١٩٠٨ (منها ٧٠ مليوناً الى الولايات المتحدة). ومنذ السنة ١٨٦ . اتاح جهاز هوغ الاكتفاء ببثة واحدة للحرف الواحد وطبع الحرف مباشرة؛ وخطر لـ « هويتستون » ان يطبق على جهاز مورس طريقة احكام جهاز نول « جاكار » بشكل دائرة الساعة ؛ وبفضل « الطريقة الازدواجية » التي انتهت اليها دراسات « ستيرنز » ارسلت في الوقت نفسه برقيتان في اتجاهين معكوسين؛ ثم وصلت آلة « ماير » الباعثة عدة اجهزة بخط واحد واتاحت طريقة « بودو » الرباعية بث... ٧ كلمة في الساعة

بدلا من ٢٠٠٠ بواسطة جهاز هوغ ، وهو عدد سيرتفع الى ٢٠٠٠٠ بفضل البث على تيارات مختلفة القوة .

استهوى الابراق الدول المفتقرة الى الطرقات والخطوط الحديدية . فان ايقاف الاعمدة الخشبية ومد الخطوط اسهل من توطيد عوارض السكة الحديدية بالقطع الحجرية . ولذلك كان لبلاد ايران في السنة ١٩٠٥ ، ٩٦٠٠ كيلومتر من خطوط التلغراف مقابل ١٣ كيلومتراً من الخطوط الحديدية ، ولبلاد الصين ٣٥٠٠٠ مقابل ٥٥٠٠.

ولم يقف البحر حاجزاً في سبيل الخط التلغرافي. فمنذالسنة ١٨٤٥ ، وبفضل صمغ المطاط، غط الاميركيون حبلا سلكياً تحت نهر الهودسن. ولكن السنة الحاسمة كانت سنة ١٨٥١ . فقد ساعد المهندس كرامبتون مواطنه «جاكوب برايت» على تحقيق الاتصال بين دوفر وكاليه. وفي السنة ١٨٥٣ غط الحبل السلكي تحت قناة الشمال من جهة وتحت بحر الشمال من جهة اخرى. ثم حاول جون «ووكنز برايت » اقامة خط تحت البحر المتوسط ، بين الشاطىء البروفنسي وكورسيكا وسردينيا اولا ، ثم بين هذه الاخيرة والجزائر . واثناء حرب القرم انشىء خط تحت البحر بين فارنا و بالاكلافا .

تكوّن آنذاك مشروع اتصال عبر الاطلسي . فأسس الاميركي « سيروس – وست فيلد » شركة اسندت الى مؤسسة « غلاس واليوت» في لندن صنع حبل سلكي يبلغ ٣٦٥٠ كيلومتراً طولا بغية ربط جون فالنتيا وترينتي – باي على شاطىء الارض الجديدة . الا ان العملية لم تتكلل بالنجاح بعد ثلاث محاولات فاشلة ، الا في ١٢ آب ١٨٥٨. وفي ١٦ منه وجهت الملكة فكتوريا رسالة الى الرئيس بيوكانان : فاستغرق نقل بعض الكلمات ١٧ ساعة و ٤٠ دقيقة، ولم يرد الجواب الا في ١٨ منه . زد على ذلك ان الحبل قد انقطع ، فبردت الهمة فترة من الزمن . ولم يتحقق المشروع اخيراً ، بعد شتى الصعوبات ، الا باستخدام حبل سلكي اعظم متانة يبلغ وزنه ... ٢٤ طن ، من انتاج معمل هنلي في وولويتش . ثم انشئت شبكة عالمية بلغت ٠٠٠ ١٢٥ كيلومتر طولا في السنة ١٨٩٠ ، و ... ٥٠٠٠ في السنة ١٩١٤ ، تسيطر عليها لندن القادرة وحدها على الاتصال مباشرة بمعظم بلدان الارض (مراكز ٢٢ شركة من اصل ثلاثين تقريبا موجودة في الشارع نفسه).فبدا ما كتبه «ادمون ابو» في السنة ١٨٦٤ دون الواقع الى حد بعيد : « لا يقتضي في ايامنا اكثر من شهر حتى تدور الفكرة دورة كاملة حول الارض » . وحين احتفل بيوبيل « وليم طومسون » (اللورد « كلفن ») في غلاسكو في السنة ١٨٩٦ ، بعث اليه ببرقية عن طريق الارض الجديدة وسان فرنسسكو وواشنطن اجيب عليها خلال سبع دقائق .

ولكن الكهرباء اثبتت قدرتها على نقل الصوت ، اي الكلمة . فأبصر الهاتف النور ، بعد ايناع طويل الامد ، في السنة ١٨٧٦ ،بفضل العالمين الاميركيين « اليشع غراي» و«غراهام بل».

فحقق هذا الاخير الاتصال الاول على مسافة ٣ كيلومترات . وكان الاختراع مرتكزاً الى قدرة الكهرباء على ان تنقل الى مسافات بعيدة الارتجاجات التي تسجّل على صفيحة رنانة ويعاد تسجيلها على لوحة اخرى عندما تبلغها الارتجاجات المنقولة. وقد اصبحت الطريقة عملية بفضل الميكروفون الذي ابتكره هوغ وبفضل الملف المغناطيسي الذي ابتكره اديسون والذي يوسع الارتجاجات. فافتتح المكتب الاول في نيوهـــافن في السنة ١٨٧٨ والثاني في باريس في السنة ١٨٧٩ . فبلغت الاجهزة ، في السنة ١٩١٠ ، اثني عشر مليوناً في العالم ، منها ثمانية ملايين في اميركا الشمالية ، وثلاثة في اوروبا . وقد اعلن وليم طومسون آنذاك : « عجيبة العجائب » .

ولم يكن اقل إثارة للعجب الحاكي الذي يسجل الصوت والذي توصل « شارل كرو » الى اكتشاف مبادئه واديسون الى تحقيقه في السنة ١٨٧٨ ، سنة مؤتمر برلين .

١ – عجلة للمسافرين تصل الى المحطة .

٢ – نقل المسافرين بواسطة البخار للمرة الاولى .

٣ ـ تجربة الآلة الحاصدة التي اخترعها سيروس هول ماك كورميك (١٨٣١) .

٤ – الحرية ترشد الشعب (٢٨ تموز ١٨٣٠) .

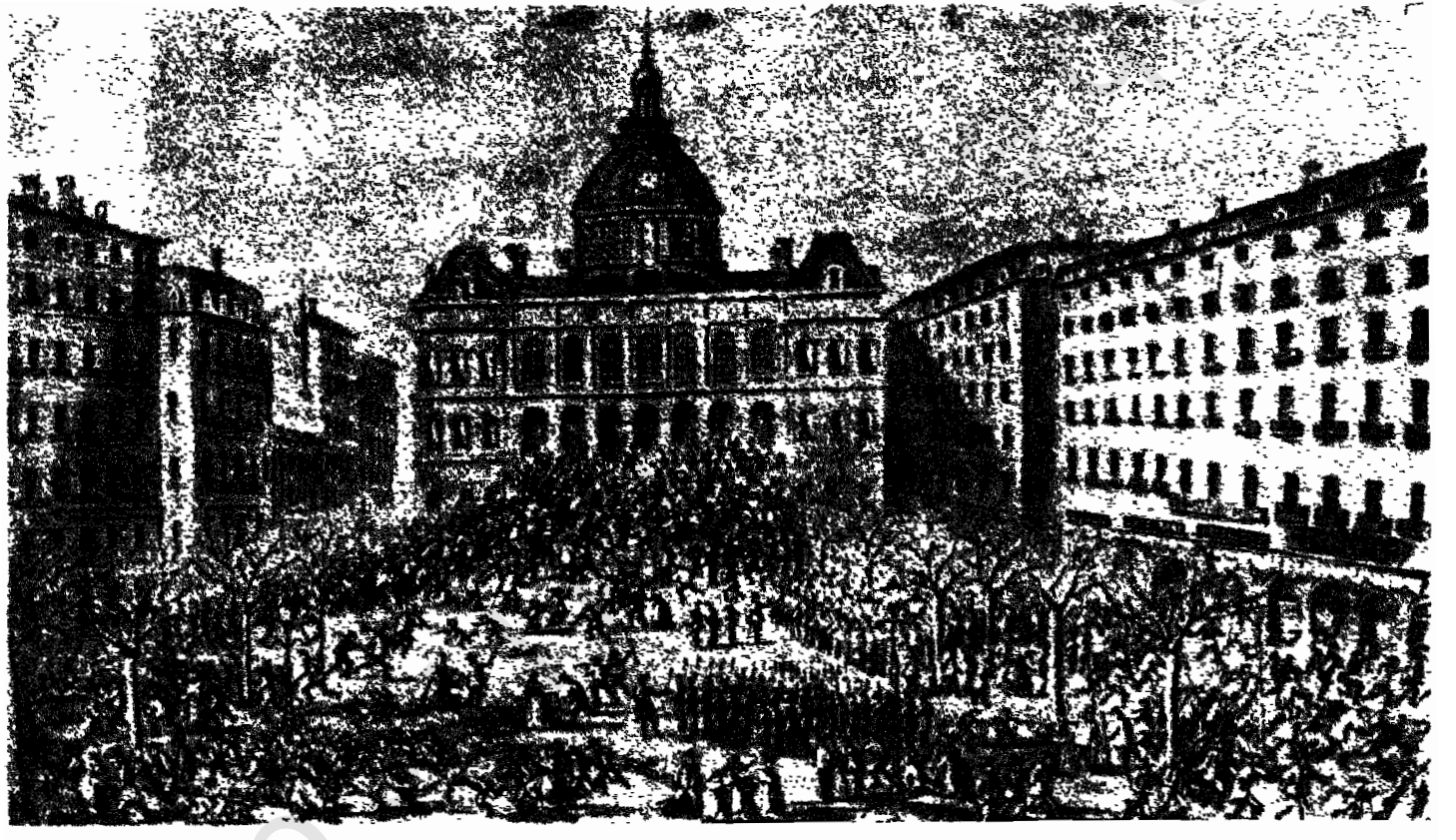

٥ – المجلس الثوري في (سانت اتيان) في السنة ١٨٧١ .

٦ – حرية الصحافة .

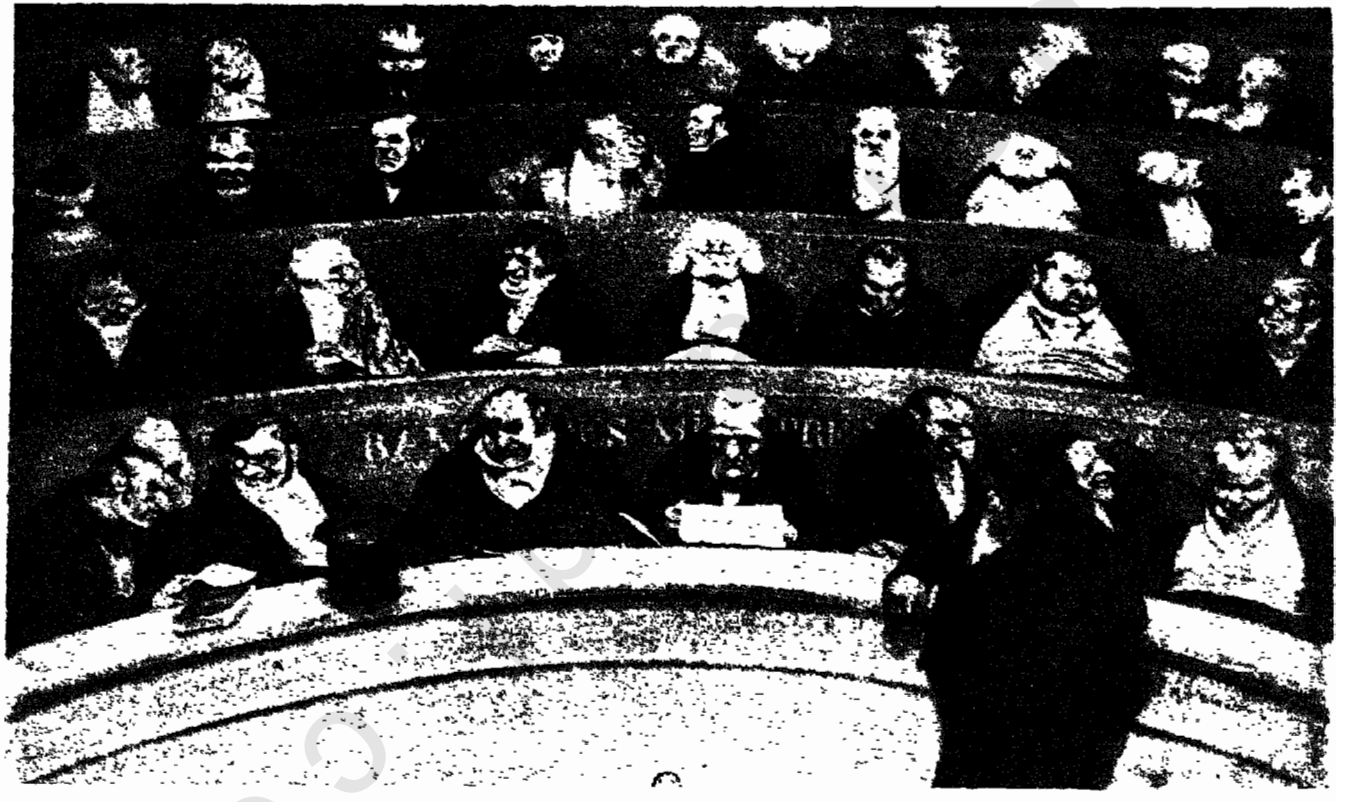

٧ ــ مقاعد المجلس التشريعي (١٨٣٤) .

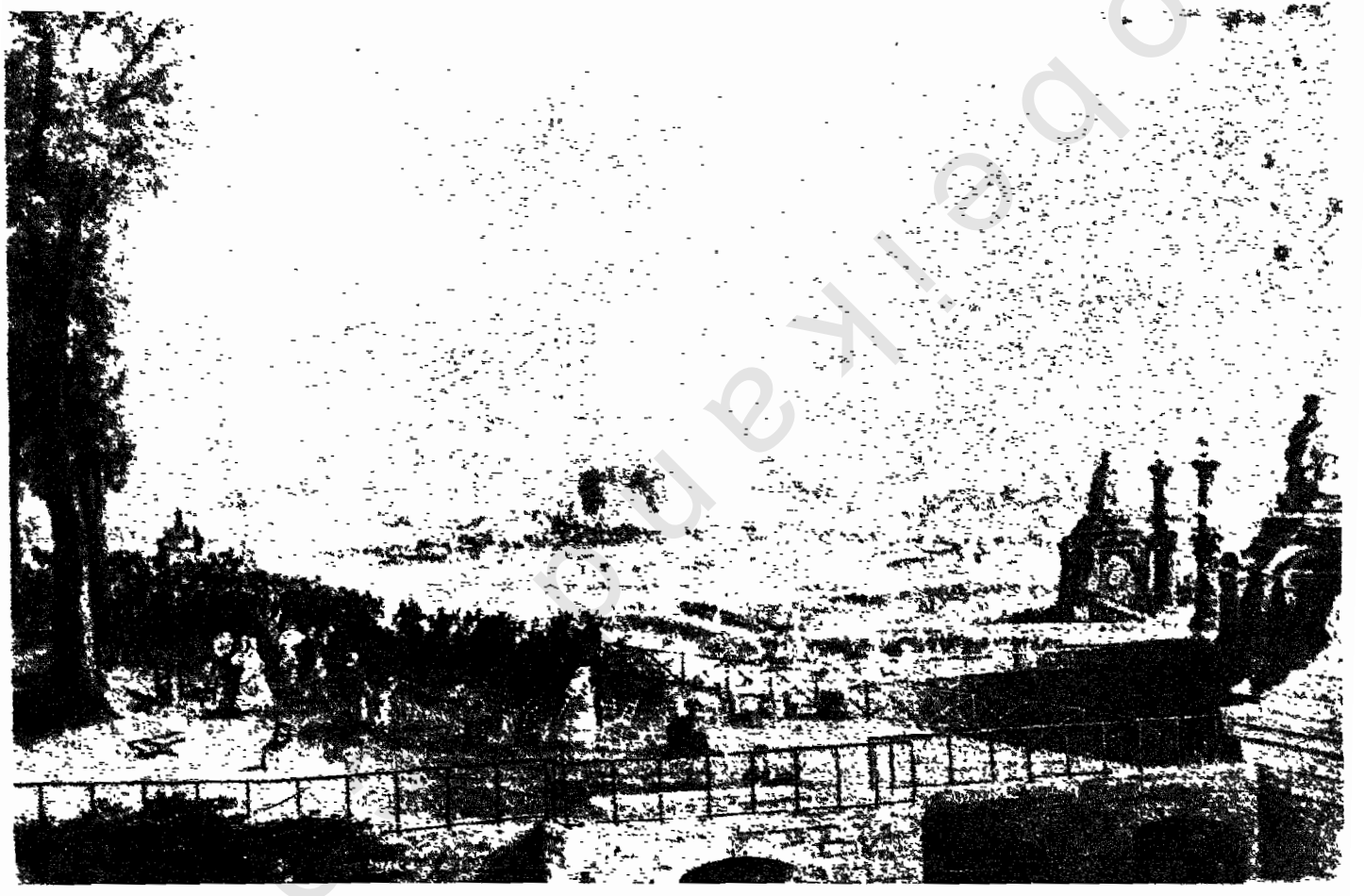

٨ – اعلان الجمهورية امام قصر بوربون في ٤ أيار ١٨٤٨ .

٩ – باستور في مختبره .

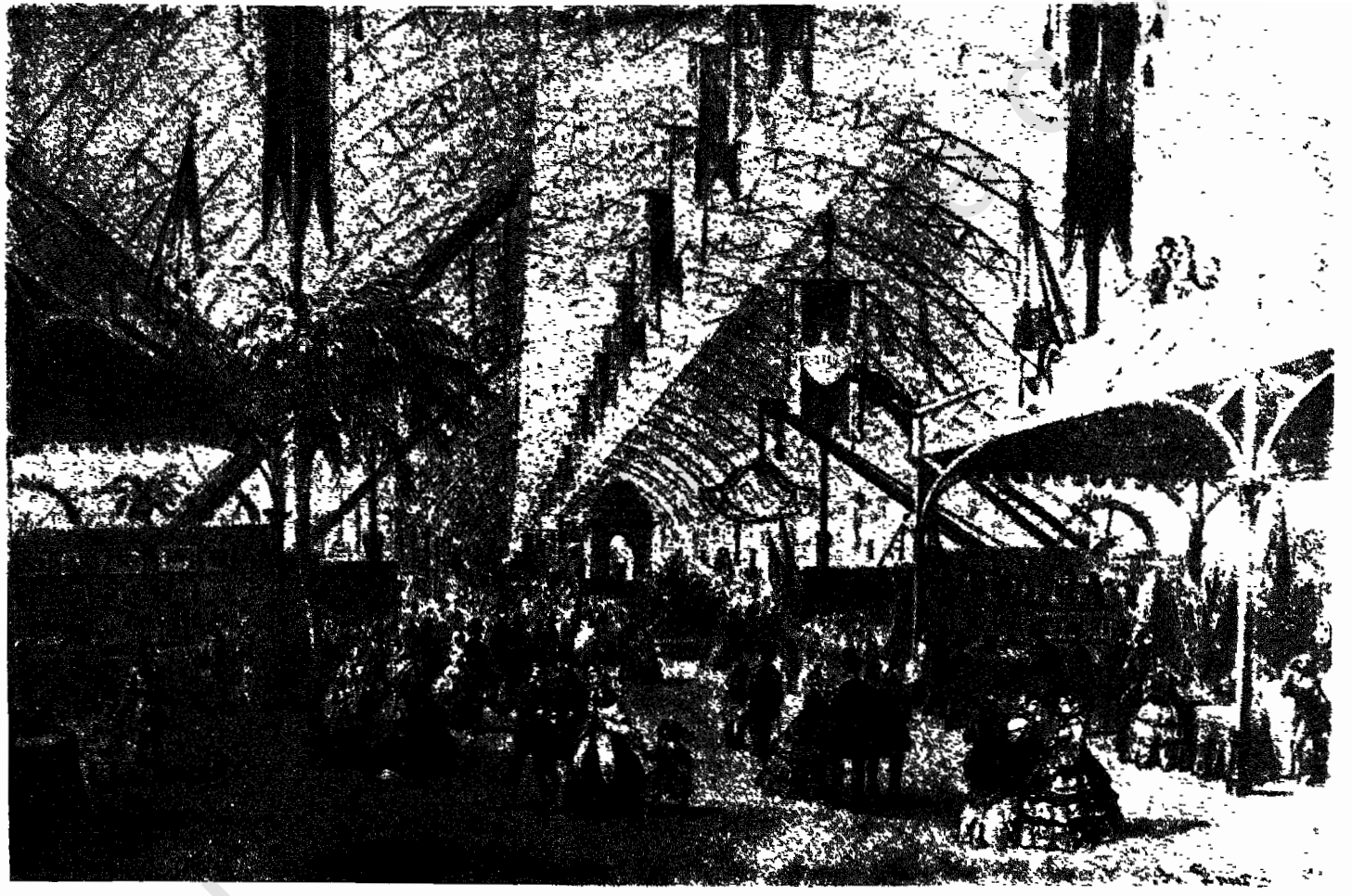

١٠ – معرض باريس العام في السنة ١٨٥٥ – مشهد لرواق الآلات .

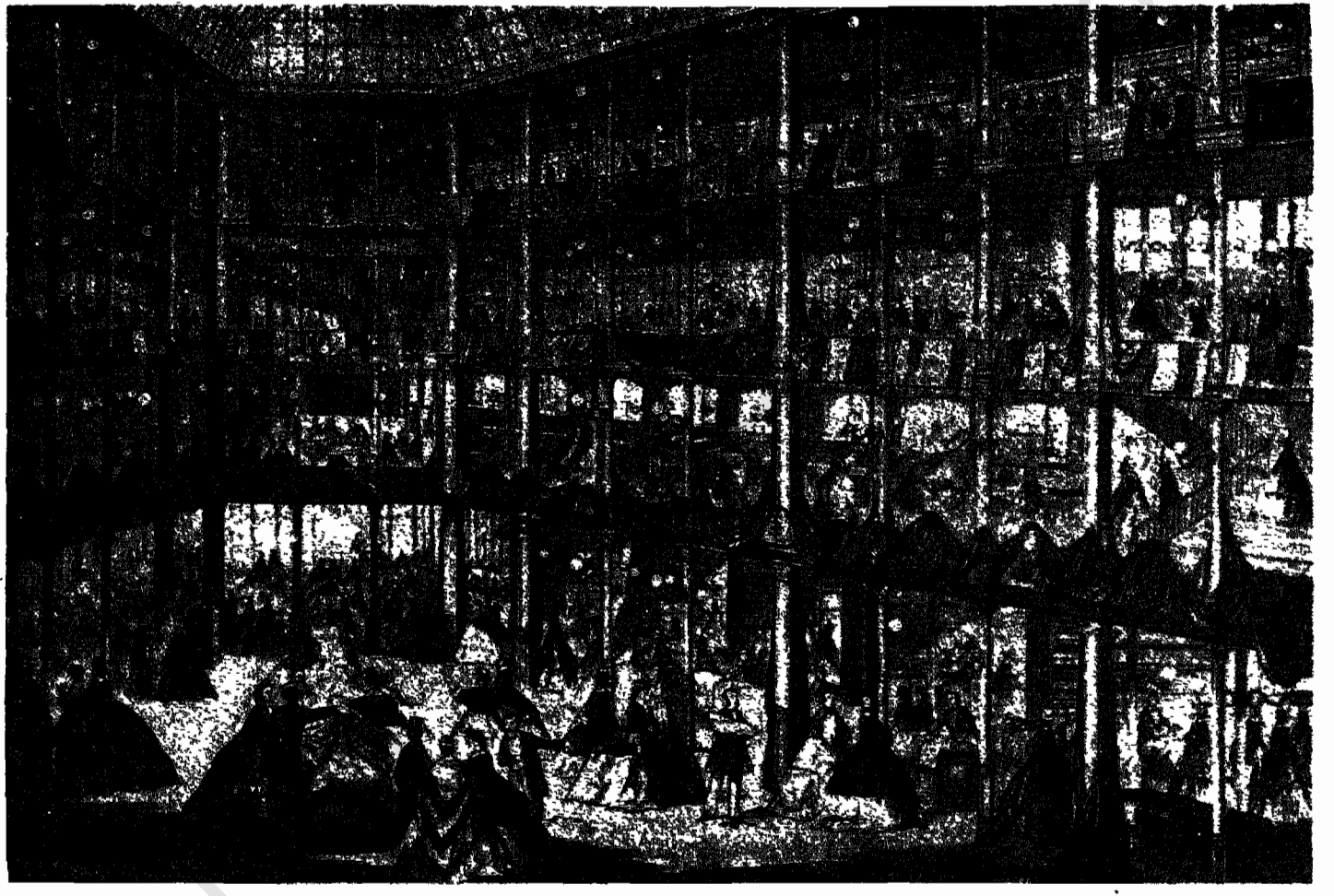

١١ ــ مخازن (زاوية الشارع) حوالي ١٨٦٠ .

١٢ – مقطورة الدرجة الثالثة .

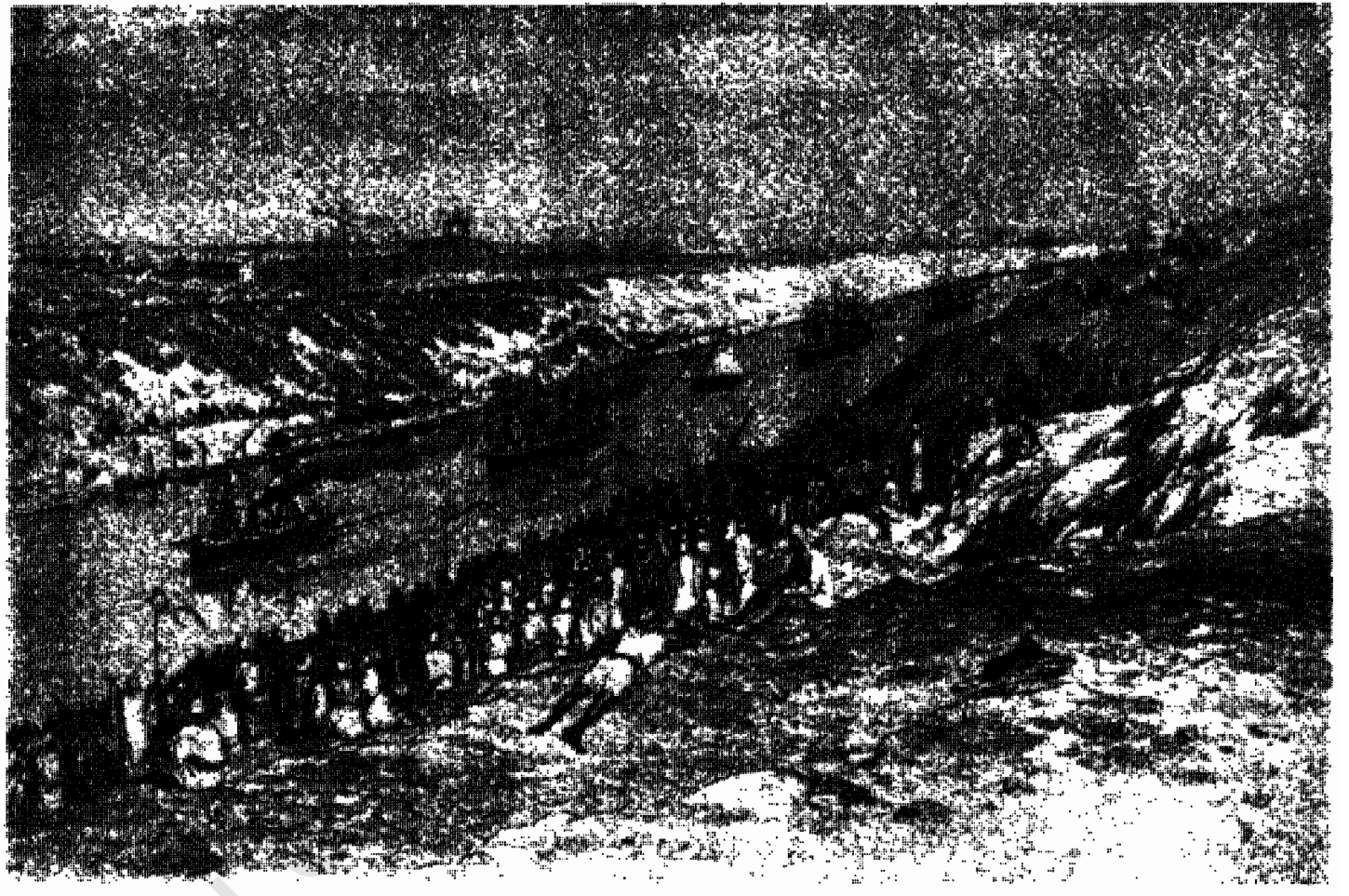

١٣ ـ تدشين قناة السويس .

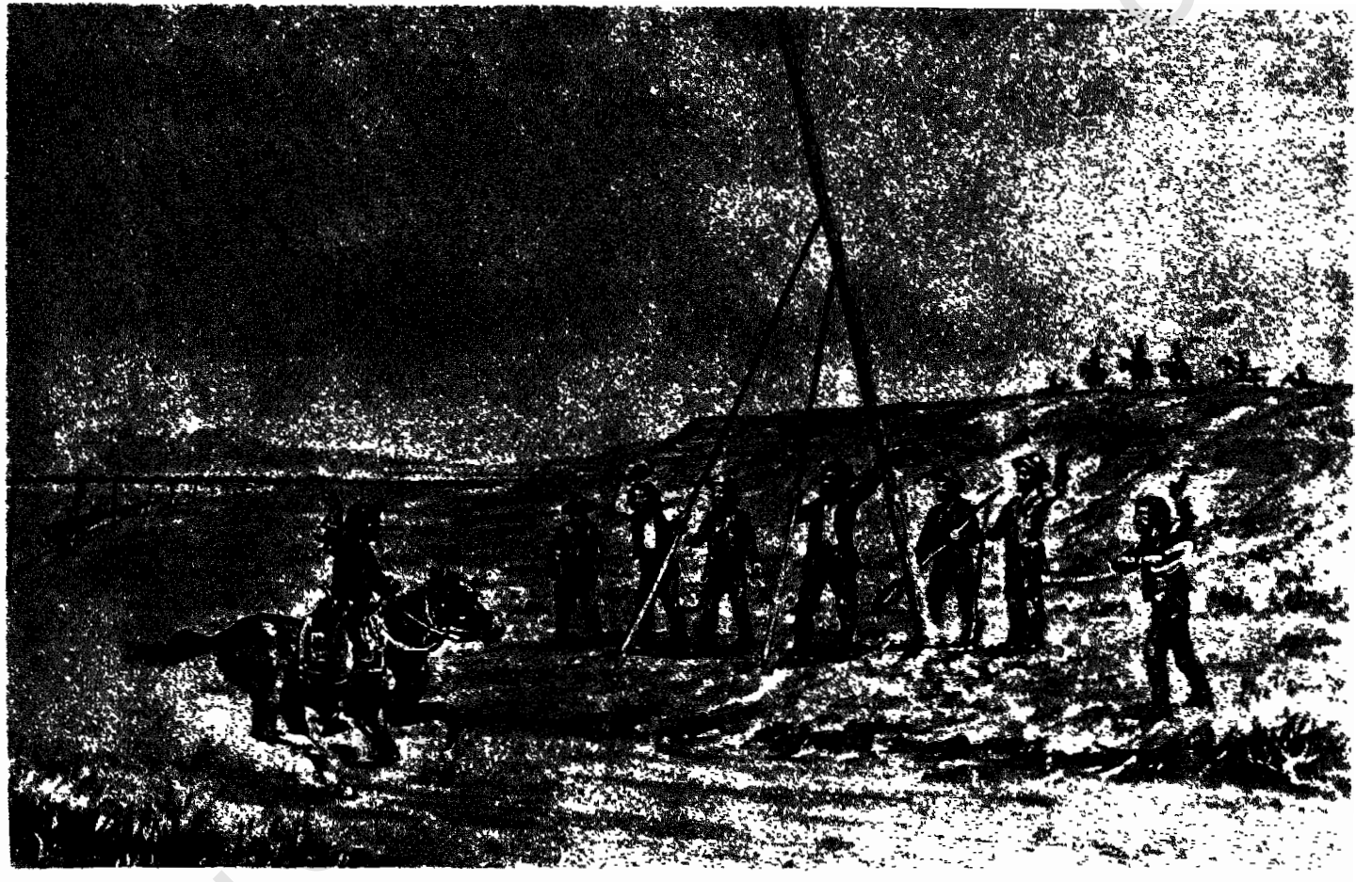

١٤ – انجاز اول خط تلغرافي بين الولايات المتحدة وشرقيها في السنة ١٨٦١ .

١٥ – طلاب الذهب الاميركيون في طريقهم نحو كاليفورنيا (١٨٤٩) .

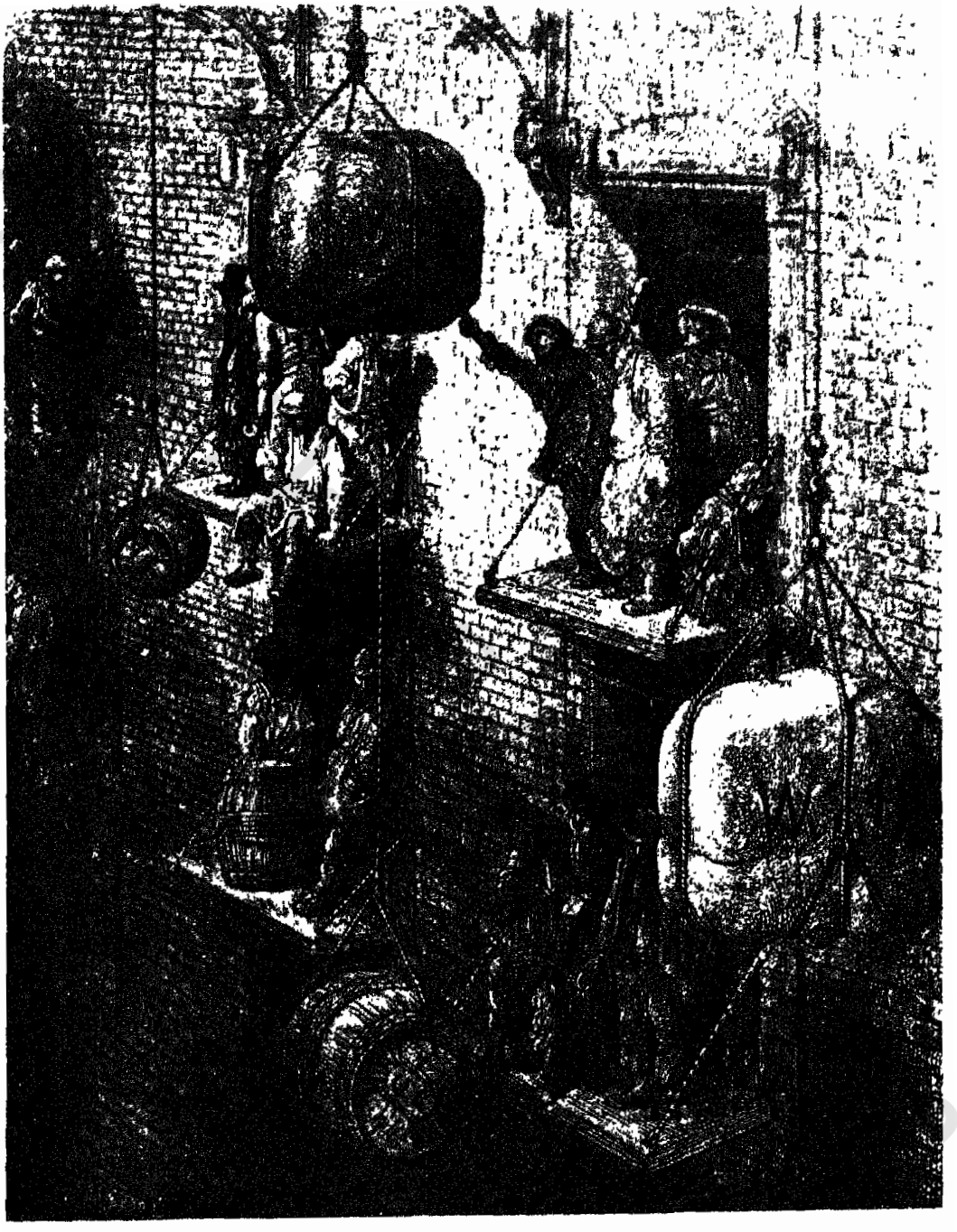

١٦ – مؤسسة تجارية في مدينة لندن .

الفصل الثامن

انطلاقة الرأسمالية في الغرب

رسالة الغرب الرأسمالية

«غزت البورجوازية كافة انحاء الكرة الارضية بدافع الحاجة الدائمة الى اسواق جديدة، فكان لزاماً عليها الدخول الى كل مكان، والاقامة في كل مكان، وخلق وسائل اتصال في كل مكان . وباستثمارها السوق العالمية، طبعت البورجوازية الانتاج والاستهلاك في كافة الدول بطابع الوطنية الشائعة. وبفضل سرعة اتقان ادوات الإنتاج ووسائل الاتصال ، ادخلت البورجوازية في تيار الحضارة حتى اكثر الامم تخلفاً وهمجية ...» هكذا تكلم « ماركس » و« انجلز » ، في السنة ١٨٤٨ ، في «البيان الشامل للحزب الشيوعي». وهذا يعني أن طبقة اجتماعية معينة ، هي البورجوازية ، « ثمرة النمو الطويل العهد ، وعدد من الثورات في طرائق الانتاج والاستهلاك » ، قد دفعت بأوروبا الى فتح العالم . والمقصود بهذا الفتح فتح تجاري اولاً، وفتح صناعي ثانياً. ولكن ماركس وانجلز يتكلمان عن نمو « البورجوازية أي الرأسمالية » . لذلك فان نظاما معيناً ، اقتصادياً واجتماعياً معاً ، يميز اوروبا ويفسر توسعها قبل ان تشمل في توسعها هذا اميركا الشمالية وبعض انحاء العالم الاخرى وتبعث فيها حركات مماثلة .

وفرة المعادن الثمينة
سيادة الذهب

رأينا ان القرن التاسع عشر هو قرن الفحم الحجري والحديد ، ولكنه في الوقت نفسه قرن الذهب والفضة ايضاً . فقد برزت مناطق جديدة غنية بالذهب ، هي اعجب ما عرفته البشرية في تاريخها : كاليفورنيا ، « مونت — مورغان » ، «كلونديك » ، « كمبرلي » ، «ويتووتر سراند » . بيد ان الكثيرين قد خشوا من ان يفقد المعدن الابيض والمعدن الاصفر ، اللذان لم يعودا نادري الوجود ، صفتهما الذاتية الرئيسية ؛ وعلى نقيض ذلك ، ابتهج كثيرون غيرهم ممن رأوا الصلة الوثقى بين النشاط الاقتصادي ووفرة المعادن المعروفة بالثمينة . ومهما يكن من الامر ، فان الغرب هو الذي استثمر هذه الكنوز لمصلحته ، وهي الاراضي الانكلوساكسونية التي ورثت الامتياز الذي كان في فترة من الزمن امتياز الامبراطوريات الايبيرية .

اذا نظرنا الى الذهب وحده ، واعتبرنا ان معدل الانتاج السنوي قبل اكتشاف اميركا هو ١ ، فان هذا المعدل يرتفع الى ٤٥ في اواخر القرن الثامن عشر ، والى ١٠٠٠ في السنة ١٨٦٠ ، والى ٢٨٠٠ في السنة ١٩١٤ . وهذا يعني ان المعدن الاصفر الذي دخل في التداول ، في الفترة الممتدة من السنة ١٨٥٠ الى السنة ١٨٧٠ ، يوازي ما دخل منه بين السنة ١٥٠٠ والسنة ١٨٥٠ . وازدادت كذلك كمية الفضة ازدياداً عظيماً : فبعد ان تجمع منها ١٤٠ مليون كيلو بين السنة ١٤٩٣ والسنة ١٨٥٠ ، ارتفع وزنها ٢١ مليوناً بين السنة ١٨٥١ والسنة ١٨٧٠ و ٦٧ مليوناً بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٩٣ .

قبل ان تتخلى المكسيك للولايات المتحدة عن كاليفورنيا بتسعة ايام ، عثر «مارشال» ، صانع العربات ، صدفة على بعض قطع المعدن الاصفر في جوار « ساكرامنتو » . فاندفع الناس وراء الذهب اندفاعاً منقطع النظير . وقد جاؤوا من كل مكان : استخدم بعضهم مسالك « لارامي » او مقطورة « سانتا — في » — وكانت المسافة تستغرق خمسة اشهر — وسلك البعض الآخر طريق « باناما او «ماجلان» ، فكان سفرهم في البحر مضنياً لا بل مهلكاً احياناً ، ووصل قرابة ٢٠٠٠٠ من آسيا . اما نتيجة هذا التدفق ، الذي ادى الى خلو الحقول والمصانع من اليد العاملة ، فكانت تنشيط بناء وحركة السفن ، واستقرار ٣٠٠٠٠٠ شخص في كاليفورنيا ، واكتشاف الزئبق في «نيو المادان» وإلحاح الحاجة الى تحقيق الاتصال بين الباسيفيكي والاطلسي بواسطة القطار الحديدي .

وكان « الهواء الاصفر » قد انتقل الى اوستراليا ، القارة الخالية من السكان تقريباً ، التي اطلق عليها ، بمعرفة غريزية غريبة ، اسم « الشاطىء الذهبي » في الخرائط البرتغالية القديمة . وخشية من اختلال النظام والانضباط بين المجرمين المبعدين اليها البالغ عددهم ٤٥٠٠٠ حاول حاكم ولاية «وايلز الجديدة» الجنوبية اخفاء سر الاكتشاف الذي توفق اليه احد الرعاة في شهر شباط من السنة ١٨٤٩ ، في مقاطعة باثورست . ولكن سفر المهاجرين المستعمرين قد احدث انقلاباً ، وقد تعذر من جهة ثانية منع هذا التدفق حين توفق المهاجر هارغريفز العائد من اميركا ، الى اكتشاف ذهبة تبلغ قيمتها ٤٠٠٠ جنيه استرليني واثبت تشابه التربة بين منطقة ساكرامنتو ومنطقة ماكاري . ومما شجع البحث عن الذهب ان مستعمرة فكتوريا ، التي تنظمت في السنة ١٨٥١ ، خصصت مكافأة لمن يكتشف ذهباً في اراضيها . وهكذا تم العثور على منجم بالارا وبنديغو الشهير . وقد بلغ من تدفق الحفارين ان عدد سكان فكتوريا قد ارتفع الى اربعة اضعافه خلال اربع سنوات .

اما مجتمع هؤلاء الباحثين عن الذهب فمجتمع غريب . لقد عاشوا في اكواخ خشبية مسقوفة بصفائح حديدية او تحت خيام بسيطة . وقاسوا الامرين من الغبار والاذية والتهاب الاعين والحمى التيفية . وبرهنوا عن بطولة ، على طريقتهم الخاصة ، وسنوا لانفسهم قانوناً ديموقراطياً مختصراً احترموه احياناً . ولكن حالة الحدة الدائمة التي سيطرت عليهم جعلتهم قادرين على القيام باسوأ اعمال العنف . وقد جرهم تفاوت العدد بين الجنسين الى الفجور ، والدعارة كما ان تجارة

النساء في كاليفورنيا جعلت من الانسان الابيض منافساً رهيباً للرئيس الهندي الذي صعب عليه جمع النساء في حرمه . اضف الى ذلك ان الحفار العامل لحسابه قـــد افسح مكانه شيئاً فشيئاً للعامل المأجور الداخل في خدمة الشركة الرأسمالية التي اعتمدت تقنية اكثر اتقانا .

خلال اربعين سنة سيطرت اميركا الشمالية واوستراليا على سوق المعادن الثمينة. فقد اجريت بين «ارض النار» وآلاسكا اعمال تنقيب منظمة . وجمع الباحثون الذهب الرسوبي من نهر فرازر في كولومبيا البريطانية . واستفادت « ليدفيل » في الكولورادو من بحث واسع مماثل في منحدر « بيكس بيك » : ففي اقل من سنتين خرجت من الارض مدينة مبنية بالقرميدجمعت بـــين ١٥ ٠٠٠ و ٢٠ ٠٠٠ مغامر ، و خمس كنائس و ٢٠ فندقاً ومسرحين وقرابة مائة قـــاعة للاجتماع والرقص ، يضاف اليها الكثير من الحانات والمقامر ؛ وكان فيهـــا بائعو المشروبات ومديرو المحال المذكورة اسياداً مسيطرين ؛ وصدرت فيها اربع صحف منها اثنتان يوميتان . ولكن الفضة كانت اوفر من الذهب ، ممزوجة بالرصاص والنحاس وحتى بالزئبق ، واعتبرها بعضهم نوعا ثانوياً من المعادن الاخرى التي تعيرها الشركات الصناعية اهتماماً اكبر احياناً. ففي ليدفيل مثلاً اهتم الناس على التوالي بالفضة ، والرصاص الممزوج بالفضة ، والزنك ،وهو النحاس ما انقذ « بوت » و « هيلينا » و «اناكوندا » .

تسبب الذهب بعد ذلك في تدفق بشري جديد في اقصى الشمال الاميركي : « كلوندیك» و« آلاسكا» . فقد نزل بين ٣٠ و ٤٠ ٠٠٠ باحث في سكاغواي واجتازوا الجبال التي تفصل بين الباسيفيكي والـ « يوكون» والمحدروا بواسطة الزوارق او الاطواف على نهر الـ « لِوَمس » حتى داوسون سيتي : فاغل المنجم ١٠ ملايين دولار في السنة ١٨٩٨ ، وحتى ٢٢ في السنة ١٩٠١ . وفي السنة ١٩٠٠ حدث تدفق جديد باتجاه شبه جزيرة سيوارد قبالة مضيق بيرنغ ؛ ففي «نوم» التي تسيطر عليها ارياح جليدية ، وحيث انشئت على جناح السرعة حانة وبيت دعارة وملهى، عثر في الرمال ،في اشهر معدودة ، على ذهب تبلغ قيمته اكثر من مليون دولار . وفي السنة ١٩٠٩ ،تكلم الناس عن بحيرة «بوركوبين» بعد ان اظهر فيها حريق طارىء شرايين مرو ابيض.

وعلى الرغم من كل هذا ، فان نصف الكرة الارضية الجنوبية كان قد انتزع ، منذ ١٥ سنة تقريباً ، صولجان الذهب من اميركا التي احتفظت بصولجان المعدن الابيض . ففي اوستراليا توالت الاكتشافات : في مونت مورغان من اعمال كوينسلند وفي «بروكن هل » من اعمال وايلز الجديدة. وحدث ان احد المهاجرين ،مالك الارض التي سيجمع فيها الاخوة مورغان ووليم دارسي ثروة طائلة ، باع الاكر بجنيه استرليني دون ان يعلم بما كانت تخبئه ارضه ومات حزناً . ولكن اوستراليا لم تكن اقل ثروة معدنية واجتذاباً للباحثين : فقد اكتشف الذهب في الصحراء على مسافة ٢٠٠ كيلومتر من « برث » ، ثم اكتشفت كنوز « كولغاردي » على مسافة ٣٠٠ كيلو متر من برث ، في منطقة تتميز بمناخ حار جداً ، وهو العمل ما انقذ المشروع من الخطر بنقله الماء والمؤن والمعدات ، قبل ان تبنى اقنية جر المياه والخطوط الحديدية . فضمن ذلك للقارة

الاوسترالية المرتبة الاولى في السنة ١٩٠٣ .

بيد ان العالم عاد الى الحديث عن افريقيا : وهو عود طبيعي الى بدء ، اذ ان هـــذه القارة كانت قد اعطت اكبر كميات من المعدن الاصفر . اجل لقد بذلت محاولات فاشلة بغية الوصول الى كنوز السودان الاسطورية انطلاقا من الشاطىء الذهبي وعبر السهول المعشبة . ولكن مـــا ذهب بعقل الناس آنذاك هو هضبة « فلد » الجنوبية . فقد توفق احد الـ « بوير » ، في السنة ١٨٦٣ ، الى اكتشاف الحجارة الكريمة الاولى ، ثم اشهر اكتشاف « نجم الجنوب » حقول الماس حول كمبرلي . وكانت شركة « دي بيرز مييننغ » ، التي تولت الامر ،على علم بان الذهب لم يكن بعيدا . فقد اكتشف في السنة ١٨٧٧ في « غريكوالند » ، ولكن حكومة «بريتوريا» حاولت منع الباحثين من فحص الارض لمعرفة ما يحويه جوفها من المعادن فيمنطقة ويتو وترستراند التي قدر بانها اغنى المناطق ثروة معدنية؛ اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الباحثين ما لبثوا ان واجهوا طبقات صوانية تمتد تحت الاتربة والصخور الرملية . ولذلك مست الحاجة الى استخدام الوسائل الآلية ، ولم يتمكن من الاستمرار في العمل سوى المشاريع الكبرى القوية وحدها . وصادف في السنة ١٨٨٧ ان « ماك ارثور » و « فورست » من غلاسكو توفقا الى فصل الذهب عن كبريتور الحديد بواسطة التحليل بالمجرى الكهربائي او بالزنك . فأسست شركة دي‌بيرز فرعا لها هو شركة « الحقول الذهبية في افريقيا الجنوبية » التي عقدت اتفاقات مع شركة شارترد لصاحبها «سسيل رود» وشركة نوبل ، وقد نص الاتفاق مع هذه الاخيرة على ان تقدم النيتروغليسرين القادر على تفكيك المعدن الخام . وقد تغلبت هـــذه المصالح الكبرى في النهاية على اشمئزاز وكراهية البوير بعد تدخل انكليزي مسلح . وكما ان النترات كان سبباً لحرب الباسفيك ، كذلك لم يكن الذهب غريباً عن حرب الـ « ترنسفال » . وهكذا فقد كان مقدراً لافريقيا الجنوبية ، التي بلغ انتاجها من الذهب الناعم ٢٢ طن في السنة ١٨٩١ ، ان تنتج . ١٨ طنا في السنة ١٩٠٦ و ٢٨٣ في السنة ١٩١٢ ؛ كما كان مقدراً لها ان تتفوق بدورها على اوستراليا والولايات المتحدة .

الخلافات والاتفاقات المالية

ادت وفرة المعادن الثمينة الى وفرة النقد . اضف الى ذلك ان حيازة مخزون معدني هام قد سمحت باصدار كميات اكبر حجما من النقد الورقي . فاعتاد الناس استخدام الورقة النقدية كعملة رائجة .

كان النقد المعدني في نظر الساعين وراء الربح التجاري هو الثروة بعينها ، بيـــنما نظر اليه القائلون بمذهب الحرية نظرهم الى وسيلة مقايضة . ولكن سوء الطالع اراد ان لا يكون اداة قياس ثابتة . فهل يتحقق توحيد القواعد النقدية القومية على الاقل يا ترى ؟ لا شك في ان قيام « الاتحاد اللاتيني » في السنة ١٨٦٥ كان سيراً في هذا الاتجاه ؛ الا ان البلدان الانكلوساكسونية لم تقبل بفرنك المائة سنتيم كما لم تقبل من قبل بالنظام المتري .

ولم يكن اختيار العيار النقدي اقل صعوبة . فقد قام نقاش مستمر بين انصار المعدن الواحد

وانصار المعدنين . فقبل السنة ١٨٥٠ ، وبينما لم تعرف آسيا سوى الفضة ، كانت بريطانيا قد اختارت العيار الذهبي ، واختارت اغلبية الدول الاوروبية الاخرى والولايات المتحدة عمليا العيار الذهبي والعيار الفضي معاً . ولما كان تدفق الذهب قد صادف بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٨٧٠ طلب المزيد من الفضة في الهند والشرق الاقصى ، اهتم المسؤولون بالنتائج التي قد تستتبعها اولوية المعدن الابيض . ولكن هذا الاتجاه قد انقلب شيئاً فشيئاً حين تدنى انتاج الذهب وخطا استخراج الذهب بالمقابلة خطوة كبرى الى الامام . ثم جاء الانحطاط الاقتصادي واعاد رباطة الجأش الى انصار المعدنين الذين ساندهم « بارونات الفضة » في الولايات المتحدة . ولكن لمعان نجم الترانسفال واوستراليا وآلاسكا قد اتاح الفرصة لانصار العيار الذهبي لاعتباره قادراً على الوفاء بالحاجات ، بينما كانت قيمة الفضة آخذة بالتدني .

مهما يكن من الامر ، فان الارتباط المتبادل بين حركات الاسعار وحجم النقد المتداول قد بدا وكأنه تأيد تأيداً واضحاً . وعلى غرار « بودين » و « كانتيون » و كثيرين غيرهما ، فكر علماء الاقتصاد القائلون بمذهب الحرية بان نمو حجم المعادن الثمينة مفيد ، وقد سبق لميشال شفالييه ان حيّا ارتفاع انتاج الذهب معتبراً اياه « حدثاً على جانب كبير من الاهمية للجنس البشري بأجمعه » . وكان ماركس قد عارض وحده تقريباً هذه النظرية الكمية للنقد ، اعتباراً منه ان ارتفاع الاسعار مرده الى الكسب الرأسمالي . فكانت من ثم معركة النقد : مظهر المنافسة ؛ والاتفاقات النقدية : مهادنات مؤقتة او جهود لتقاسم الاخطار والمكاسب على السواء . ولكن بعض الاستقرار قد لوحظ على الرغم من الازمات والثورات .

نمو سوق رؤس الاموال والجهاز المصرفي

كتب « كورسل سنوي » في السنة ١٨٤٨ : « لا يحصل دائما على الاعتماد بطرق المواصلات ؛ اما بالاعتماد فالحصول على طرق المواصلات امر مضمون » . وفي كتابه « تاريخ المصرف » ، قارن « ماك لود » الاعتماد بفيضان النيل الخصاب . وقد سبق للسانسيمونيين ان اعتبروه علة قيام كل مشروع كبير .

فالمال من ثم ضروري للعمل . ولكن اين يوجد المال ؟ اعتبر التوفير احتياطيا اساسيا . والتوفير توفير اقتصاد لعمري ، وقد تبارى الصحافيون والسياسيون الاحرار في تعظيم هذه الفضيلة . ولكن من المستحسن ان يتخذ هذا التوفير شكلا اشد نشاطاً .

هذا هو منذ الآن مثل التوفير — التأمين . فالتأمين يستجيب لحاجة الامان ، ولكنه خلاق من حيث هو يتصل بالقرض الطويل الاجل . وقد اهتمت الادارة باكراً بفروعه الثلاثة الرئيسية : التأمين البحري ، التأمين ضد الحريق ، التأمين على الحياة . وفي اواخر القرن ، أمنت ٨٥ شركة بـ ٢٢ ملياراً . وقدر بعضهم ، باتخاذ المعدل ١٠٠ في السنة ١٨٥٠ ، ان حجم التجارة العالمية قد بلغ المعدل ٦٥٠ في السنة ١٩٠٠ وحجم المبالغ المؤمنة بلغ المعدل ٢٥٠٤ . وتعددت

المحادات التأمين الدولية واجرى التأمين على التأمين على نطاق واسع. وربما كان هذا القطاع خير القطاعات لتقدم الراسمالية المـــالية . وكانت معظم الشركات التي تأسست في سويسرا شركات تأمينية . كما كانت الصلة وثيقة بين التأمين والتجارة والملكية العقارية .

بقي المصرف المؤسسة الرئيسية للاعتماد. فقد وفر لاوساط الاعمال مساعدة لا بد منهابشكل حسم. فبينما تأرجح معدل الفائدة تأرجحاً بطيئاً (انخفض شيئاً فشيئاً من ٥ الى ٣ ٪ بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٩٠٠) ، بقي الحسم خاضعاً لحركات فجائية وغير منتظمة. وقد حـــاولت مصارف الدولة الكبرى ، كمصرف انكلترا ومصرف فرنسا ، تنظيم نسبته . وفقدت السفتجة بعض جدورها بفعل التسهيلات الجديدةفي وسائل المواصلات. الا ان لندن قد احتفظت بمركزها الممتاز ، لا بل حسنته ، في ما يعود للسفاتج في المناطق الخارجية . وانتشر استخدام الشك في العالم الانكلوساكسوني اولا ؛ وقد سهل الى حد بعيد تسديد الحسابات بمجرد معاملات كتابية. وليست اوراق الدفع المخزينة سوى اشكال مختلفة للتسليف القصير الاجل . واذا ما لجـأت الحكومات الى القرض ، فانها قد توجهت الى الموفرين توجها مباشرا اكثر منه في السابق؛ولكن ارباح المصارف ما زالت هامة جداً .

هو التسليف الطويل الاجل ما اتاح توظيف رؤوس اموال كبرى في الحقل الصناعي والتجاري. فتوسع فرع الاموال المنقولة من ثم توسعاً عظيماً . وقد نشر «برودون» في السنة ١٨٥٣« كتاب المضارب في المصفق » احتجاجاً على « عصر التخذ المصفق واعماله لوحة وصايا إلهية » ، والمصفق فلسفة ، والمصفق سياسة ، والمصفق علمـاً اخلاقياً ، والمصفق وطناً وكنيسة » . ونمت صحافة مالية ، وقامت الصحف الكبرى بدعاوة فعالة لخدمة اصدار الاوراق المالية . ثم جاء التشريع في حينه يخفف من وطأة تجارة المال . ففي السنة ١٨٥٨ صدر قانون يوسع حريات « الشركات المالية المتحدة » ؛ وفي السنة ١٨٦٣ والسنة ١٨٦٧ ،شجعت الامبراطورية الثانية قيام الشركات المحدودة المسؤولية . واذا لم يصدر سمـــاسرة «لومبارد ستريت » في لندن سوى نشرة يومية واحدة في السنة ١٨٦ ، فانهم قد اصدروا ١٦ نشرة يومية حوالي السنة ١٩٠٠ انطوت على ٤٠٠٠ بيان بالاسعار . فتعاظم دور شارع فيفيان في باريس ، و « وول ستريت » في لندن ، و « اورانينبورغرستراس » في برلين . وفي مصفق باريس بلغ مجموع النقد المقايض ٤٨٥٠ مليوناً في السنة ١٨٣٠ ، و ٨٩٨٠ مليوناً في السنة ١٨٥٠ ، و ٢٥٦١٢ مليونـــاً في السنة ١٨٨٩؛ ثم بلغ ٨٧ ملياراً في السنة ١٩٠٠ .

استلزم توزيع الاعتماد اجهزة اكثر عدداً واعظم تخصصاً. ففي اساس النظام احتفظت مصارف الاصدار بمركزها الممتاز ، منظمة نسبة الحسم ، ومزاولة دور تسوية وتعديل (دور المكتب المركزي) ، وموافقة على تسليف السلطات العامة . ولكن مصارف الاعمال المساهمة قـــد تكاثرت ، وجرت في الوقت نفسه عملية توزيع بين المصارف الحديثة منها ، التي اهتمت بشؤون التوفير ، وبين بعض المؤسسات القديمة — المصرف الفرنسي السامي مثلاً الذي يعود الى النصف

الاول من القرن – التي تخصصت في رقابة الاعمال الكبرى. «ولم يتم هذا التوزيع دون منازعات؛ فالمنازعة بين « بيرير » و « تالابو » في فرنسا واوروبا البرية على امتلاك خطوط المواصلات الكبرى ليست سوى احد هذه الخلافات المعروفة جيداً ؛ وبعد ان تغلبت على مصرف التسليف ، استفادت مجموعة « روتشليد » في السنة ١٨٨٢ من تضعضع الاتحاد العام الذي كان يحاول بدوره منازعته السيطرة. اضف الى ذلك ان مثل هذه التنازعات امر مألوف في الولايات المتحدة. وقد كان لها صداها البعيد في الحياة السياسية . ومهما يكن من امر ، فان العالم المالي قد وطد مركزه الاجتماعي .

نمو المشاريع الرأسمالية

قال « باستيا » عن المنافسة : « انها اكثر القوانين تقدمية ومساواة وجماعية من بين القوانين التي وكلت اليها العناية الالهية تقدم المصائر البشرية » . بفضل هذا المنبه ، وفي مناخ الحرية السياسية والقضائية ، ارتفع عدد المؤسسات الصناعية والتجارية ارتفاعاً سريعاً . وهو اتجاه استفاد ، من جهة ثانية ، من توسع عملية التسليف ، وتقسيم العمل ، والنجاحات التقنية ، وحاجات الحضارة الغربية .

وجدت الحرفة الصغرى والحانوت علة وجود جديدة في هذا التخصص . وما زالت المهارة اليدوية ، التي انقذت الكثير من الصناعات التقليدية ، ضرورية جداً في الانتاج الصغير الحجم . وتقدمت بعض فروع الصناعات المنزلية لانها استخدمت صناعيين يدويين ابعدوا عن عملهم او بدا عاملة نسائية : وهذا ما حدث في صناعة الالبسة والخياطة وصناعة الملابس الداخلية. ونمت تجارة التفصيل ، على الرغم من ان المخازن الكبرى قد انتشرت انتشاراً عظيماً ايضاً .

ولكن الحدث الذي لفت الانظار هو التوسع الذي عرفته الشركة المحدودة المسؤولية. فان الاموال الطائلة التي وظفت في المانيا بعد السنة ١٨٧١ قد ادت الى قيام ٧٨٠ شركة خلال سنتين ، وان الشركات الـ ٧٩٣٩ التي احصتها الادارة الاميرية الفرنسية في السنة ١٩٠١ قد ارتفعت رؤوس اموالها الى ٣٦ ملياراً . ولكن مشاريع كثيرة لم تعرف سوى وجود سريع الزوال . فكل ارتفاع في الاسعار بعث ازدهاراً جديداً ، وكل ازمة او كل هبوط ادى الى الافلاسات . هذا هو الانتقاء الطبيعي في نظر الاقتصاديين الاحرار : انما الغلبة للاذكياء والاقوياء في النهاية : فلا يمكن من ثم ان يتوالى تكاثر المشاريع الى ما لا نهاية له ، لان ذلك قد يضر بانتاجية الاعمال نفسها .

وينجم عن ذلك ان نظام التنافس يفضي ايضاً الى الحصر الذي يفضي بدوره الى الاحتكار ويميل طبعاً لملاشاة هذا النظام . ولكن التخصص ادى منذ البدء الى هذه النتيجة : ان القطاع المستثمر حديثاً عرضة لان يسيطر عليه عدد صغير جدا من المشاريع .

شوهد تأيد هذا الاتجاه الآخر منذ البداية في صناعة الحبال السلكية وصناعة النفط كلما جدت جدة في صناعة المعادن او الكيمياء . وكانت الصناعة المنجمية الالمانية احدث عهداً من الصناعتين البريطانية والفرنسية فتجمعت وانحصرت اكثر منهما. فلم يقل عدد الشركات الفحمية

عن ٧٠٠ في الارخبيل بينما نحن نرى في الرور ان اربع او خمس مؤسسات قد أشرفت على صناعة الفحم منذ السنة ١٨٨٠ . وهو الحصر الافقي ما برز في البداية . ولكن « كيردوف » و « ستنس » ثم « تيسن » ، انطلاقاً من الفحم الحجري ، و « كروب » ، انطلاقاً من صناعة المعادن ، قد اشرفوا منذئذ على اشكال اولية للحصر العمودي بايجادهم اسواقهم الخاصة للبيع ووسائلهم الخاصة للنقل . ومنذ تأسيسها في السنة ١٨٣٧ ، اتجهت « شركة الجبل القديم » طبعاً الى تنظيم صناعة الزنك تنظيماً يخدم مصلحتها . وبعد معاهدة التجارة المعقودة في السنة ١٨٦٠ ، جمعت « لجنة المصاهر » العدد الاكبر من ارباب صناعة الفولاذ الفرنسية . وبالاختصار اذا ما كان مناخ البلدان الحديثة العهد في الانتاج الكبير اكثر ملاءمة للحصر ، فان الحصر يبدو تلقائيا وكأنه تدبير دفاعي غريزي لاتقاء الاخطار يُتخذ اثناء الصراع الذي يقوم بين مؤسسات متفاوتة القوى .

تعاظم دور مقرض المال واتسعت في الوقت نفسه المسافة بين المتعهد والمساهم . وربحت الشركة المساهمة على حساب المشروع الفردي او العائلي ، بحيث قامت صلات وثقى بين مؤسسات الفرع الواحد ومؤسسات الفروع المختلفة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان التجمع المصرفي كان شرطاً ونتيجة معاً لادارة رأس المال ؛ وقدولد بدوره التجمع الصناعي والتجاري . ولكن الاتفاقات قد نجمت على الرغم من ذلك من تنسيق جغرافي للنشاطات سهله تقصير المسافات وتوسيع الآفاق . وقد استهدفت بصورة طبيعية تحسين تنظيم العمل بتجمعات جديدة تتيح مطابقة العرض على الطلب مطابقة اكثر دقة . وهذا ما عبرت عنه مفردات خاصة : « موافقة سكرام الاخلاق » ، « الشراكات » ، اسواق البيع ، الجمعيات ، النقابات ، الاستثمارات ، التجمع الافقي والتجمع العمودي ، الانصهار ، الضم .

الوجوه الرأسمالية الكبرى

« ان مستقبل فرنسا لا يختلج بعد اليوم في شارع سان — دنيس ، وساحة « غريف » ، الارض الكلاسيكية لاندلاع الثورة ، بل في شارع فيفيان وساحة « فندوم » ، عند « بيرير » وعندكم » . (من رسالة « جول فاليس » الى جول « ميريس » ، ١٨٥٧) .

يتوقف النجاح على الانسان الذي يقود الزورق ، ذلك « الانسان المسكوني » ، الجريء والمتبصر ، القادر على التضحية بصحته وملذاته اليومية ، سعياً منه وراء القوة المادية والمال ، واقتناعاً بأن عليه ان يلعب دوراً مفيداً ، وبأن على المجتمع عدم مطالبته بالعظمة والثروة لانه يعمل للتقدم العام ويوزع المهام ويستطيع ان يظهر بمظهر نصير الانسانية . وقد اعرب له جوريس عن تقديره واحترامه : « ان في الانتاج البورجوازي وقوته وتجدده التقني المستمر ومسؤولياته المتجددة ابدا لداقعاً عظيماً لطاقات العمل عند من يشرفون عليه » .

تعايشت الفئات الرئيسية الثلاث تعايشاً كاملاً : التاجر الذي تقلقه بصورة خاصة حاجات

السوق وامكاناتها (الرأسمالية التجارية) ، والصناعي الذي يستنزف نشاطه في الحقل التقني (الرأسمالية الصناعية) ، والصيرفي الذي يجمع رؤوس الاموال ويستخدمها (الرأسمالية المالية). وربما كان من العبث محاولة تمييز مرحلة اولى قد يمكن ان تكون مرحلة المؤسسين ، التي قد تليها مرحلة ثانية تعرف بمرحلة المحققين . ولا شك في ان عباقرة الاجيال السابقة غالباً ما اصبحوا آباء لسلالات كبرى ، ولكن استثمار طريقة او فكرة او موقف قد يؤدي في كل آن الى بروز مؤسسين جدد . وغالبا ما المحدر حديثو العهد بالثروة من اصل وضيع : فاذا ما ذكرت اميركا « روكفلر » و « وفاندربلت » كابني فلاحين ، و « كرنجي » كابن حائك ، وهاريمان كابن راع معوز ، واذا كان « سلفردج » ، مؤسس المخازن الكبرى في شيكاغو ثم في لندن ، قد بدأ حياته خادماً في ميدان السباق ، فان هيريو و شوشار كانا بائعين عاديين قبل ان يؤسسا الـ «لوفر» و «جاندورف» و«تياتس» و «ورتهايم»، مؤسسي المخازن البرلينية الكبرى ، قد كانوا من قبل اصحاب حوانيت صغرى، شانهم في ذلك شان بوسيكو؛ كما ان «باس» ، ملك صناعة الجعة الانكليزية، كان حوذيا ، و«جوسنغ ماسون» الذي اسهمت ريشته المعدنية في اثراء برمنغهام قد كان بياعاً جوالاً في الطرقات والارياف .

بيد ان غيرهم قد تحلى بثقافة تقنية وحتى علمية : بسمر، اميل راتنو ، سيمنس . وقد تردد معظمهم في امرهم قبل ان يهتدوا الى الطريق التي سيجدون فيها الشهرة والثروة . ودان بعضهم بالكثير للحروب والازمات التي اتاحت لهم تحقيق مضاربات جريئة . ولكن لكل الفروع «مغامريها الفاتحين » : فان براسي قد فرض نفسه متعهداً للخطوط الحديدية ، وجوزف طوم في البناء ، وموند في صناعة ملح القلى ، وكوهلمن وبيشيناي في صناعة الكلور ، و ريتز في العمل الفندقي ، وبولنك في المصنوعات الصيدلية ، و كروسلي في صناعة طنافس هاليفاكس ، و وورث وغيلدرو و باكين في الخياطة ، و مارينوني في الطباعة وغوردون بنت و ويليسان و ميلو و جان ديبوي في الصحافة ؛ وما زلنا نتذكر كبار بنائي السفن من امثال كونار و اسماي و ويلرايت وبورن و الان و رود ولكن « هبوليت وورمس » هو من زود مرافىء التموين بالفحم الحجري ، وجدد « بوتين » طرائق تجارة الافاويه ، ولكن لويس دريفوس قد نظم تجارة الحبوب . واذا حافظ المصرف – العالي المفاخر بتقاليده على مركزه ، فانه قد اضطر لان يفسح مكاناً لـ « بيرير » وهنري جرمان وتشرنوسكي و لازار . وغني عن البيان ان المؤسسات الموطدة الاركان قد حافظت على مستواها او استمرت في سيرها الصاعد احيانا . وما زالت كذلك في سيرها الصاعد اعمال عائلة روتشيلد التي لم تترك فرصة تفوتها دون استثمار اموالها؛ واذا ما تقهقر مصرف بارينغ الشهير قديماً فان تقهقره لظاهرة استثنائية .وقد توالت اجيال عدة عند آل شنيدر و وندل و دميدوف وكروب في الصناعة المعدنية الثقيلة وآل بوجو وجابي وكوشلين في الصناعات الآلية ، وآل دولفوس وشلومبرجيه في خيوط الخياطة وآل ميكيليه–نوبلو في الصناعات القطنية المختلفة، وآل سان في صناعة الانسجة الكتانية والحبال،

وآل ماريلاي في صناعة الورق ، وآل فيلورين في انتاج الحبوب ، وآل منسي وكولانيه وكوانترو وبرنو في صناعة المشروبات . ويلفت الانتباه كذلك ان توظيف الاموال في الاملاك الغير المنقولة ما زال مرغوباً فيه جداً : ففي نيويورك «كدس استور وجيرينه ثروات طائلة ببيع الاراضي للبناء ، في حال ان ارستوقراطية الاعمال في أوروبا قد ابتاعت القصور واعادت تذهيب اشعرة الشرف القديمة .

تجنيد اليد العاملة المأجورة

ما كان هؤلاء العظماء ليستطيعوا شيئاً الا بتجنيد الجماهير المكرهة على بيع طاقتها العملية . وبفضل هجرة الارياف الواسعة تعبأ جيش المأجورين الذين هاجر بعضهم الى اميركا ودخلوا في خدمة مشاريعها . زد على ذلك ان المرتكز الى الكسب قد أبعد الوسط الزراعي عن الاعمال التي تستهدف مجرد سد الحاجات الاولية ، وان توسع المدن قد انمى نشاطات موافقة لتوسع الاسواق .

اذا كان نظام الاجور مرتبطاً بالنظام الرأسمالي ، فمرد ذلك الى ان هذا الاخير يعتبر قوة العمل سلعة تخضع لسنّة العرض والطلب . وانما يميل مذهب الحرية الاقتصادية الى تأمين العمل بهذه السنة . لا بل ان ماركس ، الذي عاش الصراع المتكرر ضد النظام التعاوني من جهة ، وضد الرق والفدادية من جهة اخرى ، قد استخلص من ذلك ان استثمار المأجور يفسر الكسب الرأسمالي . وقد استطاع توكفيل ان يكتب ما يلي : «ماذا نفعل حين نمنع الزنوج مؤقتاً من امتلاك الارض ؟ اننا نضعهم في موقف العامل الاوروبي». اما كورنو فقد شك في ان الغيرة على الاعتناء بخير البشر ستفلح في التوصل الى إلغاء الرق . بيد ان العبودية كانت تبدو منافية للاستثمار الموسع الذي يستجيب لمتطلبات الغرب . والدليل على ذلك ان المطالبة بالغاء الرق لم تجد سنداً اثبت من اوساط الاعمال ؛ فان ستيفنس الصناعي المشهور من بنسيلفانيا ، و «جاي كوك» الصيرفي ومؤسس شركة الباسيفيكي الشمالي هما من ادارا عملية تجديدالبناء . وهذان الرجلان نفساهما هما من استصدرا قانوناً غايته اعمار الغرب بالمستعمرين الاحرار . ولذلك فان الاقتصاد الرأسمالي ، الذي توفرت لديه وسائل الانتاج ، قد استطاع دون غيره تجنيد الفلاح المبعد عن حقله والفدادي السابق والعبد السابق المجردين عن الاراضي .

حرية المقايضات

حدثت في منتصف القرن ثورة تجارية حقيقية . كانت الرأسمالية منطقية مع نفسها ، فأرادت تحطيم العوائق القائمة في سبيل حركة انتقال البضائع انتقالاً حراً . فحدث تيار قوي يقول بحرية المقايضة في الفترة الممتدة من السنة ١٨٤٠ حتى السنة ١٨٧٠ ، وهي الفترة التي تحقق فيها ارتفاع سريع في حجم المعاملات ، وانتشار التسليف ونمو وسائل المواصلات . وهي بريطانيا العظمى ، المتمتعة بمركز صدارة لا ينازعها اياه منازع في حقول المال والتجارة والتقنية ، التي اعطت المثل بسلوكها هذه الطريق ؛ فمدرستها المنشستيرية هي التي قامت بحملة ناشطة من اجل سوق عالمية موحدة ، مستندة في دعاوتها الى

الفوائد التي يجنيها السلم والتقدم – المرتبطان ارتباطاً وثيقاً على كل حال – من ضمان اشد قوة بين الشعوب والافراد على السواء بفضل تقسيم العمل تقسيماً مبنياً على العقل .

اجل كان محتوماً ان مثل هذه الحركة أن تصطدم بالروح القومية . ولكن التجارة الحرة ، بشكل معاهدات تجارية تفرض تخفيضاً ملموساً على رسوم الاستيراد والتصدير ، قد وافقت الدول الصغرى – بلجيكا وهولندا – التي تعيش من تجارة مرور البضائع . لا بل ان اسبانيا وروسيا نفسيهما قد تخلتا عن موقفهما المتصلب المعاكس . ولكن فاتحة عهد الاتفاقات الناصة على المقايضة الحرة تعود في الواقع الى الانقلاب الجركي الذي قام به نابوليون الثالث ضد مجموع ارباب المهن المتمسكين بمذهب حماية الصناعة الوطنية .

ان هذه السياسة التي شجعت المقايضات بين الدول وكانت حافزاً لتجديد التقنيات ، قد كانت في الوقت نفسه بمثابة ناقوس نعي « الحصرية » المزعزعة قبلا . ثم خطت بريطانيا العظمى خطوة اخرى الى الامام ، فألغت الحقوق التفضيلية ، ومالت الى منح المستعمرات « الحكم الذاتي » ، فوافقت حيالها على معاملة الباب المفتوح . ثم زالت « الحصرية » الفرنسية بدورها بعد السنة ١٨٤٨ . فزالت شركة الهند الانكليزية من الوجود بعد ثورة الجنود البلديين . وعلى غرار نظام الامتيازات الذي بموجبه منحت الامبراطورية العثمانية « الفرنجة » بعض الحصانات ، فتحت الدول الآسيوية ابوابها تحت ضغط الاوروبيين السلمي او المسلح . وفي الاتجاه نفسه – الميل الى الباب المفتوح – عدلت دولة الكونغو الحرة في السنة ١٨٨٥ عن فرض اي رسم على دخول البضائع الاجنبية . وحتى في السنة ١٩٠٦ سنرى وثيقة « الجزيرة » حول مراكش تستوحي فكرة المقايضة الحرة .

وعن طريق الاتفاقات الدولية سُوّي حبياً عدد معين من المسائل التقنية والاقتصادية التي تهم مجموع الامم . فقد تأسست سبعة أجهزة دولية قبل السنة ١٨٥٧ – بما فيها لجنة الدانوب الاوروبية التي تأسست في معاهدة باريس في السنة ١٨٥٦ ؛ ورأت النور ١٢٨ لجنة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ . فنجم عن ذلك قيام اتحادات دولية كان عددها ٧ في السنة ١٨٦٤ ، ثم اصبح ٢٣ في السنة ١٩١٤ . وكانت هذه الاتحادات في البدء اوروبية في الدرجة الاولى ، ثم شملت او استهدفت شمل كافة اقطار العالم . وقد عني معظمها بالمواصلات وانتقال البضائع . أما أول اتفاقية من هذا النوع فهي الاتحاد التلغرافي الذي تأسس في السنة ١٨٦٥ . وفي السنة ١٨٧٤ أبصر النور في برلين الاتحاد البريدي العالمي الذي سيعاد تنظيمه في اتفاقية رومافي السنة ١٩٠٦ . وفي احد المؤتمرات اختيرت باريس مركزاً لاتحاد من اجل توحيد النظام المتري بين الدول ، وأقر في اتفاق آخر تنظيم الطرق البحرية . وعقدت مؤتمرات اخرى ، من اجل الكونغو في برلين (١٨٨٤ – ٨٥) ، ومن أجل تدويل قناة السويس في القسطنطينية (١٨٨٨) .

الحركة العالمية الدائرية للمقايضات

اذا كانت التجارة بين الدول تقدر بمليارين ونصف المليار حوالي السنة ١٨٠٠ ، فقد ارتفعت الى ٢٧ ملياراً في السنة ١٨٥٠ والى ١٠٠ في السنة ١٩٠٠ . ويقدر الخبراء ان معدل التجارة في بريطانيا العظمى قد ارتفع خلال قرن من ١ الى ١٤ ، وفي فرنسا الى ١٥ ، وفي ألمانيا الى ٣٤ ، وفي الولايات المتحدة الى ١٤٩ . الا أن بريطانيا العظمى قد احتفظت بالمركز الاول باحتكارها سدس مجموع المعاملات التجارية العالمية .

واشتدت المنافسة وتقسيم العمل اتجاهين أساسيين . فكان هناك أولاً نوع من التوزيع الافقي للنشاط بين الدول المتطورة صناعياً ؛ وكان ذلك نتيجة عجز كل منها عن أن تكفي نفسها بنفسها : فان فرنسا وبريطانيا العظمى مثلا قد تبادلتا شراء الكثير من المصنوعات الرائجة. ثم حدث تقسيم عمودي للعمل : فمن جهة طلبت اوروبا من القارات الاخرى الخامات الزراعية والصناعية ، بغية تحويلها بنفسها ؛ ومن جهة ثانية زودت الدول الجديدة النامية بالمصنوعات . وقد سهل توظيف رؤوس الاموال هذه الحركة الدائرية ، لأن رؤوس الاموال تنشط استثمار المناطق المتخلفة وتزيد من قدرة سكانها على الشراء . وجملة القول ان العالم كان سائراً في طريق التحول الى مجموعة اقتصادية وحيدة عظيمة مرتبطة بالرأسمالية الاوروبية ، وانه جاز للبريطانيين الاعتقاد بأن موقفهم خير موقف لجني خير الثمار من مثل هذا النظام .

إعلام واسع وإعلان نشط

ارتكز حسن سير التجارة العظمى الى معرفة السلع التجارية والحاجات. ولكن الجهاز القادر على تجميع كافة المعطيات لم يكن متوفراً . فقد انشئت دوائر استعلامات في لندن أولا ، ثم في نيويورك وباريس ؛ وتوفر لبرلين ٧٥٠ ٠٠٠ جذاذة في السنة ١٨٩٠ . وعقدت مؤتمرات الاحصاء الاولى وتناولت موضوع المعارض عندما سنحت الظروف . وابرزت صحف عديدة كال « اقتصادي » (ايكونومست) و « صحيفة الاقتصاديين » ، و « الاقتصادي الفرنسي » معلومات ومستندات وفيرة. وفي السنة ١٨٧٩ عقد في بروكسل مؤتمر للجغرافية التجارية .

كانت السوق الدورية ، من قبل ، ملتقى الشارين والباعة . ثم تلاشت اهميتها ولم يبق منها حوالى السنة ١٩٠٠ سوى سوق النماذج وسوق العرض . ومرد ذلك الى ان التفاوض في المعاملات التجارية اصبح يجري في المصافق أي في اجهزة دائمة تقرر فيها الصفقات نقداً ولآجال معينة في الدرجة الاولى . فعقد البيع المؤجل قد نظم المعاملات التجارية التي تتناول كميات كبرى من السلع بين اطراف تفصل بينهم مسافات كبرى . ولكن المضاربة قامت الى جانب وظيفة المصفق الطبيعية ، من حيث أن البائع يرجح تدني الاسعار لأنه يكسب عند التسليم ، بينما يحسب الشاري حساب مكاسب الارتفاع ؛ ومما يؤيد ذلك ان التفاوض غالباً ما تناول سلفاً وهمية وكان أشبه ما يكون بالمراهنة . فقد تناول التفاوض حصيد قمح او قطن مقبلا ومنسوجات او مصنوعات معدنية لم تخرج بعد من المصانع . ومنذ السنة ١٨٤٤ ، مست الحاجة في لندن الى

تشييد بناء لـ « لمقايضة الملكية » بغية التخلي عن البناء القديم لـ « مقايضة المخزونات» ثم تأيـــد التخصص شيئاً فشيئاً ! فتقرر مصير القطن في ليفربول والهافر وبرمن ونيويورك، ومصير الحرير

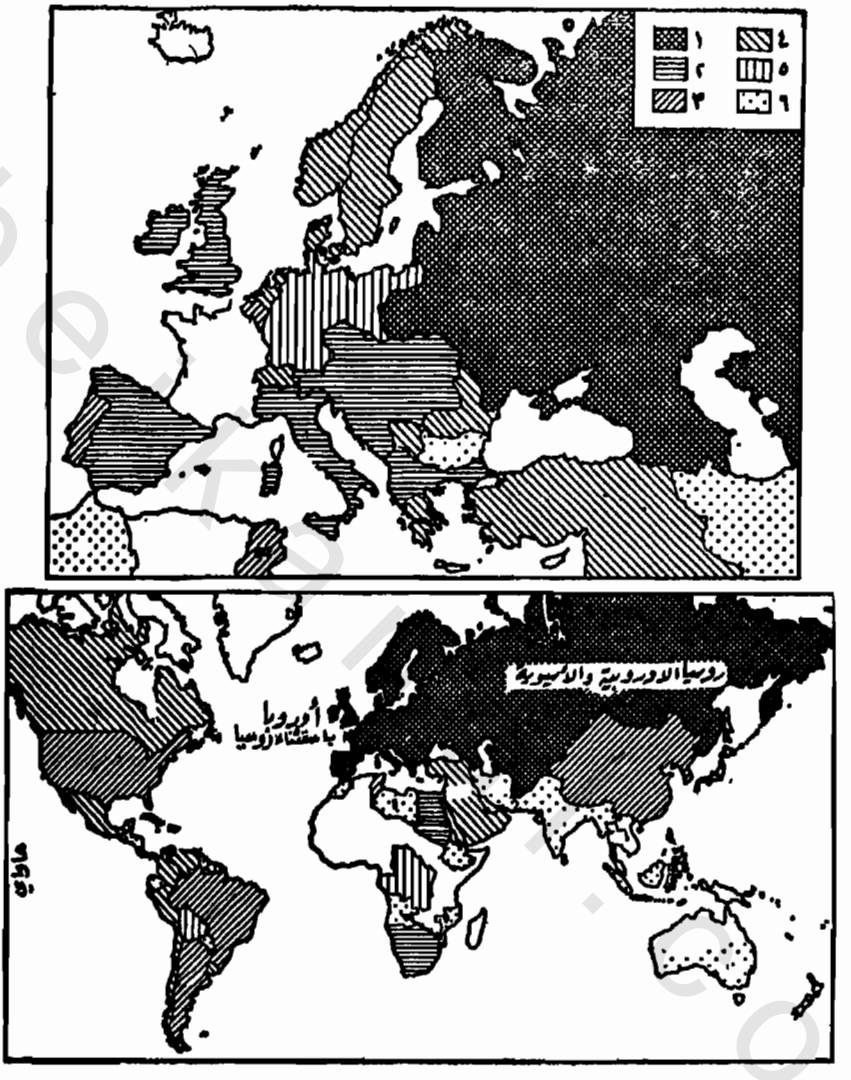

شكل رقم ١٠ ـ الثروة الفرنسية في الخارج

١ ، توظيف اكثر من خمس مليارات ؛ ٢ ، بين مليار وخمسة مليارات ؛ ٣ ، بين ٥٠٠ مليون ومليـــار ؛ ٤ ، بين ١٠٠ مليون و ٥٠٠ مليون ؛ ٥ ، بين ٥٠ مليونا و ١٠٠ مليون ؛ ٦ ، اقل من ٥٠ مليونا .

« نقلا عن التحقيق الذي اجري في السنة ١٩٠٢ »

في ليون وميلانو ، ومصير الحبوب في انفرس ومرسيليا وشيكاغو . وكان من عدد العمليات في لندن ان مراكز الاجتماع قد تكاثرت : فقصر الهم في « مـــارك لاين » على الحبوب ، وفي

« منسخ لاين » على الشاي ، الخ . وفي ما مضى، اختلف سعر الحبوب بين منطقة انتاج واخرى: ولكن التجارة الكبرى توصلت شيئاً فشيئاً الى فرض الاسعار وفاقاً للحصيد والطلب العالميين . ومن ضفاف الـ « ميشيغن » الى ضفاف الـ « مرسي » ، ومن مونتريال وسيدني وبوينوس ايرس الى لندن اعطيت المعلومات يومياً ، بواسطة التلغراف ، حول اهمية المخزونات والمحاصيل المرتقبة وطلبات البضائع والاسعار المتداولة . وركزت مؤسسات الحرير اهتمامها على ظروف الصناعة ، التي غدت بمثابة تحكيم تقني حقيقي في موضوع النوعية .

وتعاظم دور الوكالات . فسارت « هافاس » قدماً في طريقها الصاعدة: وقد توصلت شبكة فروعها ، التي كانت على اتصال تلغرافي يومي بالوكالة الام، الى ضم الصحافة الفرنسية في الولايات. وغدت « رويتر » في لندن اكبر جهاز اخباري في العالم : فان الابن الثالث للحاخام «امسرائيل بير » قد امن الخدمة بين العاصمة الانكليزية والبر الاوروبي منذ السنة ١٨٥١ ؛ وفي السنة ١٨٥٩ فاز بموافقة صحيفة الـ « تايمس» على نشر البرقيات حول الحرب الايطالية؛ وخلال حرب الانفصال اعطى الاخبار بواسطة مركب بخاري يلاقي السفن الآتية من اميركا في عـــرض البحر ؛ وفي السنة ١٨٦٦ استحصل على امتياز حبل سلكي يصل لنـــدن بالهند مباشرة.

كان « بارنوم » مثال المخرق العصري ، وربما عاد اليه فضل ترويج اللون الاعلاني :فبعد ان عرف « طوم بوس » الشهرة بواسطة الدعاوة ، دون آراءه حول من جمع الثروة باستغلال فضول البشر وسرعة تصديقهم المفرطة (« خدائع العالم » ، ١٨٦٥). فلجأ الثلاثي « موريسوف » — « بار » — « هولواي » آنذاك الى الاعلان لتمجيد الاقراص الدوائية، وزاد « غوردن بنيت » من نسخ صحيفته « نيويورك هارولد » بفضل ادراجات يشتبه في مغزاها الاخلاقي . ودان اميركي آخر هو « سلفردج » للاعلان الصاخب بنجاح مخزنه في ساحة لندن . وقابل الدعاوة لصابون « بير » الدعاوة لصابون « سن لايت » ، واستخدم لبتون طرائق جديرة بـ « بارنوم » لتصريف شايه في الاسواق الانكليزية . وقد اشمأز كثيرون من المصباح السحري الذي عكس على عمود نلسون دعاوات للساعات او المواد الصيدلية . فدخل الاعلان نهائياً في الاعراف الصحفية التي اسهم في افسادها اسهاماً كبيراً، ولكنه لم يسدّ مسد المقال المدفوع الذي كان يخدم ، بحجـــة الاعلام ، هذه الصفقة التجارية او تلك . فاستمر الاستيلاء على الرأي العام بواسطة المال .

وقد جندت الرغبة في هذا الاستيلاء كذلك البيانات والجداول الاعلانية الـــتي وزعت في الطرق العامة او ارسلت الى المنازل . فلا عجب من ثم اذا ما علمنا بأن طوماس هولواي كرس نصف مليون دولار لتعريف الاميركيين بأقراصه الدوائية في السنة ١٨٥٠ . فهل يجب ان نرفض شهادة الراعي الالماني الذي ذكر انه استلم ١٣٥٥٧ صفحة من المنشورات التجاريـــة في السنة ١٨٩٩ ؟ ان من المسلم به ان الدعاوة في فرنسا حوالي السنة ١٩٠٠ قد كلفت زهاء ١٠٠ مليون خصص اربعون مليوناً منها للاعلانات في الصحف . ولكن الاعلان قـــد غزا المناظر الطبيعية . فبواسطة الاعلانات المعلقة على الجدران فُرض الاعلان فرضاً على البصر في شوارع

المدن والطرقات وقاعات الاجتماع والمسارح . فقد اعتبر الاعلان المعلق اداة نظرية للدعاوة وقد ولد بولادة الطبع على الحجر ومكابس الطباعة الكبرى ، وبدافع الرغبة في مقابلة الانتاج الكبير بتوزيع كبير على مستواه . فكان الاعلان مزعجاً بملازمته للرائين ولكن أثره الجماعي كان عظيماً جداً .

دين اوروبا على العالم

كانت الرأسمالية الاوروبية في موقف المسلف الجليل الفائدة . اجل ان هذا الموقف كان منطوياً على اخطار كثيرة ؛ ولكنه قد وفر لهـا دخولات كبرى وسمح لها في الوقت نفسه بتنشيط الحركة التجارية الدائرية . فكان من ثم عدد صغير جداً من البلدان بمثابة صيارفة للدول الاخرى لقاء دخل تقتطعه منها . وباستطاعتنا تقدير هذا الدين بـ ١٥٠ ملياراً حوالي السنة ١٩٠٠ يعود اكثر من نصفها الى بريطانيا العظمى . وقـد توزع قرابة ثلث الاوراق التجارية الفرنسية في الخارج . ويجدر لفت النظر هنا الى ان توظيف الاموال في المستعمرات لا يمثل سوى نسبة مئوية ضئيلة جداً .

كان التعويض الفرنسي لألمانيا مفيداً لمشاريع الحكومة الالمانية في الدرجة الاولى ؛ ولكن حصيلة التوفير الجرماني ، بعد أزمة السنة ١٨٧٣ ، ولا سيما بعد السنة ١٨٨٠ ، قـد سلكت بالتفضيل طريق الخارج (وقد تشكى بسمارك نفسه من ذلك لدى مصرف « بلايخرودر ») : فقد اتجهت اما بشطر الولايات المتحدة او اميركا اللاتينية ، واما شطر اوروبا الوسطى المجاورة . واذا بدأت الولايات المتحدة تصدر الرساميل الى اميركا اللاتينية ، فان المال الاوروبي ما زال يستثمر فيها . ولما كان المكتتب البريطاني منكباً على العموم الى الطبقات الاجتماعية الميسورة ، وواقفاً على وضع السوق التجارية ، فقد ساند ، في اوروبا وسواها ، معظم المشاريع التي تتطلب مصنوعات بريطانية . فهو قد فكر ، قبل السنة ١٨٥٠ ، بالبر الاوروبي القريب خصوصاً ، مـع اهتمامه منذ ذلك الحين بأميركا . ومنذ السنة ١٨٥٠ ، توسع افقه واهتم اكثر فأكثر بالبـلدان النامية وبمستعمراته .

ما زالت بعض رؤوس الاموال المتوفرة توظف في انحاء اوروبا . وقد سارت في اتجاهـين منفصلين هما الشرق والجنوب اللذان كانا اعجز من ان يجهزا بالادوات بوسائلها الخـاصة . ففي الشرق اصبحت الامبراطورية الروسية ، منذ السنـة ١٨٨٠ ، المستعمرة الاوروبية الرئيسية للرأسماليين الفرنسيين .

ان الشرق لميدان عمل واسع : مشاريع خطوط حديدية ومرافىء ومناجـم ، وقروض للحكومات الفقيرة ، وعمليات اخرى كثيرة ، مغرية ومحفوفة بالاخطار معاً ، قد تنجم عنها ملابسات سياسية شتى . وكان هنالك ميدان مفضل آخر للمسلفين : امـيركا اللاتينية حيث احرزت سوق لندن تقدماً ما زالت تحافظ عليه . اما الشرق الاقصى فقد كان له سحره القوي على الرغم من بروزه متأخراً ؛ وهنا ايضاً كانت السيطرة للندن .

وحبذا لو نستطيع تقدير النفوذ الذي توصلت اليه المؤسسات التجارية الكبرى في البلدان التي عملت فيها : فانها كانت دولا حقيقية داخل بعض الدول .

ازمات الرأسمالية

لم يكن ارتقاء الرأسمالية منتظماً . وقد سبق لـ « سيسموندي » ان تنبأ بحتمية الأزمات الدورية التي تلازم نظاماً يحكم على نفسه بالاكثار من الانتاج احياناً بفعل اقتطاعه الارباح من اجور اليد العاملة . لا بل برهن ماركس وانجلز ان الرأسمالية منتهية حتماً الى الاضمحلال بفعل متناقضاتها . وقد مثل «جوغلار» الازمات بمراحل الانتقال من عهود الازدهار الى عهود التقهقر التي شبهها « باريتو » و « والراس » ، تلميذ « كورنو » ، بالحركات التذبذبية . وقد عزاها « جيفونس » انذاك لاسباب كونية .

بدت الظاهرة وكانها حركة دورية ، يتألف الدور فيها من مرحلة مؤاتية ومرحلة غير مؤاتية ويستغرق عشر سنوات تقريباً . وهذا ما حدث منذ السنة ١٨١٥ ؛ وهذا ما سيحدث بعد السنة ١٨٥٠ ، اذ تعاقبت الازمات الهامة في السنوات ١٨٥٧ ، و١٨٦٦ ، و١٨٧٣ ، و ١٨٨٢ – ٨٤ ، و ١٨٩٠ ، و ١٩٠٠ – ٠١ ، و ١٩٠٧ . ولكن بينما كانت الازمة ، في السنة ١٨٤٧ ، ازمة نظام قديمة او ازمة من الطراز السابق للرأسمالية ، التي تبرز في القطاع الزراعي اولا والتي يكون عاملها الرئيسي افتقاراً الى المواد الغذائية ، نرى على نقيض ذلك ، في السنة ١٨٥٧ ، ان الجهاز الرأسمالي نفسه هو ما تحل به الازمة قبل غيره ، في اهم مركز من مراكزه ، اي في لندن . وكان سير الأزمة منذئذ وفاقاً للترتيب التالي : المؤسسات المالية اولا ، ثم الصناعة والتجارة ، واخيرا الارياف . وقد بدا ان الازمة تنشأ ابدا من افراط في المضاربة يتسبب في انهيار مصرفي جزئي .

فهل كانت الازمات ازمات نمو ، مفيدة بعض الشيء ، وعاجزة على كل حال عن ايقاف النظام الرأسمالي في سيره ؟ ام ازمات مشؤومة وسيئة العاقبة لا تترك طبيعتها المزمنة اي شك حول نهاية الرأسمالية ، باعتبار ان فترات الانطلاقة ليست سوى هنيهات سريعة الزوال ؟ ومهما يكن من الامر فقد اتفق الاحرار والاشتراكيون على ملاحظة انخفاض معدل الفائدة وحاجة السوق الملحة الدائمة الى التوسع : وهو تطور يرافق التقدم الاقتصادي في نظر الاولين ، ويؤدي الى اشد التسلطات خطراً على مستقبل البشرية في نظر الآخرين .

التقلبات الطويلة الامد
السنوات الجيدة ١٨٥٠ – ١٨٧٣

بعد هزات السنة ١٨٥٧ والسنة ١٨٦٦ ، استؤنف العمل استئنافاً بناء ولكن الاسعار تدنت تدنياً حقيقياً بعيد ازمة السنة ١٨٧٣ ، ولم ترتفع نسبة الفائدة بعد انخفاضها ، واستمر الهبوط في الاوراق النقدية والهبوط في الارباح بصورة عامة . فقارن المعاصرون عصرهم بالعصر الذي سبقه وتساءلوا عن معنى انقلاب على مثل هذا الوضوح والتمادي في الاتجاه . فعاودت سكان الارياف ، الذين عانوا من هذا الهبوط اكثر من غيرهم ، ذكرى « السنوات الجيدة » : التي

سبقت الحرب الاهلية بالنسبة للمزارعين وأصحاب المزارع في اميركا . وعلى الرغم من استقرار السلم في اوروبا ، فقد بدا لعالم الاعمال ان الاعمال كانت اكثر سهولة قبل السنة ١٨٧٠ ؛ ولم يكن القلق الذي أثاره السباق الى التسلح ليفسر الجمود السائد .

فاذا ما درسنا الاسعار ، استطعنا الخلوص الى وجود مرحلة استئناف عمل تعقب مرحلة الهبوط التي عرفها الربع الاول من القرن ، وتبتدىء بعد ازمة السنة ١٨٤٧ – ١٨٤٨ ، لا بل قبل ذلك في انكلترا . ويظهر الخط البياني المنحني المنخفاضاً يكاد يكون مستمراً ، ثم ارتفاعاً قوياً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٥٦ يليه تقلبات بقيت اسعار البضائع معها اعلى منها في المرحلة السابقة[1] . واذا اتخذنا المعدل ١٠٠ اساساً للسنة ١٨٥٠ في فرنسا ، كان معدل مجموع الارباح ٣٥٨ ، ومعدل الارباح الصناعية ٣٥٦ ، ومعدل الاجور ١٧٥ ، وكلفة المعيشة ١٢٣ ، في السنة ١٨٧٠ . ولكن الحركة كانت مماثلة في كافة البلدان الغربية .

لوحظت آنذاك حركة تجارية ناشطة ؛ فسالت مياه نهر الحرية الاقتصادية غزيرة ؛ وبدا نمو الاسواق السلعي امراً ممكناً بسبب توفر وسائل الاقراء دون اثارة الاطماع . وانطوت الاساليب الاستعمارية نفسها على مزيد من الرفق والتلطف . فعرف هذا العهد بالعهد المنشستري . وعلى الرغم من الازمات العابرة والحروب ، التي ربما اسهمت في نمو الانتاج والاستهلاك على كل حال ، فان المناخ العام ، الذي كان مشجعاً ، قد حمل على التفاؤل .

هبوط السنوات ١٨٧٣ - ١٨٩٥ ونهاية الموجة ١٨١٥ - ١٨٩٥

انحنى الرسم البياني للاسعار مرة اخرى بعد السنة ١٨٧٣ . فتكاثرت الدلائل المكدّرة : مزيد من المنافسة حول سوق يبدو نشاطها مصاباً بالضعف والارتخاء ؛ تدن جلي في الطلب بالنسبة للعرض ؛ هبوط نسبة المكاسب ؛ وجدير بالانتباه ان هذه الوقائع الثلاثة ترتبط ارتباطاً وثيقاً . وأبطأت في الوقت نفسه حركة الدخل الحقيقي للشخص الواحد التي لوحظت منذ السنة ١٨٥٠ . ولكن سلماً دائماً ، وان مسلحاً ، قد عقب الحروب القومية الاوروبية . فبدا العرض متفوقاً على الطلب بفضل النجاحات التقنية ؛ لا سيما وأن القيمة الشرائية لم ترتفع ارتفاعاً كافياً بسبب استثمار اليد العاملة استثماراً مفرطاً . وأدى بروز البلدان الحديثة الى اشتداد المنافسة ، فتضرر منتج الارياف بصورة خاصة بسبب افتقاره الى الادوات المتقنة : فأدى انخفاض المحاصيل الريفية الى انخفاض شامل سريع الخطى . وصمدت الاجور في البدء صموداً دونه صمودها خلال الفترة المقابلة التي دامت من السنة ١٨١٥ حتى السنة ١٨٤٨ : ولم ترتفع الاجور الاسمية ارتفاعاً مطرداً فحسب ، بل لوحظ ارتفاع الاجور الحقيقية ايضاً . الا ان الازمات الدورية كانت ثقيلة على العامل ورب العمل على السواء . فكان على المشروع ان يبذل جهداً توفيقياً كبيراً ،

---

(١) راجع الرسوم البيانية في الصفحات ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ .

بالسعي وراء انتاجية متزايدة ، واعادة التنظيم لجهة التجميع ، وتوسيع العمل. واشتدت حدة الصراع من اجل التصريف في الوقت نفسه الذي اشتدت فيه حدة المعركة الاجتماعية . ولكن التغييرات المدخلة على الادوات ووسائل العمل انقذت مؤسسات كثيرة : فان معمل « هولنز » للغزل ، في احدى ضواحي « نوتنغهام » ، الذي هبطت ربائحه من ٢٦ الى ٩٪ ، قد تحول الى نسج صنف اسكتلندي جديد واستغنى عن الوسطاء بتعامله مباشرة مع الباعة بالتفصيل ؛كما ان معمل « فورتمن » للغزل في « غنت » قد جُهّز بأنوال جديدة واستبدل آلات التحضير بمحلالات آلية .

يتضح من ثم ان الهبوط الكبير قد استعجل التقدم التقني ودفع بالرأسمالية الغربية الى الضغط بمزيد من القوة على مناطق العالم الاخرى .

يجب لفت الانتباه ، بالاضافة الى ذلك ، الى ان ارتفاع الاسعار ونسبة الفائدة في السنوات ١٨٥٠ – ٧٣ كان سريع الزوال . اوليس الانخفاض الذي ابتدأ منذ السنة ١٨١٧ هو ما استعاد حقوقه بعد السنة ١٨٧٣ ؟ لذلك فان الواجب يقضي بادخال مفهوم موجات تكاد تتجدد قرناً بعد قرن ، هي اعظم تمادياً من التقلبات الطويلة الامد . فيكون امامنا موجة جديدة تمتد من السنة ١٨١٧ حتى السنة ١٨٩٥ وتشمل ٨٤ سنة تقريبا ، وتذكرنا بالموجة التي امتدت من السنة ١٧٣٣ حتى السنة ١٨١٧ ، وتميزت بارتفاع تطاول عهده جداً ، وبموجة اخرى ابعد عهداً امتدت من السنة ١٦٤٠ حتى السنة ١٧٣٢ وتميزت بالانخفاض عموما . وربما بلغت الرأسمالية الحرة ذروتها اثناء هذه الموجة تقريبا ، مستفيدة من النجاحات التقنية وتوسع الاسواق التجارية . وجملة القول ان كل ما حدث قد حدث وكأن النظام الاقتصادي ، بعد ان استفاد من تدني الاجور اولا ، ثم من تبدل الاجور بالنسبة للاسعار والمكاسب خلال الارتفاع العابر ، قد وجد نفسه في موقف دقيق حين تدنت الاسعار والمكاسب مرة اخرى وصمدت الاجور في وجه الاتجاه نفسه . وفي سبيل التغلب على المحنة ، ربما رضي بتغييرات تتناول منه التركيب ، واستنجد بالعبقرية الصناعية ، وسلك طريق التسلطية متحمسا ، ولجأ عند الحاجة الى الطرائق التي قد توحي بها اليه القومية .

القومية الاقتصادية تستعيد مكاسبها : العودة الى مبدأ الحماية

ان الهبوط الذي طال عهده من السنة ١٨٧٣ حتى السنة ١٨٩٥ قد كال الضربات القاسية للمقايضة الحرة . وعبثا حاول القائلون بهذه السياسة تقديم الادلة على ان الانانيات القومية مسؤولة عن القلق السائد ، لأن توزيع العمل بين الدول ما زال ناقصا . اما الخصوم فقد نسبوا لها هبوط الاسعار والمكاسب . وكان الحدث الهام في هذا المجال تحول العناصر الزراعية الى مبدأ حماية الانتاج الوطني ؛ فجاءت آفة الكرم نفسها ، التي قضت على آمال الكرامين في فرنسا تدعم هذا المبدأ مثلا . فتحول كافة المستائين بأنظارهم نحو الدولة وطالبوا بمساعدة

موظفي جمارکها . اما الحکام فقد استجابوا لنداءات هؤلاء المنتخبين دون صعوبة لأن الرسوم ستساعدهم على دفع نفقات الخدمات العامة والتسلح . يضاف الى ذلك ان الاوروبيين استطاعوا بذلك اتهام الولايات المتحدة التي استفادت من الرسوم الضئيلة لتصدير محاصيلها ومصنوعاتها ورفضت تسهيل بيع سلع العالم القديم . ولكن العصيان قام في وجه بلاد المدرسة المنشستارية : فمشت المانيا البسمارکية على رأس المتمردين ، وانتصر مبدأ الحماية بسرعة نسبية حتى في بلجيکا ، ولم ترفضه سوى هولندا وبريطانيا العظمى . وبينما کانت الحروب الجمرکية قائمة بين فرنسا وايطاليا ، وبين المانيا من جهة وروسيا واسبانيا من جهة اخرى ، وبينما کانت الولايات المتحدة تعزز تکراراً اجهزة الحماية ، قام حلف « التجارة السمحاء » يحاول اقصاء « التجارة الحرة » عن وطنها الام .

وهکذا احتمت الرأسمالية الغربية في مواقع مذهب الحماية الدفاعية ، فأطلقت الحرية للقومية وتميزت بمزيد من التسلطية . انه لمصير محتوم ، سينتهي اليه البريطانيون انفسهم حتى ولو رفضوا التنکر للکوبدنية التي تتصل ذکراها ، بالنسبة لهم ، بذکرى عظيمة اخاذة .

فيتضح من ثم بعد البحث والتدقيق ان النظام الاقتصادي السائد في اوروبا واميرکا الشمالية سينتهي حتما بالاولى ، وبالثانية من بعدها ، الى التوسع بفعل الظروف والاتجاه الطبيعي .

الفصل التاسع

الأستعمار الاوروبي
ونشأة السياسات التوسعية الكبرى

« المستعمرات احدى ضرورات الحياة العصرية ... »
(فرنشسكو كريسبي ، في ٢ آيار ١٨٨٨)

« ان المقياس الوحيد الواجب اعتماده في كل مشروع استعماري هو درجة فائدته ومجموع العائدات والمكاسب التي يجب ان يدرها للوطن الام » .
(« اوجين اتيان » ، مقال في الـ « فان » ، ١٨٩٧)

اتفاق الظروف القومية في اوروبا والاستعمار في منتصف القرن

بعد القضاء على سيطرة الاسبانيين والبرتغاليين البرية في اميركا، لم يبق في منتصف القرن سوى امبراطورية واحدة عالمية حقا، هي الامبراطورية البريطانية ؛ فمعظم الممتلكات الهولندية كانت مجموعة في جنوبي شرقي آسيا ، ولم تستطع فرنسا حتى ذاك التاريخ سوى التمكن هنا وهناك في بعض النقاط الدائرية من افريقيا واوقيانيا والهند الصينية . والحال توفق الاوروبيون خلال سنوات قليلة ، في النصف الثاني من القرن ، الى الاستيلاء على الشطر الاكبر من افريقيا (١١٪ فقط في السنة ١٨٧٥ ، و٩٠٪ في السنة ١٩٠٢)، ومجموع الاراضي الاوقيانية تقريبا (٩٨٪ مقابل ٥٦٪) ، بينما تكونت نهائيا حدود الولايات المتحدة الواسعة في اميركا الشمالية . واذا ما استثنينا المغرب وليبيا ، فان المستعمرات الاوروبية قد تحددت آنذاك بما يقارب ثلاثة اخماس اليابسة واكثر من نصف سكان الكرة الارضية، بصرف النظر عن اوروبا.

لم تشكل المنازعات القومية حجر عثرة في سبيل هذا التوسع . واذا كانت الحروب الكبرى التي نشبت بين السنة ١٧٩٢ والسنة ١٨١٥ قد اعاقت مؤقتا المجهود الاستعماري الفرنسي

والهولندي ، فانها قد أدت من جهة ثانية الى توطيد الوجود البريطاني خارج اوروبا ؛ ويجب انتظار السنة ١٩١٤ حتى نرى دولة تفقد مستعمراتها حين ينقطع اتصالها بها . لا بل ان النصر الالماني في السنة ١٨٧٠ وقيام المملكة الايطالية قد استعجلا في الواقع ظهور تيار استعماري قوي . فمن جهة افضت ادعاءات روما الى تحويل البحر الابيض المتوسط الى حلبة منازعات ؛ ومن جهة ثانية اسهمت السياسة الاميركية في تحريك رغائب الدول الاستعمارية التقليدية ، ودفع فرنسا الى الانقضاض على افريقيا ، وروسيا على آسيا ، ووقوف فرنسا وروسيا معاً ضد بريطانيا العظمى التي ما كانت لتقف موقف اللامبالاة من اقتسامات جديدة . ولعبت المصادفة نفسها دوراً هاما في ارشاد منافس جديد ، هو ليوبولد ملك بلجيكا ، الذي استغلها ببهارة ، الى طرق القارة السوداء . وبعد ان قطع توزيع الانصبة شوطا بعيداً ، اعلنت المانيا ، ربما بعد فوات الاوان ، عن عدم رضاها واستهلت سياسة استعمارية رهيبة .

استمرار مذهب المناهضة للاستعمار

بيد ان التوسع الاستعماري قد صادف خصوما يناهضونه . فصادفهم في الدرجة الاولى بين اولئك الذين تخوفوا من توزع القوى الوطنية . أفلم يبد نابوليون الغد الثالث هذه الملاحظة في السنة ١٨٤١ : « نحن نفقد الجزائر بحرب لا هدف لها... ان هذه الممتلكات النائية ، الباهظة الاكلاف في ايام السلم والمسببة المصائب في ايام الحرب ، تشكل سببا من أسباب الاضعاف » ؟ وقد قاوم حملة المكسيك شطر هام من الاعيان المحافظين والمعارضة الجمهورية : وقد لاحظ المدّعون العامون آنذاك ان الرأي العام يعتبرها « باهظة النفقات ، ... ولا نتيجة لها » . واتفقت احزاب اليمين والراديكاليون في عهد الجمهورية الثالثة على طلب منع ارسال الجيوش الى خارج اوروبا : فقد صاح كليمنصو في السنة ١٨٨٢ قائلا : « يجب الا نحاول ارتداء عنف اسم الحضارة الخداع » . وفي السنة نفسها اعلن بسمارك في الـ « رايخستاغ » : « لن نعتمد سياسة استعمارية ما دمت مستشاراً » . وقد امتنع سواد البلجيكيين عن مساندة ما انتواه الملك ليوبولد .

وغالبا ما استُند الى الاعتبارات العاطفية والانسانية ، ووقفت الاشتراكية موقفا معاديا بيّنا من السياسة الاستعمارية لانها نظرت اليها نظرتها الى احدى طرائق الرأسمالية التسلطية . ولكن يجب لفت الانتباه الى ان النفور قد تجلى زمنا طويلا في صفوف الرأسماليين الاحرار بصورة خاصة . فقد اكد « ايف غويو » في السنة ١٨٨٥ : « اذا ما رغبنا في ان نمثل تمثيلا رمزيا ما كلفه من ضحايا الـ ٢٥٠٠٠ مهاجر مستعمر الذين استوطنوا الجزائر ، لتبين لنا ان كلا منهم يجلس على اربع جثث ويحرسه جنديان » . ولا يخلو من مغزى ذاك الاتجاه القوي الذي ارتسم في بريطانيا العظمى بين السنة ١٨٤٠ والسنة ١٨٦٠ واستهدف شمل المستعمرات بـ « الحكم الذاتي » والتوقف عن كل فتح جديد . وقد كتب « دسرائيلي » نفسه الى « ملمسبوري » في السنة ١٨٥٢ : « كل هذه المستعمرات اللعينة ستصبح مستقلة بعد سنوات ، وهي بمثابة رحا

معلق بعنقنا » . وقد سلّم « روجرز » ، امين سر الدولة لشؤون المستعمرات ، بأن « مصيرها الاستقلال » . وفي السنة ١٨٦٣ صدر كتاب « غودوين سميث » المشهور «الامبراطورية» الذي اقترح فيه المؤلف انفصالاً حبياً بين بريطانيا العظمى وبعض البلدان ككندا واوستراليا . وفي كتابه ، « المستعمرات » ، اعلن الرحالة الالماني العالم باصول الشعوب ، « ادولف باستيان » ، عداءه الصريح للفتح الاستعماري . أضف الى ذلك الانطباع القوي الذي تركته قصة « ماكس جافلار » لـ « ادوارد دوز – دكرز » الذي بسط ، باسم « مولتاتولي » المستعمار ، تجاوزات طريقه « فان – دن – بوش » الاستعمارية في الهند النيرلندية . اما السياسة السلمية ، والمتحفظة على كل حال ، التي سيعتمدها « غلادستون » المنشستري ، فلها ما يبررها على ضوء نفعية تجارية عززت موقفها المعادي للتسلطية الاستعمارية لمجاحات « الازمنة الجيدة » : فان استثمار الثروات العالمية لا يبرر البتة تملك هذه الارض او تلك بموجب مبدأ قومي وحتى تحضيري ، ولكنه يستلزم منافسة حرة باعتماد سياسة الباب المفتوح . ولذلك كان كافياً ان يحمي « بلمرستون » حرية البحار التي بفضلها تأمنت ثروة بريطانيا العظمى وكافة الشعوب المتطورة .

ديومة التقليد الاستعماري والخطوط الاولى لمذهب تسلطي

ابدى « كوبدن » هذه الملاحظة التي لا تخلو من الغم : « تتمسك الطبقة الوسطى بالمذهب الاستعماري تمسك الارستوقراطية نفسها به ، وليس العمال اكثر المعية من هذه وتلك » . اما انجاز فقد أسف على ان العمال « يتمتعون بكل طمأنينة مع الراديكاليين المحافظين والاحرار باحتكار انكلترا الاستعماري وباحتكارها السوق العالمية» . فقد ساد الرأي من ثم ان التخلي عن المستعمرات عاقبته الانحطاط .

اهتمت الحملات العسكرية في النصف الاول من القرن بتنمية فرق الاختصاصيين المؤهلين للحرب والادارة في المناطق الحارة ؛ فأعد هذا الاعداد الجنود والموظفون المرسلون الى الهند والجزائر الذين استفيد بعد ذلك من خبرتهم في مناطق آسيوية وافريقية اخرى . وقد تجددت تقاليد قديمة في كثير من العائلات الفخورة بالانتساب الى « رسالة الجندية » او « الخدمة » . وامنت الامبراطورية الثانية استمرار المجهود الذي ما زالت انكلترا تبذله ، اقله لتوطيد مراكزها . وقد جاهر بلمرستون بما يلي : « لا تتخلوا ابداً عن رأس دبوس يحق لكم الاحتفاظ به وتعتقدون ان باستطاعتكم الاحتفاظ به » .

ربما مت ذلك بصلة الى المفهوم التمديني للصليبية المسيحية ، السلمية او المسلحة . وكان هذا المفهوم قد استعاد قوته بفعل الحماس الذي اثاره تيار القوميات . فبينما ما زالت بعض الشعوب منشغلة بهاجس وحدتها ، تولت شعوب أخرى رسالة اوسع آفاقاً . ألم يقدم كيرياقسكي على الشعوب الاخرى ، حوالي السنة ١٨٣٠ ، « الشعبين الفتيين الطريي العود» ، اي الشعب الروسي والشعب الاميركي ؟ اضف الى ذلك ان صدى السلافية الرومنطيقية الشاملة قد تردد في مؤلفات

« كاتكوف » و « أكساكوف » بفكرة الدور المجيد الذي تـــذخره العناية الالهية لروسيا الارثوذكسية ، وان دوستويفسكي ارتأى ان « كل شعب قوي يؤمن ويجب ان يؤمن ، اذا أراد لنفسه حياة طويلة ، بأن خلاص العالم متوقف عليه وعليه وحده » . وقبل ان تستغل الداروينية وينشر « غوبينو » كتابه « محاولة في اختلاف الاجناس البشرية » ، جزم « اغاسيز » « وكانرفاج » بتفوق الجنس الابيض ، وتكلم « كوريه دي ليل » عن « الاجناس المتفوقة بالطبيعة » ، وكتب « كارليل » الذي امتدح الحكام ، ما يلي : « ان جزيرتنا الصغيرة باتت ضيقة بسكانها ، ولكن اتساع العالم يكفي لستة آلاف سنة » . وفي أسلوبه الديني ، عظّم « شارلز كنغسلي » ، « العزيمة الجماعية » ، بينما تغنى « تنيسون » بالبطولة في خدمة السياسة البلمرستونية . وحين نشر « شارلز ديلك » كتابه « بريطانيا العظمى » افتتن قراؤه ، قبل أي شيء آخر ، بالنشيد المخصص لعظمة ما وراء الاوقيانوسات فبات ممكناً ان يأتي دسرائيلي ويحل الحزب التوري من العربة المنشستارية ويعين له مهام اعظم نبلاً ويجعل من فكتوريا امبراطورة الهند . وعلى الرغم من أن غلادستون ، الذي جاء بعده ، قد اصدر اوامره بالجلاء عن أفغانستان والترانسفال ، فان الحملة التوسعية قد عرفت منذئذ نشاطاً مطرداً : فان « سيلي » ، تلميذ « داروين » ، قد عرض في كتابه « توسع انكلترا » ارتقاء مهيباً منذ اليزابيت ؛ كما ان « فرود » ، تلميذ كنغسلي ومنفذ وصية « كارليل » ، قد طاف في الماضي والعالم البريطانيين ، فرأت النور « عصبة فكتوريا » و « عصبة الامبراطورية » و « عصبة الامبراطورية البريطانية » ، وارتسم في الافق مثال جديد للسياسة الخـــارجية . وجرى تحول ذو مغزى الى فكرة امبراطورية سيدة مسيطرة تكفي نفسها بنفسها ، هو تحول « جوزف تشمبرلن » ، تاجر البراغي ، الغلادستوني والمنشستري .

عملت الوطنية والرأسمالية معاً — وهذه الاخيرة ، تحت ظل التأخر الاقتصادي — في اتجاه التوسع الاستعماري . فان « ديبون — هوايت » كان بمثابة عهد الطريق حين عين للدولة مهمة « اغناء البشر باضافة المستعمرات والاسواق النائية والاسواق الجديدة الى وسائل انتاجهم او مقايضاتهم » . ولكن « ليست » و « روشيه » كانا قد عارضا كذلك المدرسة السميثية ، فأخذ الناس يصغون اليهم في المانيا حيث افلحت الجمعيات الاستعمارية ، يساندها مجهزو السفن والصناعيون ، في ارغـــام بسمارك على « كانوسا » جديدة ، بانتظار « السعر الجديد » الغليومي . فأعاد « بول لروا — بوليو » حينذاك طبع كتابه « الاستعمار عند الشعوب المعاصرة » ، وفاز بحمل القائلين بمذهب الاحرار على اعتناق هذا المبدأ : « ان الشعب الذي يستعمر هو شعب يبني ركائز عظمته في المستقبل » . وقد برر « فرّي » مبادهاته بربطه بين العظمة والمصلحة : فمن جهة « تأسيس المستعمرة يعني ايجاد سوق » ، ومن جهة ثانية « للأجناس المتفوقة حقوقها حيال الاجناس الدنيا » . وهو سيوجز برنامج الرأسمالية الاستعمارية بعد ذلك في جملة واحدة : « السياسية الاستعمارية وليدة السياسة الصناعية » .

انحطاط الشركات الممتازة القديمة

بعد انهيار النظام التجاري القديم ، عرف الديمومة بعد السنة ١٨١٥ عدد معين من المشاريع الكبرى المبنية على الاحتكار . اجل لم تجدد الملكية ، ولا نابوليون ، شركة الهند الفرنسية ، ولم تزدهر اية مؤسسة من مؤسسات هذا العهد باستثناء الشركة الهولندية الجديدة التي تعاطت حتى السنة ١٨٧٥ تجارة رابحة في الـ « انسولند » والشرق الاقصى . وحين تجديد عقدها لم تفقد شركة الهند الانكليزية امتياز التجارة مع الصين فحسب ، بل رأت امتيازها في الهند ، المحدد بعشرين سنة ، يرتدي طابع مجرد مستودع للتاج . ثم حُدّ بعد ذلك من صلاحياتها ، وما لبثت المؤسسة المحترمة ان انهارت بعد ثورة الجنود البلديين في السنة ١٨٥٧ .

كان في نية معظم الشركات القديمة الممتازة استثمار المناطق الحارة . والحال كان عدد منها قد عرف الديمومة في الشمال الاميركي الغني بالفراء . لا بل ان الشركة الروسية الاميركية وشركة الشمال الغربي وشركة خليج « هودسون » قد تنازعت بشراسة المناطق المخصصة للقنص والممتدة من الآلاسكا الى الاوريغون واللابرادور . واتحدت الشركتان الاخيرتان بغية التمكن من مقاومة الشركة الاولى التي كانت تزود سوق بطرسبورغ وتمارس في الوقت نفسه في آلاسكا احتكاراً وضع حداً له ضم هذه البلاد الى الولايات المتحدة في السنة ١٨٦٧ . وبعد ان قامت شركة خليج هودسون بعمل ناجح باهر ، اضطرت بدورها الى الانحناء امام الاستعمار الحر الذي غزا الاوريغون ؛ ثم تأسست كولومبيا البريطانية ؛ وحين ابتاعت كندا منها ، في السنة ١٨٦٩ منطقة « روبرت » (مانيتوبا) ، الغنية بالاحراج ، تولت استثماره بوسائل جديدة . ولكنها ما كانت آنذاك سوى شركة رأسمالية ، شأنها شأن غيرها .

الشركات التعاقدية الجديدة

كانت الفترة ١٨٥٠ — ١٨٧٠ ، وهي فترة المقايضة الحرة ، اقل الفترات موافقة للامتياز . ولكن حين احرز مذهب حماية البضائع الوطنية بعض التقدم ، بدت المشاريع الحاظية بالعطف والتشجيع ، التي تمهد الطريق للاستثمار الاستعماري ، مغرية للرأسمالية التوسعية .

مارست اهم الشركات اعمالها في ظل الوصاية البريطانية او الالمانية . وقد اهتمت كلها تقريبا بالقارة الافريقية حيث رأت امامها مثل الجمعية الدولية التي اسسها الملك ليوبولد بغية استثمار الحوض الكونغولي . وهكذا تواجهت في هضاب افريقيا الشرقية « الشركة البريطانية لافريقيا الشرقية » التي حملت اسم « الشركة الامبراطورية البريطانية الافريقية » ، و « الشركة الالمانية لافريقيا الشرقية » التي أسسها الدكتور « بيترز » . ثم أسس عدد من التجار الانكليز « الشركة الافريقية المتحدة » التي حملت « اسم الشركة الملكية النيجيرية » بعد اتحادها بشركة « التجار الافريقيين في الشاطىء الذهبي » .

على الرغم من حداثة عهد هذه الشركات التعاقدية الجديدة ، يبدو انها كانت ذات شأن عظيم في تاريخ التوسع الاستعماري . فحين اضمحلت « الشركة الملكية النيجيرية » التي لم تعش سوى

١٣ سنة ، دفعت لندن ٢٢ مليوناً للاستيلاء على ما يعرف الآن بـ « نيجيريا » التي يبلغ عـــدد سكانها ٢٥ مليون نسمة وتوازي مساحتهـــا ضعفي مساحة فرنسا . وكانت هـذه الشركة مدينة لضابطين بريطانيين ، هما « جورج توبمان غولدي » واللورد « ابردير » اللذان بلغا الـ « تشاد » بعد ان اجتازا الحـــاجز الحرجي في سواحل غينيا . وكانت قـد وقعت اكثر من اربعماية معاهدة مع الزعماء البلديين ووفرت فائدة سنوية قدرها ٦٪ لمساهميها. وحين ارغمت على التخلي عن احتكارها امام حملات التجـــار في الوطن الام ، لم تتوار عن مسرح نشاطها بل استمرت في استخدام موظفيها من ذوي الخبرة واستحصلت على حق استيفاء الرسوم المنجمية لمصلحتها الخاصة طيلة تسع وتسعين سنة . وقد ادت خدمة جلى للعظمة البريطانية في افريقيا الغربية .

ولكن اشهر هذه الشركات التعاقدية اطلاقاً هي «الشركة البريطانية لافريقيا الجنوبية » التي اسسها « سسيل رودس » .

شركة سسيل رودس التعاقدية

لم يكن « نابوليون الراس » ملكاً متربعاً على عرش ، ولكنه كان ملك الماس والذهب ، واسس لانكلترا امبراطورية جنوبية. كان ابن رجل دين ، وقصد « ناتال » للاعتناء بصحته الهزيلة ، فسمع نداء « روسكين » « لاستثمار الاراضي البائرة » ؛ وكان عازباً ونافراً من النساء ، فاخذ يفكر في نفسه قائلا : « ان اخضاع الشطر الاكبر من العالم لشرائعنا سيكون بمثابة نهاية كافة الحروب » . وكان مسالماً على غـرار « كوبدن » ، فوضع الاستعمار والرأسمالية في خدمة « السلام البريطاني » . سار في البـــدء في تيار البحث عن المـاس في كمبرلي ؛ فاشترى امتيازات الاستثمار وجرب حظه . فوافاه الحظ حين اعتمد ، على غرار روكفلر ، التقنية والتجميع معاً. وقد ضمنت شركته «دي بيرز مينتغ» في السنة ١٨٩٠ ، رقابة سوق الماس . ثم وقع اختيار رودس كـذلك على ذهب الترنسفال ، فاسس شركة « حقول الذهب في جنوبي افـريقيا » التي اشرك فيها آل « روتشليد » . ولكنه ما لبث ان اصطدم بالتشريـع « البويري » .

وهو لم يكن تاجراً مغامراً فحسب . فقد كان مولعاً بالحضارة الاوربية ، التي يؤلف العنصر البريطاني خميرها ، فتخيل امبراطورية افريقية تكون قاعدتهـا مدينة « الراس » وقمتها قنـاة السويس حيث تمر طريق لندن–بومباي عبر البحر المتوسط الذي يصبح بحراً بريطانياً. وانما يجب اسهام البوير لتحقيق ذلك – لا سيما وانه كان يحتقر الزنوج . امـــا اذا لم يستجب انصال الهولنديين لندائه ، فانه سوف يسحقهم. ولكن مشروعه يستلزم السرعة لان الالمان والبرتغاليين ينحدرون باتجاه المنطقة الحارة الواقعة بين « لمبوبو » و « زامبيز » . فاعرض حكام « الراس » انفسهم عن تبني المشروع . لذلك تحول رودس بانظاره نحو لندن حيث اعتمد على صـــداقاته في عـالم الاعمال واسس « الشركة البريطانية لافريقيا الجنوبية » التي استلمت في السنة ١٨٨٩

ضك التعاقد الذي خولها « تنمية بيشوانالند والمناطق الواقعة ابعد الى الشمال » ،فبني على الفور معمل « فورت ـ سالسبوري » في قلب الغابات ، وراء بلاد البوير ، على الطريق التي يسلكها البورتغاليون . وعندما اصبح رئيس وزراء « الراس » ، اخرج البورتغاليين من المنطقة المتنازع عليها واشترى من شركة « البحيرات الافريقية » منطقة شمالي الزامبيز وسحق مقاومة الـ « زولو » ، فضمن له ذلك اعتبار البوير في « الراس ».وفي السنة ١٨٩٥ ، احتلت «روديسيا» مكانها على الخريطة . ولم يبق سوى ضم جمهوريتي « اورانج» والترانسفال ؛وسوف يحققه بعد انتزاع موافقة المسؤولين البريطانيين . ثم اجهز الذهب والامبراطورية على استقلال البوير حين وافته المنية في السنة ١٩٠٢ .

جمعية ليوبولد الثاني الدولية الافريقية

كان ليوبولد الثاني استبدادي المزاج ، محتالا ومتصلباً ، ومنتسبا الى اسرة مالكة مرموقة،ومفتقراً الى المال ،وشغفاً بمعرفة العالم ومكبلا في تصميمه على العمل بفعل النظام السياسي في مملكته نفسها ، ولكنه تميز بؤهلاته لان يكون مؤسس امبراطورية عظيمة .فقد كتب منذ السنة ١٨٦١ :«لما كان التاريخ يعلمنا ان للمستعمرات قسطها الأوفر في تكوين عظمة الدول وازدهارها ، فلنحاول بدورنا الاستحصال على مستعمرة» .فتحين الفرص،وكان على استعداد لشراء الفيليبين او الكاناري او اي ارخبيل اوقيانوسي آخر ، الى ان وقع اختياره على افريقيا الوسطى البكر . واذا هو عقد في السنة ١٨٧٦ مؤتمراً في بروكسل من اجل حملة شديدة تستهدف « العلم والانسانية والتقدم » ، فانه لم يلبث ان ادرك الفائدة الشخصية التي باستطاعته ان يجنيها من مؤسسة مجردة عن الغاية في مستهل نشاطها . وفي سبيل الاستيلاء على البلاد ورسم خريطتها ، فكر بـ « غوردون » وتوجه الى « برازا » ، واستمال « ستانلي » ودفع الثمن غالياً . وفي سبيل الحصول على رؤوس الاموال ، طرق كافة الابواب . ثم لجأ الى الحيلة وتقدم شيئاً فشيئا في تنفيذ مطلبه ، فعرف كيف يبعد عن مصاب النهر الدول الاستعمارية القديمة التي كانت تطالب بحرية التجارة ، الى ان اناط مؤتمر برلين (١٨٨٥) هذه الحرية بجمعية الكونغو الدولية التي انفرد بعد ذلك في تحويلها الى دولة الكونغو المستقلة ، ثم حمل المجلسين التمثيليين البلجيكيين على منحه حق « رئاستها » وانصرف الى توسيع حدود الدولة باتجاه البحيرات الكبرى في افريقيا الشرقية .الا انه صادف صعوبات مالية حالت دون مشروعه بالاستثمار فأوصى بالكونغو لبلجيكا في السنة ١٨٩٠ واستحصل على قرض بقيمة ٢٥ مليونا وعلى اجازة باستيفاء رسوم الدخول . اضف الى ذلك من جهة ثانية انه لم يتقيد باي تعهد ، فجند اليد العاملة بالقوة واحتفظ لنفسه بمكاسب اراضي التاج الواسعة وسلم الاراضي الاخرى شركات لم تنسه ولم تنس ذويه عند توزيع الرباثح .فكان ما كان من التهافت الجنوني على جمع العاج والمطاط،وكان ما كان من « فظائع الكونغو ».ولكن ليوبولد قد امتنع بغطرسة حتى وفاته عن التسليم بان عليه تأدية حساب للرأي العام .

تدخل الدول الاوروبية الاستعمارية لخدمة المصالح الرأسمالية : مثل تونس ومثل مصر

كتب « ديلك » ما يلي : « حيث تكون المصالح يجب ان تكون السيطرة ». اجل لم يحظ الاختبار الكونغولي بمساندة الامة البلجيكية المباشرة ؛ بينما حال تدخل القوة البريطانية في « الراس » دون حراجة الوضع وتأزمه المحتمل . فـــماذا اعوز « بريتشارد » للسيطرة على « تاهيتي » ان لم يكن مساندة لندن غير المشروطة ؟ وبامتناعها عن التدخل المعلن ، اطالت فرنسا وانكلترا على السواء عمر الحكومة «الهوفية»، وربما كان « سربا بنتو » توصل الى توحيد انغولا وموزمبيك لو استطاعت لشبونة مساعدته مساعدة فعالة . وعلى نقيض ذلك ، درجت الشركات الرأسمالية على رفع البيرق بجسارة كلما خاضت الدبلوماسية ، وحق القوة المسلحة ، غمار المعركة . لذلك فان ارتباط السياسة بالاعمـــال ، ظاهراً كان ام مستتراً ، يفسر معظم الفتوحات الاستعمارية . واذا فات النجاح حملة المكسيك ، فانه قد توج حملة تونس وحملة مصر تتويجاً كاملاً .

مثلان نموذجيان وتشابه عجيب . ملكان مسلمان يغرقان في الديون بسبب رغبتهما في العيش ببذخ وتفخل ؛ بلادان تتميزان بمركز وموارد من شأنها اثارة الاطماع ؛ دولتان حريصتان على حقوقهما وقادرتان على دعم مطالب رعاياهما . هنا وهناك غزو رؤوس الامـــوال الاوروبية الذي سهله وضع الاقتصاد المتردي ؛ في مالية باي تونس ومالية خديوي القاهرة ازمة لا يمكن معالجتها معالجة مؤقتة الا بقروض جديدة ؛ ثم رقابة دولية يفرضها المقرضون الجـــازعون الجشعون ؛ تحسن مؤقت وجزئي تعزز الادارة المالية بفضله مراكزها بوضع يدها على الرهون والكفالات وجميع الموارد الاميرية . وحدث اخير : فبينما خضع الباي للحماية الفرنسية ، اقيل الخديوي اسماعيل خلفه توفيق الى القبول بوجود الجيش البريطاني . فمن جهة ازالت حكومة باريس الخطر الايطالي والحقوق الايطالية ، ومن جهة اخرى صرفت حكومة لندن النظر عن امكانية لم تنظر اليها بعين الرضى هي امكانية مشاركة فرنسا لها في الحكم . وكانت النتيجة فتح ابواب البلادين لنشاطات الغرب الصناعية والتجارية تحت ستار الوصاية السياسية والادارية والعسكرية .

دور الضابط الاستعماري فاتح ومدير

« وفي افريقيا نفسها ، ماذا احببت يا ترى سوى نشوة دامت سنتين ، نشوة النسيان الخالصة ، نشوة الشمس ، والنور ، والكمال الفني بكل ما للكلمة من معنى ؟... » (ليوتي ، في السنة ١٨٨٢).

لقد برزت وجوه كبيرة ، مؤسسون ، و « فنيو » استعمار . فكان هناك المستعمرون الاداريون : موظفو دائرة الاستعمار مثلا ، « جايمس فيتز- جايمس ستيفن » الذي أمسى ، ابتداء من السنة ١٨١٣ ، وطيلة خمس وعشرين سنة ، الرئيس الحقيقي للامبراطورية بعـــد انحطاط النظام « الحصري » ، او اللورد « كارنارفون » الدافع الى الاتحادات ؛ وفي فرنسا ، مـــديرو الوزارات ، من « فيلو دي سانت ايلار » الى « غاستون جوزف » الذين يبقون في مراكزهم بينما

يتعاقب الوزراء ؛ او ذاك المدير الآخر ، البلجيكي « اميل بانتغ » الذي كان يذكر « افريقيا الباقية مدفونة في عزلتها والمنبطحة انبطاح عبدة جسيمة عند اقدام اوروبا اللامبالية » ويريد ان يجعل منها « حقلاً حراً لكافة النشاطات التجارية » فيشجع انعقاد المؤتمرات الدولية، ولكنه يصطدم برغبة الملك ليوبولد في الكسب .

عمل جنود الفتح بهذه الارشادات او تجاوزوها ، متعرضين لمسؤوليات كبرى احياناً ، وقد واطأهم على الذنب المسافة وصعوبات عملهم اليومي . « بهجة النفس تكمن في العمل » ، هذا هو الشعار الذي اقتبسه ليوتي عن « شلي». ألم يتكلم يوماً عن « العمل،العمل المقدس والالهي ... » هو الذي لم يرد ان يكون سوى « محارب وزعيم قبلي » ، و « سيد اقطاعي شاب » ؟ فقد كتب من تونكين : « انني اسير الحياة والعمل المباشر ؛ فبعد قضاء يومنا في المقدمة ساعين وراء شق طريقنا بالفأس بين الاشجار الكثيفة ، وباحثين على الارض عن دلائل المرور ، وسائرين في الماء حتى الركبتين ، ومتسائلين باضطراب ، عند نهاية المرحلة ، عما اذا كان الارز سيصلنا ام لا ، وعما اذا كنا سنجد دليلا يرشدنا الى الطريق ، وتكون النتيجة ، بعد استسلامنا للنوم ، عاصفة هوجاء تبلل مخيم الجنود ، اؤكد لكم ان الوقت لا يتسع لتفحص النفس ، التي لا يمنعها ذلك من ان تكون في احسن حال » . وفي رأي سسيل رودس ان على كل مستعمر ناجح ان يتقن لعبة الكرة والصولجان ولعبة كرة القدم. اما غوردون الذي كان صوفياً حقيقياً يضع سيفه في خدمة الايمان وتحت تصرف السلطة المدنية على السواء ، فقد اكثر في « يومياته » من الاستشهادات التقوية .

حكم الدبلوماسيون على مبادهاتهم بأنها كانت متهورة احياناً وبأنها لم تخدم المصالح الكبرى دائماً . فهم قد درجوا على انتقاد الدوائر الادارية والسياسيين الذين كانوا يحتقرونهم . كانوا قساة في ادارتهم ولكنهم كانوا يتباهون بمعرفة البلدي على حقيقته وباحترام عاداته وبعـــدم التقيد بمذهب اداري معين . وقد جاء في كتاب « غاليلياني » ، « مبادىء التهدئة والتنظيم » : « لا شيء يجب ان يكون اكثر مرونة من تنظيم بلاد يجري تطورها باشراف موظفين حازمين تستخدمهم الحضارة الاوروبية والاستعمار الاوروبي » . كما جاء ايضاً : « كل عمل سياسي يجب ان يميـــز العناصر المحلية الصالحة للعمل ويستفيد منها ويلاشي العناصر المحلية غير الصالحة للعمل ويقضي عليها » .

انحدر جيل اول من الحروب النابوليونية ، حروب اسبانيا وروسيا التي تطلبت صـــبراً وجلدا ومعرفة صحيحة للسكان والموارد . وقد تخرج من هـــذه المدرسة رجال من امثال « بوجو » ، و « شارلز — جايمس نابير » ، و « غـــو » اللذين انتصرا على المهرات والسيخ ، و « باسكيفيتش » و « مورافياف» (كارسكي وأمورسكي) و بيروفسكي ، ابطال الفتوحات في القفقاس وآسيا الوسطى وسيبيريا الشرقية .

ثم جاء اولئك الذين خرّجتهم افريقيا السوداء والهند نفسها،ونخص بالذكر منهم «فيدرب»

الذي لم يكن من نواصي الناس مثل بوجو ولم يكن له مطامحه السياسية كمحافظ اجتماعي ، بل كان ابن حانوتي فقيراً وتأملياً وعنيداً ومثالياً ، فاتكل على غزاره على الملاحظة المباشرة ، وسيطر على السنغال بوسائل محدودة ، وأسس دكار ، وحارب النخاسة وادخل التلغراف الكهربائي ، وتمسك بالمدرسة العلمانية الفرنسية وبالتعليم الفرنسي الاسلامي العلماني ؛ وغاليانى : السكيت ، والحريص على الخبر الثابت والنشاط العملي ، والفاتح في السودان والتونكين ، والاداري القدير في مدغشقر ، والقادر بدوره على اعداد تلامذة كثيرين اشتهر بينهم ليوتي الذي سيطبق المبادىء الواقعية خير تطبيق في الامبراطورية الشريفية . وبالمقابلة تخرج من جيش الهند بناة الامبراطورية الافريقية البريطانية : « روبرت كورناليس » المنتصر على الجنود البلديين ، الذي سير في السنة ١٨٦٧ حملة اثارت الاعجاب على النجاشي ثيودوروس (فقد نقل كل معداته ومؤنه على ظهور الفيلة ثم فتح طريقاً عبر الاحراج) ؛ و « ولسلي » الذي ارغم الـ « اشانتي » على الخضوع ، واشترك في النزاع ضد الـ « زولو » ، وهزم جيوش عرابي باشا في السنة ١٨٨٢ ودخل القاهرة ، ولكنه اخفق في محاولة قام بها لانقاذ الخرطوم التي كان يحاصرها الدراويش ؛ و « روبرتس » الذي كان مع نابير في الهند وفي الحبشة قبل ان يقود في السنة ١٨٧٩ الحملة العسكرية على كابول ، وفي السنة ١٨٨٦ الحملة العسكرية على بورما ، وقبل ان يستلم قيادة الجيوش التي ستتغلب على البوير ؛ و « كتشنر » الذي انتصر في الخرطوم ثم في الترانسفال .

الحروب الاستعمارية

ربما كان القرن التاسع عشر قرن الحروب الاستعمارية . ولعل سنة واحدة لم تنقض منه دون ان ينفذ الاوروبيون عملا حربياً في احدى نقاط القارات الاخرى .

اذا ما استثنينا الروس ، تبين لنا ان كل هذه الاعمال استلزمت مجهوداً بحرياً . فان الحملة على الجزائر قد عبأت ٦٧٦ سفينة تنقل قرابة عشرين ألف رجل . وقد تألفت الوحدة المعدة لمهاجمة « ماجونغا » في السنة ١٨٩٤ من ١٥ الف محارب . فيتضح من ثم الدور المنوط بالبحارة. اجل لقد عاد لـ « كوربيه » امر قيادة الهجوم على الشواطىء الصينية ، و لـ « فردريك بوشان – باجيه » قصف الاسكندرية بالمدافع في السنة ١٨٨٢ ؛ ولكن القيادة العليا للحملة قد اسندت احياناً لضباط البحرية ، كـ « دي بتي – توار » في اوقيانيا ، و « سيمور » في الصين ، وقد ذهب البعض الى الكلام عن « كوشنشين امراء البحر » في عهد الامبراطورية الثانية . وكان مشاة البحر السلاح المفضل في الجيوش المعدة للانزال الى البر ، وقد برز بينهم مستعمرون لامعون من أمثال القائد « بريير دي ليل » .

باستثناء حملات قليلة لم تستغرق وقتاً طويلا ، اعترضت معظم الحملات ظروف صعبة ، فتطلب النهوض بها وقتاً غير قصير وخسائر فادحة في الرجال والعتاد . اما العائق الاهم فكان المناخ في اغلب الاحيان . وقد باء الهجوم الاول على قسنطينه بالفشل بسبب الجوع والبرد

والعناء . وعلى الرغم من جلد الجيوش التي قادها بيروفسكي ، فانها كانت ضحية شتـــاء قاس في سيرها على « خيفا » ؛ اما في المكسيك والتونكين ومدغشقر ، فهي الحرارة الرطبة والحميات ما فتئت بالجنود . وقد تم هجوم ولسلي على الاشانتي في أشد الظروف صعوبة ، عبر مستنقعات السواحل اولاً ، والغابات الكثيفة ثانياً . لذلك كانت الانهار عظيمة الاهمية عـــلى الرغم من الشلالات التي تتخللها : فان ستانلي قد استخدم الكونغو ، وكتشنر النيل ؛ كما ان « مارشان » قد انتقل من الكونغو الادنى الى النيل الاوسط عن طريق الـ « اوبانغي » والـ « مبومو » .

انطوى كذلك عدم معرفة السكان ولغاتهم وطرائق معيشتهم واساليبهم الحربي معرفة كافية على صعوبات خطيرة . اجل كان تفوق الاوروبيين التقني ساحقاً ؛ ولكنهم بصرف النظر عن اضطرارهم التكيف وفاقاً لطبيعة البلاد وسكانها ، ما كانوا ليحققوا النصر بوسائلهم الخـــاصة وحدها . فكانت المسألة من ثم مسألة تجنيد الفرق المساعدة. ففي الهند جرب الانكليز اختباراً تكلل بنجاح عظيم على الرغم من خطر احدق بهم في احد الظروف : اسندوا المحافظة عـــلى الامن الى السيخ والـ « غورخا » ؛ وجند « بوجو » الـ « زواـاوا » (زواف) والفرسان والقناصة المغاربة واستخدمهم ضد غيرهم من المسلمين ؛ وسيطر فيديرب على السنغال بواسطة القناصـة الـ « اولوف » ولجأ لابرين الى الـ « شامبا » للمحافظة على الامن في الصحراء الكبرى .

الولاة المدنيون

اذا حدث ان اسندت السلطة مباشرة الى احد العسكريين ، فان موظفـي الادارة الاستعمارية قد اختيروا قانوناً من بين الموظفين الذين ينتسبون الى ملاكات مدنية خاصة . ولكن غالباً ما توجب على المستعمرين النهوض بالاعمـــال الحربية والاعمال الادارية في آن واحد ، فتكاثرت الخلافات بين العسكريين والمدنيين. وقد تصرفت كل دولة بحسب مزاجها وبمقتضى الظروف. فطرأت على النظام الاستعماري الفرنسي بنوع خاص تبدلات كثيرة ؛ ويجب انتظار الجمهورية الثالثة حتى يعود الحكم في المستعمرات ، بصورة عامة ، الى السياسيين (« لانسان » ، « جونار » ، « دومر ») ، او كبار الموظفين (« بول كامبون » ، مثلا) .

اختارت بريطانيا العظمى في صفوف ارستوقراطيتها موظفين تحلوا بصفات نادرة وعرفوا، في كنف ادارة المستعمرات المركزية ، كيف يجدون في مختلف انحاء الامبراطورية البريطـانية الحلول الموافقة للحاجات الطارئة دون ادخال اي تبديل على السياسة الاستعمارية التقليدية . فقد اجاد ممثلو العائلات الكبرى هؤلاء ، في الحقل الاستعماري ، تطبيق مبادىء الاختباريـــة التنظيمية . وقد اتوا مأثرتهم الرائعة في فتح الهند وادارتها معا . فهكذا تولى المركـــيز « دي دالوزي » بنشاط الاعمال الحربية ومجهود التطوير التقني . ثم بدأ اللورد كاننغ سلسلة نواب الملك التي ضمت شخصيات قوية من امثال اللورد « الجن » واللورد « ليتون » واللورد « ريبون ». واختير كذلك اختياراً موفقا الحكام المعدون لتمثيل جلالته في المستعمرات المتمتعة « بالحكم

الذاتي » . ونذكر منهم على سبيل المثل اللورد كرومر حاكم مصر الاول .

الحميات والمستعمرات

بينما كانت « الحصرية » سائرة في طريق الزوال والتطور متجها اما نحو الحكم الذاتي واما نحو التمثيل بالوطن الام ، في المناطق المأهولة بالاوروبيين او في المستعمرات القديمة ، بدت الحماية اكثر ملاءمة من الوصاية المباشرة لاهداف ووسائل اوروبا الرأسمالية في المناطق المحتلة حديثا . ولا يعني ذلك ان الاحرار المنشترين قد ابتكروا الطريقة : فقد سبق لِـ « دوبلكس » ان طبقها ؛ كما كان البريطانيون في الهند والهولنديون في « جاوا » متمشين عليها . وفكر المسؤولون في تطبيقها في الجزائر والسنغال وكوشنشين . ووجد الروس فائدة في ابقاء بعض خانات تركستان النافذين في مراكزهم . واستسهل فرّي الذهاب الى تونس بالتذرع بمدّ يد المساعدة للباي ، وصرح غامبتا بما يلي : « لا جلاء ولا ضم » . ولجأت حكومة لندن الى حيلة مماثلة لتبرير تدخلها في القاهرة . واستحصل « دودار دي لاغريه » من ملك كمبوديا على الاعتراف بحق فرنسا في حمايته من تعديات جيرانه السياميين والفياتناميين ، كما استحصل « اوغست بافي » على الاعتراف نفسه من الزعماء اللاوسيين . وقد جرت الامور عموما على هذا النحو كلما رأت الدولة المستعمرة نفسها امام انظمة توخت هي خيراً من مداراتها .

الا ان الضم كان واجبا حين كانت السلطة البلدية مجزأة او لا شعبية او معادية جداً . فتصبح المستعمرة آنذاك مستعمرة سيطرة او إفراد : تبقي الادارة الاوروبية على الزعماء المحليين في مراكزهم وتجردهم في الوقت نفسه من السلطة السياسية وتخضعهم لرقابة شديدة ؛ وقد تستبدلهم بكفلاء عاديين تختارهم من بين البلديين الآمنين ؛ وتدير مباشرة شؤون البلاد وفاقا لما ترى فيه مصلحة السكان العامة . وقد استخدم البريطانيون هذا النظام في الهند حيث لم يكن نظام الحماية كافيا ؛ ثم استخدم على نطاق واسع في افريقيا السوداء ، وحتى في مدغشقر ، بعد قلب الملكية الهوفية .

المنافسات الكبرى والتقسيمات

خلال القرون السابقة تسببت المنازعات الاستعمارية في حروب بين الدول الاوروبية . والحال ، كما ان سياسة المعاهدات مع الزعماء البلديين قد اعتبرت خير سياسة ، كذلك سوّيَت الخلافات الدولية بطريقة المفاوضة .

تخلص العالم الجديد اكثر فأكثر من هذه المنافسات . فباسم المونروية التي كانت تتوخى ابعاد الاساليب الاستعمارية عن القارة الاميركية ، انتهجت الولايات المتحدة طريقة الشراء للحصول على المناطق التي ما زال الاوروبيون يمتلكونها فيها : وهكذا تم انتقال هام في السيادة في السنة ١٨٦٧ حين تخلت لها روسيا عن آلاسكا . ولكن الدانيمارك باعت كذلك من بريطانيا العظمى قطاعها الغيني ، كما باعت اسبانيا من المانيا « بالاوس » و « ماريان » و « كارولين » .

الا ان مناطق الاحتكاك الكبرى قامت في اماكن اخرى . فقد اتصل اهمها شأنا من

الغرب الى الشرق ، من مضيق جبل طارق الى المحيط الباسيفيكي الغربي ، على جنبات البحـــار الداخلية ، والبرازخ والمضائق التي تتيح انتقالا يسيراً بين الكتلتين الاوراسية والافريقية ، ثم على الاراضي الساحلية الجنوبية والجنوبية الشرقية من آسيا. وقد تعاونت فرنسا وانكلترا فيها على ابعاد روسيا او اختلفتا اختلافاً متكرراً . وتأزم الوضع في المتوسط بعد السنة ١٨٧٠ عند نزول ايطاليا الى الحلبة . وامتد البراز الانكليزي الروسي الى كافة انحاء آسيا الوسطى ، ولا سيما عند مشارف الهند . ويجدر لفت الانتباه هنا الى ان الحدث الحربي الوحيد الذي جـرى في اوروبا نفسها بسبب المنافسات الاستعمارية – حرب القرم – مرده الصراع من اجل السيطرة على اكثر بقاع هذه المنطقة اثارة للتنازع ، الشرق الادنى .

لم يعد صحيحاً ان الخصومة بين بريطانيا العظمى وروسيا كانت قائمة بـين امبراطورية بحرية وامبراطورية برية. فالدولة التي كانت مسيطرة على البحر كانت مصممة على الاستئثار من جهة اليابسة . وفي هذا المجال يبدو احتلال الهند بكاملها سابقة ذات مغزى . ولكن الحدث لم يعد لينطوي على اي طابع استثنائي ، اذ ان احدى مميزات الاستعمار آنذاك كانت الحصول على قواعـــد برية كبرى . وجاز لـ « جول فري » ان يؤكد : « اما اليوم فهي القارات ما يطلب ضمه ، وهو العالم الاوسع ما يطلب اقتسامه » . وان في تقسيم افريقيا لخير مَثل على هذه السياسة . الا ان منافسة قامت من اجل السيطرة على الباسيفيكي .

على غرار ما حدث في الماضي ، سويت الخلافات على العموم بين دولة ودولة بفضل اتفاقات تلزم الطرفين . وباستثناء جزر « الهبريد الجديدة » ، حيث ادخل في السنة ١٨٨٧ ، لم يعش نظام « الامتلاك المشترك » حياة طويلة في اي مكان : فهو لم يدم لا في مصر ولا في « ساموا » . وعلى نقيض ذلك ، اذا لم يعط التحكيم بدوره سوى نتائج هزيلة ، فانه قد اثار في السنة ١٨٨٤ حدثين جديرين بأن نتوقف عندهما : فمن جهة ، النداء الموجه الى البابا ، الذي سلـك سلوك البابا اسكندر السادس وفصل في الخلاف الاسباني الالماني حول الكارولين ؛ ومن جهة اخرى ، انعقاد المؤتمر الدولي في برلين . فكان على هذا الاخير « ان يستدرك المنازعات التي قد تثيرها في المستقبـل الاستيلاءات الجديدة على شواطىء افريقيا » . وفي الواقع ، كان اعتقاد بسمارك بأنه سيلعب فيه الدور المفيد نفسه الذي لعبه في مؤتمر السنة ١٨٧٨ حـــول المسألة الشرقية . وكما حدث في السنة ١٨٧٨ ، جرت المناقشات الهامة وراء الكواليس حيث عينت حـــدود الدولة الكونغولية . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تجدد السباق ، بحرارة لم يسبق لهـا مثيل ، من اجل احتلال المناطق الداثرية . الا ان فكرة عرض المسائل الاستعمارية الشائكة على محكمـــة دولية لم تضمحل قط ؛ فهي التي ستوحي بالدعوة الى مؤتمر « الجزيرة » في السنة ١٩٠٦ . ومهما يكن من الامر فان ريشة الدبلوماسيين قد وجدت لها عملاً دائما ؛ فقد رسمت على خريطة العالم الاشكال الهوائية للانصبة التي آلت في النتيجة الى الدول الاستعمارية المختلفة دون ان يتعرض السلم الاوروبي للاخطار

مصير السكنديناڤيين المشرف في الشمالي الاطلسي

ان المؤسسات الاستعمارية السكنديناڤية تتصل في الارجح بنزوحات « الفيكنغز » القديمة . وكان السكنديناڤيون خير بحارة وصيادين وقناصة في المياه الشمالية ؛ فتأثروا بهذه الصفة بسحر المياه الجنوبية ؛ وما كانت الجزر والاسواق التجارية في المناطق الحارة لتستهويهم استهواء يذكر . وبينما كانت النشاطات الزراعية والصناعية كافية لتشغيل السويد ، اضطر النروجيون ، المرتبطون بهم منذ السنة ١٨١٥ ، الى حصر توسعهم في الاستيلاء على « سبتزبرغ » والمطالبة بـ « جان مايان » وارخبيل « فرنسوا — جوزف » و « غرينلند » . ولكن الدانماركيين نظروا دائماً الى هذه الارض الاخيرة ومعادنها واسماك مياهها الوفيرة نظرهم الى مُلك خاص . فهنا تقوم حدود امبراطوريتهم التي تضم بالاضافة « فار اوير » و « اسلندا » . زد على ذلك ان اسلندا كانت سائرة في طريق الاستقلال : تعرضت لامتحانات قاسية وعانت من المناخ وثورات البراكين والزلازل والمجاعات واوبئة الجدري ، فتخلصت شيئاً فشيئاً من حالتها السيئة باحياء الزراعة وصيد الاسماك وفازت بجمعية محلية ، والغاء « الحصرية » ، ثم باستقلال ذاتي حقيقي في السنة ١٨٧٤ ؛ فأرشدت بذلك ايرلندا جارتها الى الطريق التي يجب عليها سلوكها .

الانحطاط الايبيري

اغتنم الاسبانيون والبرتغاليون بذكرى ماهى اعظم سحراً ايضاً ، ثم بفعل كارثة لا دواء لها . فلم يبق في حوزة كلا الشعبين سوى بقايا متناثرة على طرقاتها الامبراطورية القديمة ، ولا وسائل لديهما لتحقيق نهضة متوخاة .

انهارت الامبراطورية البورتغالية انهياراً سريعاً في النصف الاول من القرن بانفصال البرازيل عنها ، وباحتلال الهولنديين لبعض جزر السوند ، كجزيرة « فلوريس » مثلا ، التي خلت من الحاميات العسكرية ، وبالتخلي عن شطر كبير من غينيا والغابون . ثم تلاشت الاسواق التي كانت لشبونة تحتفظ بها في الهند والانسولند على السواء . الا ان محاولة اصلاحية قد جرت بفتح المستعمرات للتجارة الخارجية ، ونقل الممتلكات في المستعمرات الى ايدي المهاجرين المستعمرين ، وبالغاء الرق . ثم تعللت البورتغال بأمل تحقيق السيطرة على افريقيا الجنوبية والوسطى ، ولكن آمالها تحطمت في مؤتمر برلين ، وقد وسم مطلع عهد كارلوس الاول بمعاهدة مذلة وقعها في السنة ١٨٩٠ . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان انغولا وموزامبيك اقتضتا من النفقات فوق ما درتاه من المداخيل ، وعم الرأي في اوروبا ان البورتغال قد تسلم بالتخلي عنها مقابل تعويض كبير .

تعذر على الحكومات الاسبانية المتعاقبة التفكير بأي مشروع خارجي حتى السنة ١٨٥٠ بسبب الاضطرابات الداخلية . وقد حاول القائد « اودونل » ، بدافع النفوذ الشخصي ، تجديد عهد الحملات الصليبية بانقاذ حصون سبتا ومليلا التي ما زالت قبائل الريف تهاجمها بدون انقطاع ؛ ولكن مناورته امام طنجة و « لاراش » وتطوان لم تدم طويلا بسبب تدخل انكلترا . وجرت بعد ذلك محاولة هجومية فاشلة في اميركا اللاتينية : اشتركت اسبانيا في حملة المكسيك ولكنها

انسحبت منها مع انسحاب بريطانيا العظمى ؛ وانزلت جيوشاً في « سان – دومنغ » ، ولكن الاهالي الثائرين طردوا الجيوش منها ؛ وارسلت اسطولا الى شواطىء الباسيفيكي واستولت على الجزر الغنية بالغوانو ، ولكن تحالف الدول الآندية ارغمها على الانسحاب . وبعد ذلك ثارت كوبا على سيطرة احتفظت بمميزات « الحصرية » ، وازدادت حالة القلق خطورة في الفيليبين و « بورتوريكو » اللتين عانتا الامرين من اهمال الادارة وتغافلها . وكانت كارثة السنة ١٨٩٨ قريبة الحصول حين احتل الاسبانيون ساحل « ريو دي اورو » الصحراوي وزعموا حينذاك انهم يقومون « بأول عمل في سلسلة اعمال سياسة افريقية » ستتيح لهم تعزيز موقفهم عند المطالبة بتقسيم المغرب المحتمل .

استمرار العظمة النيرلندية

في الوقت الذي نظر فيه الأب « دي برادت » الى البلجيكيين نظره الى « اناس عادمي الفضول في المعرفة وغرباء عن كل ما يجري خارج بلادهم » ، كان للهولنديين تقليدهم الاستعماري الراسخ. اجل كانت لهم خسارة « الراس » وسيلان ضربة قاسية ؛ ولكن مملكة هولندا حققت السيادة ، أقله نظرياً ، في السنة ١٨١٥ على مستعمرات شاسعة اوسع من رقعتها بستين ضعفاً ومأهولة بأربعة اضعاف سكانها: وتتألف هذه المستعمرات من مجموعتين متميزتين متباينتين شأناً يغلب فيهما المناخ الاستوائي، مجموعة الهند الغربية (بعض جزر الانتيل ، كـ « كوراسو » وسورينام) ، ومجموعة الهند الشرقية المتكونة من ارخبيل السوند والشطر الاكبر من بورنيو و « سيليب » والمولوك. فكان ذلك كافيا لنشاط شعب صغير جلود ومتبصر : تفرغت هولندا منذئذ لهذه الممتلكات دون ان تحاول توسيعها محاولة تذكر . فهي بعد اليوم لا تتقدم ولا تتراجع ، بل تثبت اقدامها .

امبراطورية الروس الاوراسية

واصلت روسيا ، عبر سهولها اللامتناهية، حرباً هي أشبه بحرب استرداد الاراضي من الاسلام الذي لم ترده الى الوراء بل دخلت بعيداً في الاراضي التي يسيطر عليها . ويبدو من جهة ثانية ان النزاع القديم بين الحضر والبدو كان لا يزال قائماً لان التقدم الروسي عنى كذلك اقامة الفلاحين المزارعين في البقاع النائية من منطقة البورات الواسعة الاطراف. واذا كانت سيبيريا اخيراً، في مناطقها الشمالية الشرقية ، امتداداً لطبيعة روسيا القاسية ، فان امبراطورية القياصرة لم تتصل بالبحار الباردة فحسب ، اذ كان باستطاعتها النزول الى الممر المنشوري حتى وسط عالم الشرق الاقصى ، بل بلغت في الجنوب المناطق الطورانية ومناطق ما وراء القفقاس التي تذكر بالمناطق الحارة . ولا يجوز ان نرى في هذا التقدم تصميماً على فتح المنافذ الى المحيطات فحسب : فهناك هجرة شعب مطرد التكاثر الى مناطق قليلة السكان ، وجاذب الموارد التكميلية .

« ايه روسيا ، ألا تشعرين بأنك منطلقة نحو المجهول على غرار الـ « تروبكا » الجامحة التي لا يستطيع احد اللحاق بها ؟ » (« غوغول » ، « النفوس الميتة ») .

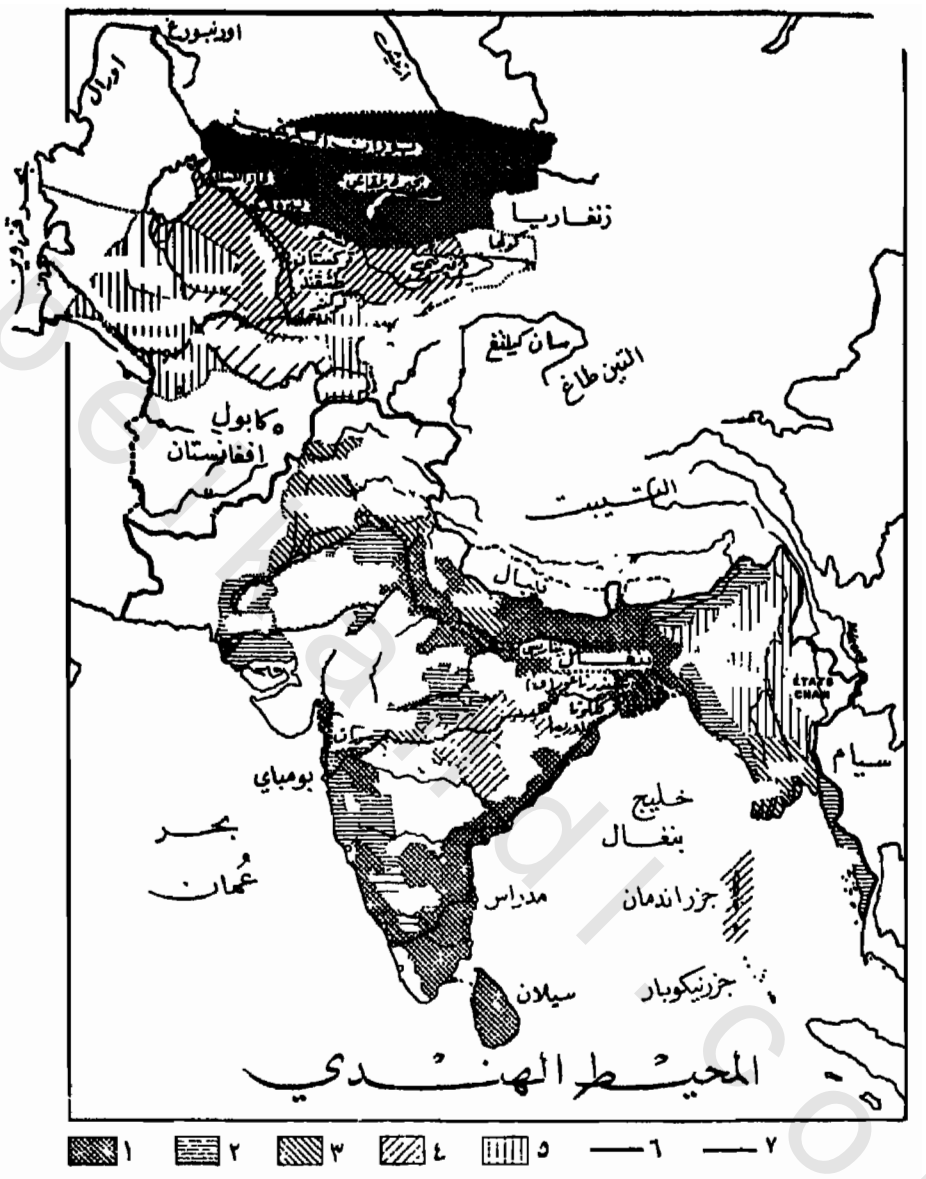

شكل ١١ ـ البريطانيون في الهند ، والروس في آسيا الوسطى

١ ، احتلال بريطاني حتى السنة ١٨١٥ وتوسع روسي في اوائل القرن التاسع عشر ؛ ٢ ، تقدم بريطاني حتى حاكمية اللورد « دالوزي » العامة (١٨١٥ ـ ١٨٤٨) ؛ ٣ ، فتوحات اللورد دالوزي حتى ثورة الجندين البلديين في الجيش البريطاني (١٨١٥ ـ ١٨٥٧) ؛ ٤ ، تقدم الروس ومكاسب البريطانيين بين السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٧٠ ؛ ٥ ، تقدم الروس والبريطانيين بعد السنة ١٨٧٠ ؛ ٦ ، حدود امبراطورية الهند ؛ ٧ ، الخطوط الحديدية الرئيسية المبنية في القرن التاسع عشر .

ادیرت العملية بجلد وطول اناة منذ زمن بعيد. اما الوسائل فكانت هي هي ابداً:القوزاق، التجارة ، « البخشيش » ، والمفاوضة عن طريق الدين كلما كان ذلك مفيداً. فكانت روسيا ارثوذكسية في البلقان والشرق الادنى ، واسلامية في خيفا ، وبوذية في منغوليا .

تميز هذا الاستعمار ، من جملة ما تميز به ، باسهام القوزاق فيه اسهاماً رئيسياً . اشتركوا في كافة الحروب الاوروبية ، وسيشتركون فيها في المستقبل ؛ ولكنهم خدموا بمزيد من الاندفاع ايضا في هذه البورات التي تذكرهم ببوراتهم . وجند القيصر فرسانه المتفوقين من بين طوائف الا « ستانتساس » التي كانت تعيش من تربية المواشي وتروض الجياد بحب تفضيلي . وكانت قيادة كل من فرق القوزاق الاحدى عشرة (فويسكوس) – لآلىء التاج الاحدى عشرة – مسندةالى قائد يدعى « اتامان » . وكان القوزاق محاربين لا يبالون بالتعب ، يأكلون الاسماك واللحوم والخبز المجفف ، ويشربون الماء ويمتطون صهوات خيولهم بدون مهاميز ، ويقبضون على السوط الجلدي ، ويرتدون ثوباً كبيراً يعرف بالا « بورقا » : يتسلحون بحربة ، وسيف دون غمد ، ومسدس ، وبندقية قصيرة خفيفة ، ويتوجهون بدون خريطة ولا بوصلة مهتدين بالشمس والنجوم . واذا دان معظمهم بالارثوذكسية – وقد انتمى بعضهم الى شيع « راسكولنيك » – فقد يحدث ان يكونوا مسلمين في « تركك » او « كوبان » ، وبوذيين في ما وراء بحيرة « بايكال » ؛ وكان بعضهم يهوداً . واشتهر قوزاق الا « دون » بقيادة «بافل يمقوبلفيتش دي رينتكامبف » في حروبهم ضد فارس ، وفي بولونيا والقفقاس وهنغاريا والقرم . ثم عمد القيصر ، رغبة منه في توطيد فتح القفقاس ، الى تنظيم قوزاق كوبان ، وقوزاك ترك مقطعاً اياهم بعض الاراضي في هذه المناطق . واشترك قوزاق الاورال في حملة بيروفسكي . وكان « سكوبليف » بطلهم في تركستان وفي حملة البلقان في السنة ١٨٧٧ ؛ وكانوا يلقبونه بالا « باشا الابيض » . وتألفت في «سميرتشنسك » فرقة من قوزاق سيبيريا لمراقبة تركستان . واضاف مورافييف الى الفرقة المقيمة في ما وراء بحيرة بايكال فرقة الا « امور » مجنداً افرادها من بين الا « بوريات المغوليين» البوذيين ،المشهورين بالقنص واحتساء الشاي . وكان هؤلاء بمثابة المراكز الامامية للسيطرة على الشرق الاقصى التي لن يربطها الخط الحديدي بروسيا الاوروبية الا في اواخر القرن .

كانت هذه الامبراطورية اكبر من ان تدار بالضبط اللازم : فان مسألة المسافة لم تحل الا جزئياً بانشاء الخطوط التلغرافية وببناء خطين او ثلاثة خطوط حديدية كبرى . فقد بقي هناك شيء ناقص لم يكتمل ، أعني به وضع اليد على الارض ، بسبب عدم اتصال المناطق المأهولة . ولكن الخطر الروسي كان جديا على حدود هذه الكتلة الضخمة التي بدت وكأنها ستسحق آسيا بكاملها في يوم من الايام .

تأسيس امبراطورية استعمارية فرنسية جديدة

جمع الفرنسيون شيئاً فشيئاً العناصر التي ستتألف منها ، خلال مئة سنة ، احدى أوسع الامبراطوريات الاستعمارية ، دون ان يسيروا على مخطط مدروس ودون ان تحركهم الحاجةالى مناطق قادرة على استيعاب المهاجرين،ولكنهم كانوافيذلكحريصين على الدفاع عن مصالح لم تكن دائماً

مصالح مادية .

لم يبق من الممتلكات الماضية سوى بعض اجزاء مستعمرات المناطق الحارة التي تصادم حول ادارتها التقليد التجاري ورأي مواليد المستعمرات من الفرنسيين ومبادىء السنة ١٧٨٩ . وقد اثبتت الجمهورية الثانية وجودها القصير الامد بالغاء الرق واستهلال سياسة التمثيل ؛ وفي عهد الامبراطورية الثانية زالت « الحصرية » نهائياً من الوجود .

كان الحدث الهام احتلال الجزائر الذي اثار بعض الاسئلة : امتداد للوطن الام ؟ أم تعايش مع البلديين وفاقاً لنظام مختلط ؟ تلمس المستعمرون طريقهم الى ان تأيد عمل فرنسا في المناطق الحارة بارتسام عالمين استعماريين مختلفين ، احدهما في افريقيا والثاني في آسيا : فحوالي السنة ١٨٦٠ ، وفي ظل الحرية الاقتصادية ، بدت الحماية بمرونتها كخير نظام لادارة مناطق مختلفة كل الاختلاف كافريقيا الشمالية والسنغال وكوشنشين؛ ولكن فرنسيي الجزائر قد قاوموا فكرة « المملكة العربية » .

كانت الجمهورية الثالثة مرتابة حيال المستقبل ومرغمة على الوقوف موقف الارتقاب ، فاختارت في البدء سياسة التمثيل التي كان مدعواً للاستفادة منها لا مستعمرات الجزائر القديمة فحسب بل السنغال والمؤسسات الاستعمارية في الهند ايضاً . ثم تألفت كتلة افريقية ، من المتوسط – بجبهة زادت اتساعاً على هذا البحر – حتى خليج غينيا و « دارفور » وحتى الكونغو الاسفل . وجرى تجمع آخر في داخل المثلث المرسوم بين جيبوتي وشاندرناغور و « سانت – ماري » في مدغشقر ؛ وارتسمت كتلة ثالثة في الهند الصينية . واذا اضفنا الى ذلك ان فرنسا موجودة في اميركا واشتركت في اقتسام اوقيانيا ، اتضح لنا ان امبراطوريتها قد تميزت بوجودها في كل مكان على غرار الامبراطورية البريطانية . وانما تقابلت نزعات مختلفة اتصل بعضها بالفلسفة الجمهورية الديموقراطية وبعضها الآخر بالموضوعية النفعية ، او كانت توفيقاً بين المبادىء والوقائع . واضطرت الانتهازية، بالاضافة الى ذلك، الى ان تأخذ بعين الاعتبار المعارضة المقاومة للاستعمار ، فقامت بتبديل الصيغ وفاقاً للظروف والحالات ، وتبرير « الاستبداد المستنير » الذي يعتمده الحكام، وافساح المجال في الوقت نفسه للمشاريع الرأسمالية. ولم يكن هناك وزارة مستقلة للمستعمرات قبل السنة ١٨٩٤ : بل اكتفي بمجلس أعلى استشاري انشىء في السنة ١٨٨٣ ، ومديرية ترتبط اما بوزارة التجارة واما بوزارة البحرية ، بينما ارتبطت محميتا تونس وأنّام بوزارة الشؤون الخارجية . وترقبت التجمعات الاقليمية (اتحاد الهند الصينية ، وافريقيا الغربية الفرنسية ، وافريقيا الاستوائية الفرنسية) انشاء ملاك الحكام الاستعماريين في السنة ١٨٨٧ . يضاف الى ذلك ان ردة فعل مذهب حماية الصناعة الوطنية قد شجعت السياسة المعروفة بسياسة الربط التي كانت التدابير الجمركية نفسها ممكنة التطبيق بموجبها في الوطن الام والجزائر والمستعمرات القديمة ومدغشقر. اما بصدد المحميات والممتلكات الاخرى فيجب التفاوض مع الاجانب .

ان توثيق الروابط هذا بين فرنسا وممتلكاتها قد صادف في الزمن فترة الهبوط الاقتصادي . فاعتمدت الانتهازية والاختبارية طرائق جديدة . وقابل اللامركزية الادارية والتجمعات الاقليمية توجيه نحو الاستقلال المالي الذي كان من شأنه تشجيع التجهيز دون ان يتحمل الوطن الام نفقات كبرى .

دخلت «فرنسا الكبرى» هذه في التراث العاطفي الفرنسي ، مع ان الفرنسي لم يُجد تحديدها كما يحب التحديد . ولكنها لم تعرف ، لمدة طويلة ، سوى تقدم بطيء جداً ، لأنه كان ينتظر منها اكثر مما يسلّم باعطائها .

التفوق البريطاني

منذ أواخر القرن الثامن عشر تجدد ارتقاء بريطانيا وسيرها قدماً . فقد حلت محل امبراطوريتها الاولى ، التي كانت تجارية وتمثلت في اميركا اكثر منها في القارات الاخرى ، امبراطورية ثانية ارتسمت حدودها حوالي السنة ١٨٥٠ وبلغت الذروة في السنوات ١٨٧٠ – ١٨٨٠ . تلك هي امبراطورية العهد الفيكتوري : امبراطورية المقايضة الحرة ؛ امبراطورية بريطانيا العظمى التي اصبحت بدون منازع اعظم دولة بحرية وتجارية وصناعية ومصرفية ايضاً . زد على ذلك من جهة ثانية ان الهيمنة البريطانية قد بلغت ، كما يبدو ، من الرجحان الذي لا يقاوم ما جعل بعضهم يعتبرون استخدام القوة وحتى عرضها عملية نافلة كان لها ما يبررها قبل تلك الايام ؛ فليس من حاجة الا للمفاوضة والتجارة لترجيح الحجة البريطانية . الا ان وجود الامبراطورية كان ضمانة جليلة الفائدة للتقدم .

تألفت الامبراطورية من عناصر ثلاثة موروثة عن العهود السابقة ما زالت تتقدم تدريجياً : المستعمرات الستراتيجية ، المناطق الحارة ولا سيما الهند ، ومستعمرات الاسكان في المنطقتين المعتدلتين .

كان المضرب العظيم الذي حاكته انكلترا على سطح الارض على وشك الاكتمال . وقد طنبته شبكة كثيفة من الاسواق التجارية ونقاط المساندة ومرافىء التموين ، وفاقاً للطريقة الاستعمارية البورتغالية . فحيثما وجد جون امين ونقطة يسهل اقتراب السفن منها على الطرق البحرية ، هناك يكون البريطاني . امعن في البحث عن الجزر وحتى عن الجزيرات في المضائق ، وجعل منها محطات بحرية لتزويد اساطيله بالمياه والمواد الغذائية والمحروقات وتموين السفن الاجنبية . وعلق فيها اسلاكه التلغرافية . وانطلق منها ، عند الحاجة ، لاستطلاع الوضع التجاري في القارات القريبة . واستخدمها كقواعد للعمليات البحرية وحتى البرية . فامتلك من ثم معظم الجزر المتناثرة امام الشاطىء الاطلسي في العالم الجديد ، التي كانت بمثابة الركائز لجسر عظيم يصل اوروبا بافريقيا الجنوبية (حتى ولو كانت ترفع علما ايبيريا) ، والجزر المتناثرة كذلك في المحيط الهندي – الذي احتفظ به لنفسه – او المحيطة به ، والجزر التي تسيطر على مدخل بحر الصين . واضاف بيريم الى عدن لمراقبة باب المندب مراقبة فضلى ،

وهونغ كونغ الى سنغافوره لاستقطاب تجارة الصين ، وحين شعر بأنه ما زال بحاجة الى محطة اخرى ، استولى على جزيرة « لابوان » أمام ساحل بورنيو الشمالي ، التي انطلق منها لاحتلال بورنيو الشمالية البريطانية ؛ وخلال السنة ١٨٧٨ ، حين اشتدت الازمة بينه وبين روسيا ، وضع يده على قبرص في المتوسط الشرقي ؛ ولم يكتف بانزال جيوشه الى جزر البحرين وكشم في مضيق اورموز لمراقبة الخليج الفارسي ، بل وقع اختياره على رأس جارك قبالة مسقط ، وجزر كوريا – موريا جنوبي الجزيرة العربية ، وجزيرة سكوطرة عند مدخل خليج عدن ؛ وباستيلائه على جزر « فيجي » احتفظ لنفسه باحدى المحطات الفضلى على الطريق البحرية عبر الباسيفيكي من الشمال الى الجنوب . وكانت هذه المواقع بمثابة نوافذ على الأراضي المجاورة : سنغافورة على الدول الماليزية ، ولابوان على بورنيو ، وعدن على مؤخرتها العربية ، ولاغوس على نيجيريا ، و « مباز » على افريقيا الشرقية ؛ بالاضافة الى زنجبار التي قايض هليغولند بها في السنة ١٨٩٠ .

الهند الغربية والهند الشرقية : لوحتان دلتا ابداً على الممتلكات الكبرى في المناطق الحارة . فمن جهة ارخبيل « وندوورد » وارخبيل « ليوورد » في الانتيل ، وجامايكا الجميلة ، وكبرى مستعمرات « غويانا » ، وبقعة من « هوندوراس » حول « بليز » ؛ ومن جهة اخرى الهند وملحقاتها . وفيما بينهما ، اي في افريقيا ، مستعمرات لا اهمية كبرى لها : غامبيا و « سيراليون » وسوقا اكرا ولاغوس على الشاطىء الغربي . فقد انحصر الاهتمام كله بالهند التي لم يدخر الانكليز وسعاً في سبيل استثمارها وحماية حدودها . اليها اتجهت كافة الطرقات التي سهرت عليها غيرة مفرطة : الطريق القديمة التي زاد نمو افريقيا الجنوبية البريطانية من تعزيزها ، والطريق الجديدة التي كادت تصبح بدورها طريقاً بريطانية بعد احتلال مصر . وقد تلاحمت حينذاك الحلقة الاخيرة من السلسلة الامبراطورية التي امتدت بين لندن وبومباي مروراً بجبل طارق ومالطا والبحر الاحمر .

ولم يعتد بكندا وافريقيا الجنوبية والمستعمرات الاوسترالية للاسكان بقدر ما اعتد بها لمساحاتها الكبرى . بيد ان الاوروبيين اخذوا يتوافدون عليها بأعداد كبيرة ، ونمت فيها حياة على الطراز البريطاني . فأخذت تترعرع شخصيات قومية قوية في هذه الاراضي التي اكتسب فيها المهاجر عادات جديدة اضافها الى اخلاق الوطن الام .

والحال ، في الوقت الذي ما زال غلادستون يثبت فيه انه المعبر الامين عن الحرية المنشستارية ، وبينما تواصل في الوقت نفسه ، في الوطن الام ، وفي مستعمرات الإسكان ، وحتى في مستعمرات المناطق الحارة ، تطور نحو نظام تمثيلي اوسع عدداً ، دخلت الامبراطورية الثانية في مرحلة تحول .

هي نتيجة الهبوط الاقتصادي ما جعلت المنافسة اشد حدة والحمى الاستعمارية اعظم خطورة في حين بدأ التسابق الى التسلح . فاتخذت الدولة البريطانية احتياطاتها على طريق

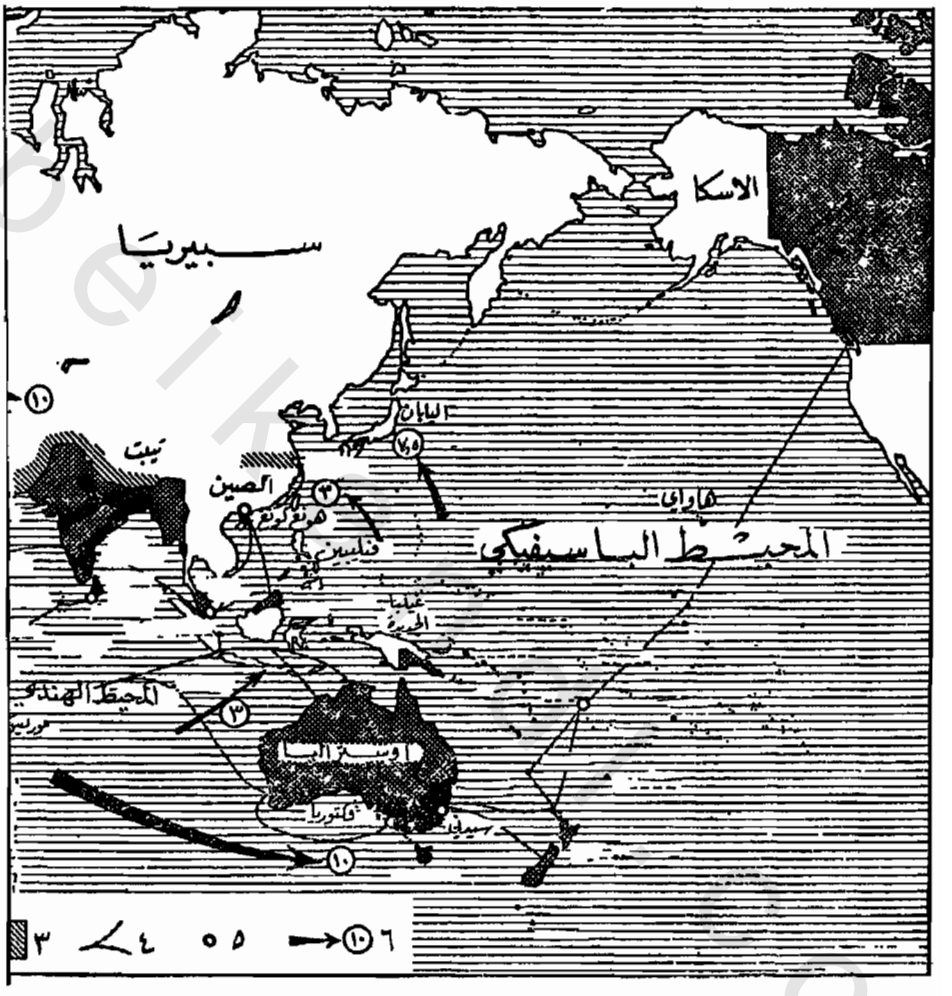

شكل ١٢ ـــ العظمى البري

١ ، الممتلكات البريطانية في السنة ١٨١٥ ؛ ٢ ،التوسع الاقليمي خلال القرن التاسع عشر

٥ ، موانىء التموين والمحطات البحرية الهامة ؛ ٦ ، وجهات وقيم الاموال البريطانية الموظ

obeikandl.com

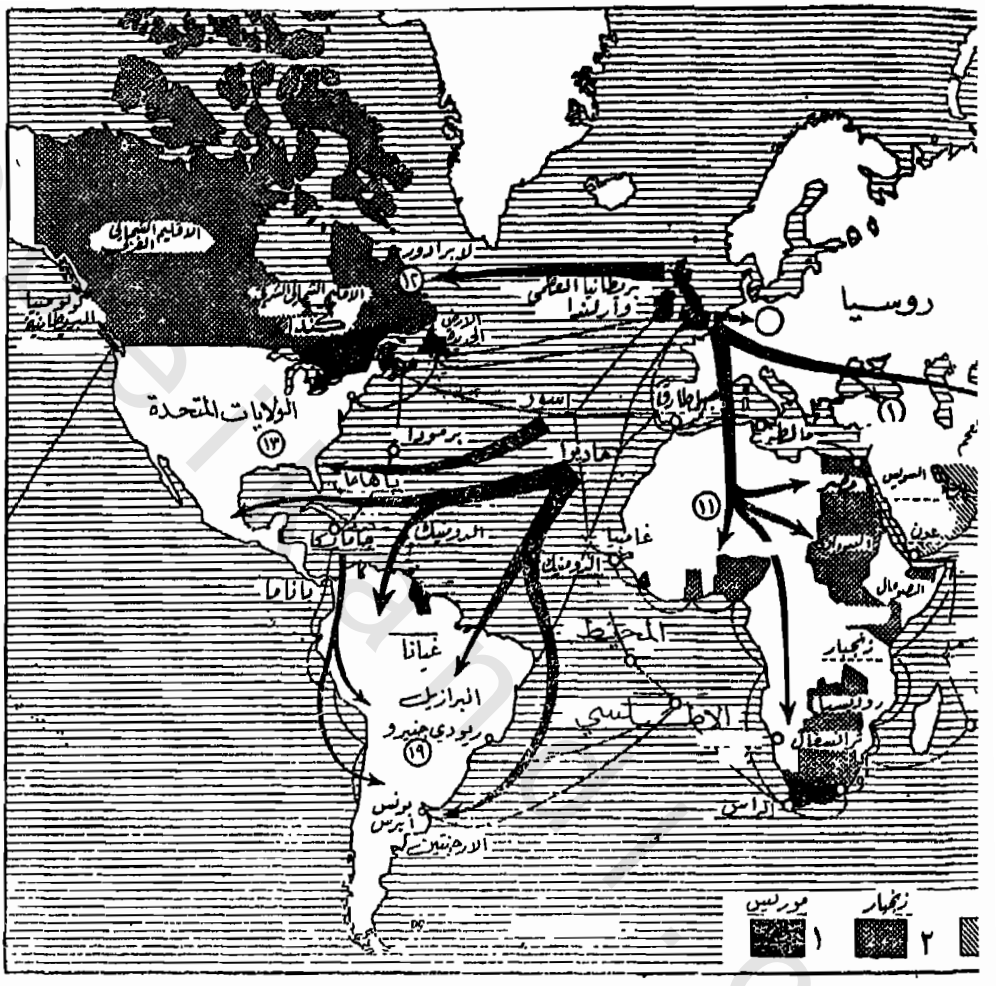

طانية في القرن التاسع عشر

؛ ٣ ، مناطق النفوذ ؛ ٤ ، الخطوط التلغرافية البحرية الرئيسية التي تمتلكها شركات بريطانية؛

بلايين الفرنكات ، في السنة ١٩١٣ . (نقلا عن « هربرت فايس » في «اوروبا، صير في العالم»).

الهند عبر السويس ؛ ولكنها ما كانت لتستطيع البقاء بعيدة عن اقتسام افريقيا واوقيانيا الذي سوف يتحقق بكل سرعة . اضف الى ذلك من جهة ثانية أن القوميات الفتية استيقظت في داخل مستعمراتها الاسكانية التي سبق ومنحتها الحكم الذاتي : فاذا اصبح بمقدور مملكة كندا في شبابها ان تنفتح على اميركا الشمالية ، فان اوستراليا وزيلندا الجديدة اخذتا منذ ذاك الحين تنشطان في الجزر الاوقيانوسية الصغرى ، وانطلاقاً من « الراس » تأسست شيئاً فشيئاً افريقيا جنوبية بريطانية واسعة الارجاء . وهكذا بينما كانت بريطانيا تعزز حدود الهند باستيلائها على الممرات الايرانية والهملاوية وبضمها بورما ، هجمت بجيوشها على افريقيا حيث اقتطعت مستعمرات واسعة جديدة . وكانت مكاسبها الاقليمية عظيمة جداً بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٢ : ١١ مليون كيلومتر مربع .

باتت الامبراطورية برية اكثر منها بحرية . وبعد اليوم تمثلت فيها الجماعات البشرية المتأخرة حضارة والمتخلفة تطوراً تمثلا اقوى ، فتعاظم التضاد سياسياً بين هذه المناطق التي كان الوطن الام حريصاً على الاحتفاظ بها وبين المجتمعات الاوروبية الطابع التي ستكوّن الممتلكات . ولكن بريطانيا اهتدت بمرونة الى خير صيغة تلائم مزاج كل منطقة . واذا قضت الحاجة بأساليب مختلفة ، واذا اقلقت بعض القوى الانفصالية ، الشعوب الانكلوساكسونية الجديدة ، فان التضامن قد عززته الحاجة الى دفاع مشترك واعتماد مبدأ الحماية التجارية اعتماداً مطرداً .

وفي آخر القرن كان العالم البريطاني محافظاً على تلاحمه وعلى الاعتزاز بتفوقه .

المستعمرون الاخيرون : من الارث البلجيكي الى المطامع الالمانية والايطالية

في السنة ١٩٠٠ ، كان اقتطاع المستعمرات قد بلغ مرحلة متقدمة جداً ، وهي الدول القديمة ، ولا سيما فرنسا وبريطانيا العظمى ، ما اصابها النصيب الاوفر . ولكن دولاً استعمارية جديدة قد برزت .

فان الدولة الكونغولية ، التي كانت ثمرة مبادهة ملكية ومعاهدات دولية لم تضمن مستقبلها ، سوف تخضع لرقابة حكومة بروكسل : انها أوسع الانصبة مساحة واكثرها تجانساً واوفرها ثروة واصعبها استثماراً .

كان بسمارك قد اشرف على ولادة « الدولة » المستقلة . فهل هو لم يصمم بعد على تحمل مسؤولياته يا ترى ؟ ام هل أنه كان راغباً في مراعاة جانب انكلترا ؟ واذا كان هذا هو واقع الحال ، فماذا تستطيع المانيا ، ان لم يكن الاستثمار بما تبقى بعد التقسيمات الكبرى ؟ وهكذا تكونت ، في اقل من عشرين سنة ، مستعمرات المانية شملت مجموعتين ، الاولى في افريقيا (جنوبي غربي افريقيا) وهي نصف صحراوية وتتميز بعدم الاتصال وصعوبة الاستثمار ، والثانية في الباسيفيكي (في ساموا ، وغينيا الجديدة ، ومجموعة الجزر المجاورة) ، وهي نائية جداً وقليلة التجانس . ومن جهة ثانية لم يبتغ بسمارك سوى تشجيع مشاريع مواطنيه ؛ فهو في

كل مكان تقريباً قد اراح نفسه من شجون الادارة ملقياً اياها على عاتق الشركات التعاقدية ، وحين حل « الرايخ » محل هذه الاخيرة ، وجد نفسه أمام « مقاطعات موضوعة تحت حماية الامبراطور » لا ترتبط الا بالمستشارية الامبراطورية . وبعد بسمارك لم يبق من اهمية لهذه المستعمرات ، في برلين ، الا بالنسبة للسياسة التوسعية الجرمانية ؛ فقد تمتعت فيها الشركات ذات الامتياز بكل حرية ، وأتت التجاوزات نفسها التي اتتها الامتيازات البلجيكية او الفرنسية .

ولكن ألمانيا ، التي عجزت عن ارضاء حاجات هجرة واسعة وحاجات رأسمالية تزايدت مشاريعها ، والتي لم تمتلك اي موقع من المواقع الهامة الرئيسية ، والتي كانت مع ذلك في موقف ملائم للمطالبة ، اذ ان ممتلكاتها كانت محاطة بممتلكات الدول الاخرى ، ارغمت بالضرورة على اللجوء الى التهديد الجدي للحصول على فوائد جديدة .

كانت ايطاليا دون المانيا قوة ، ولكنها ، على الرغم من ذلك ، كانت راغبة في الاستيلاء على تونس : فخاب املها مرة أولى . ثم توجهت بانظارها الى افريقيا الشرقية : ولكن قواعد انطلاقها (اريتريا والصومال) كانت ضيقة ، فانتهى هجومها على الحبشة في السنة ١٨٩٦ بكارثة كبرى . وجملة القول انها كانت غنية بالرجال وفقيرة بوسائل العمل ، فلن ترضى ولن تقنع ، بل ستوجه اطماعها شطر ليبيا .

بيد ان مجالات المنافسة قد ضاقت حين استفادت الولايات المتحدة من الانحطاط الاسباني ودخلت المعترك بدورها . فحول المناطق الاخيرة التي لم تدخل في فلك احد — المغرب ، والشرق الادنى ، والشرق الاقصى — كانت الدول الاستعمارية ، القديمة منها والجديدة على السواء ، في حالة ترقب وتأهب . وفي الشرق الاقصى برز شريك مضارب اخير هو اليابان .

لقد بلغ توسع اوروبا الاستعماري ذروة اشرف منها على الانحدار .